

# القاسم بن علي الوزير في ذاكرة الأعلام

دراسات في فكره وشعره



اصدار اتحاد القوى الشعبية

١٤٤٧هـ / ٢٠٢٦م



# القاسم بن علي الوزير في ذاكرة الأعلام

## دراسات في فكره وشعره

إصدار اتحاد القوى الشعبية

٥١٤٤٧ / ٢٠٢٦ م





القاسم بن علي الوزير في ذاكرة الأعلام

دراسات في فكره وشعره



## مقدمة الكتاب

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين..

أما بعد،،

بين أيدينا كتابٌ يُشرق من ذاكرة الأعلام، ويستتير من فكر شاعرٍ ومفكرٍ يعني فداءً، هو الأستاذ القاسم بن علي الوزير — ذلك الرجل الذي جمع في مسيرته بين جهاد السيف والقلم، وبين نضال الثورة وإبداع الشعر، وبين فكر التنوير وروح التضحية

نحن هنا لا نقف أمام مجرد "دراسات" أو "قصائد"، بل في حضرة تجربة إنسانية نادرة، تجسدت في شخصية علمٍ امتدت أطراف دائرته المعرفية لتشمل الوطن العربي والعالم الإسلامي. إنه سليل دوحة ضاربة في أعماق التاريخ، تحمل نسيجاً منفرداً من العلم والجهاد، مما جعل من الصعب — بل من المتعذر — الكتابة عن شعره بمعزل عن ذاته، أو عن فكره بمعزل عن تاريخه

يأتي هذا الكتاب في الذكرى الثانية لرحيل الأستاذ القاسم بن علي الوزير، وفاءً لروحه التي ما فتئت تحلق في سماء الفكر والأدب، واستيفاءً لحقه الذي يبقى ديناً في أعناق محبيه واصدقائه وقرائه. وقد عرفه من عاصروه بأنه "مُعلمٌ لم يجلسوا في فصله، لكنهم تعلموا منه؛ صديقٌ لم يصادفهم، لكن كلماته صافحت أرواحهم". ذلك أن أعماق الصداقات لا تقاس باللقاءات، بل بذلك الخيط الرفيع الذي تنسجه الأفكار والمشاعر عبر الزمن

عرف الأستاذ القاسم الظلم مبكرًا؛ إذ سُجن مع أسرته بعد فشل ثورة الدستور عام ١٩٤٨م وهو في الرابعة عشرة من عمره. لكن السجن لم يكسر إرادته، بل كان محطة لصقل موهبته الشعرية والأدبية، ليتحول لاحقًا إلى أحد أبرز الأصوات الشعرية والفكرية في اليمن والعالم العربي

هذا الكتاب ليس مجرد توثيق لسيرة رجل، بل هو رحلة في أعماق مفكرٍ أصيل عاش هموم أمته، وتجرب مرارة السجن والمنفى، وظلَّ رغم كل شيء يزرع في حقول المعرفة بذور الأمل والنهضة. إنه مرآة صافية تعكس سجايا هذا الرجل التي لخصها العارفون به في ثلاث مفردات: العطاء، والصفاء، والوفاء

يجمع هذا السفر بين دفتيه نخبة من الدراسات والقراءات النقدية التي تناولت جوانب متعددة من حياته وإبداعه، فنجد بينها:

- دراسات في شعره الثوري، الذي كان سلاحه في مواجهة الظلم والاستبداد، حيث ترك قصائد خالدة مثل "الشوق يا صنعاء" و "أزهار الأحزان"
- قراءات في فكره التنويري، الذي استلهم فيه رواد النهضة العربية والإسلامية، وتجلّى في مؤلفاته المتعددة
- تحليلات لرؤيته الإصلاحية، ودعوته إلى تحرير العقول والإرادة، ورفضه للمناصب الزائفة وآثاره النضال من أجل المبادئ
- ومقالات تخلد مسيرته النضالية، منذ مشاركته في تأسيس حزب "اتحاد القوى الشعبية" عام ١٩٦١م مع شقيقه إبراهيم، ومشاركته في صياغة دستور الجمهورية والميثاق الوطني، حتى رحيله

إن الميزة الكبرى في فكر الأستاذ القاسم، كما تجليها صفحات هذا الكتاب، هي قدرته على المزاجية بين الأصالة والتجديد؛ فهو المثقف العضوي الذي لم يعزل عن قضايا مجتمعه، بل جعل من قلمه ترسًا ورمحًا، ومن فكره منارة تهدي في عممة الجهل والتخلف. في ثنايا الكتاب، سيجد القارئ تأملًا فلسفيًا عميقًا يستنبط الحكمة من قلب المخن، وحينئذ دافعًا لوطنه اليمن، ولصنعاء التي صاغ فيها أجمل لوحات الشعر العربي المعاصر ولم يفصل يومًا عن قضايا الأمة الكبرى، فجعل القضية الفلسطينية محورًا رئيسيًا في خطابه، مؤكدًا أن "الحرية لا تنجز". قال في إحدى قصائده الخالدة: "يا فلسطين وهل يجدي البكاء... قد بكيناك طويلًا نحن لا نبخل بالدمع... ولم نكنم الشكوى... ولم نحبس عويلا"

لقد كان الأستاذ القاسم بن علي الوزير - رحمه الله - نموذجًا فريدًا للمثقف المؤمن الذي لم تنكسر روحه أمام عواصف الزمان، وظلّ شعره يندي الأصائل طربًا، وفكره ينير دروب العابرين. آمن بأن "الإيمان هو الذي يحسم السير في النهاية"، وبأن التغيير يبدأ بالفكر، وأن الأدب ليس ترفًا، بل سلاح في معركة الوجود والهوية. فكانت سيرته نبراسًا لمن يبحث عن طريق مختلف في الفكر والحياة

وإذ نقدم هذا الكتاب للقارئ الكريم في هذه الذكرى الأليمة، فإننا نأمل أن يكون إسهامًا في التعريف بهذا المفكر الكبير، وإضاءة لمسيرته التي تستحق أن تبقى حية في ذاكرة الأجيال، وأن تظل - كما أراد هو - "حرثًا في حقول المعرفة" لا ينضب ولا يجف

نقدم هذا العمل وفاءً لمن عاش وفياً لمبادئه، وصفاءً لمن ظل شعره مرآة لروحه، وعطاءً

لجيل يجد في سيرة القاسم بن علي الوزير قدوةً ونبراساً

والله ولي التوفيق

إبراهيم الحبوشي

أمين أمانة الفكر والثقافة

باتحاد القوى الشعبية

## بعد عامين

نقلم المفكر أ. / نريد بن علي الوزير

رئيس المجلس الأعلى لاتحاد القوى الشعبية

(١)

مضى عامان من الزمن على رحيله بحساب الأيام والليالي، أما انا فاشعر فعلا أنه لم يمض الا يوم أو بعض يوم، لأنه لم يفارقني في يقظتي ومعظم ليالي فكثيرا وكثيراً جداً أنا نلتقي في الأحلام فنأخذ في الأحاديث كما كنا نفعل نناقش هذه القضايا أو تلك، نختلف ونتفق ونتجادل كعادتنا عند كل لقاء، وننعم ايضا بساعات مترعات بالحب، وما امرها من لحظة عندما أفيق فلا أجد الا نفسي وحيداً، فيلم بي حزن لم يحف، وراجف أضلاع لم تقف، وكأنني ودعته بالأمس، وهكذا في يقظة أو منام اجده خلف أجفاني مقيماً، أرى ساعة رحيله دائماً حيث نظرت، وأتمثله عندما أفكر أو أكتب، او استعيد كلماته الرائعة، أو اترنم بأشعاره الساحرة تلك الأبيات التي يبقى صداها يتردد في نفسي طويلاً.

كان أخي "القاسم" - نور الله ضريحه- وأنا "لدة" كنت أكبر منه بسنة وشهر ونصف، و(ابن السنة "لدة") - كما يقول المثل - أي كأننا ولدنا توأم. فثلاثة عشر

شهرًا ونصف لا تفصل بيننا في أي مجال، عشنا معا في ظرف واحد، تعلمنا من  
 يبايع واحدة، ونسجنا حياتنا خطوة خطوة، لعباً ولهوياً أطفالاً كُنَّا، أو شباباً، أو  
 رجالاً، أو شيوخاً؛ وتنعمنا معا في أيام ربيعية، واشتوينا في سنوات قيض محرق، كل  
 ذلك جعلنا روحين في جسد واحد (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَنَعَاطُفِهِمْ  
 مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى) كما قال  
 رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهكذا مشينا معا يداً بيد، خطوةً خطوة مدة ما يزيد على ٨٨ عاماً لم نفترق فيها  
 إلا لفترات.

## (٢)

وكما قال الشاعر الأكبر "أحمد شوقي": (إن المصائب تجمعنا المصابينا) فإلى جانب  
 الإخاء الذي كان بيننا فإن المصائب التي تلقيناها معا قد شد العرى. واذكر من بين  
 تلك المصائب في ذلك السجن ونحن في بواكير الشباب أننا اثناء سجننا منفردين في  
 "سجن حجة" أنه سقط مريضاً فأصابني من الخوف ما لم أخف مثله في حياتي،  
 وبعد أيام استفرغ كثيراً وكان أحد السجنانيين واسمه "جابر" حنوناً علينا، لطيفاً بنا  
 يواسينا ويجبر بخواطرننا وكان يساعدنا في "مراضنا"، وفي هذا المرض الذي أصيب به  
 أخي كان يسهر معي الليالي الطوال فيهتم به كما اهتم فجبر الله خاطره إن كان  
 حياً، ورحمه الله إن كان ميتاً. لقد كان رحيماً بين قساة.

وفي ليلة من تلك الليالي نام اخي وكان في بداية تعافيه، فخيّل الي من إشفاق عليه، وخوف من مصيره أنه لم يعد يتنفس، ولم اتبين على ضوء سراج شاحب هل تعلو بطنه وتنخفض وخفت خوفاً شديداً من ان يكون قد انتقل إلى رحمة ربه، فاندفعت كالمسعود أحركه حتى اتبين أنائم هو أو قد رحل، وما كان أسعدني أن استيقظ متعباً لكنني ندمت على ايقاظه، بقدر فرحي أنه مازال حياً.

وكم هي المصائب التي شدتنا إلى بعض أعددٍ منها ولا أعددّها ولست هنا في سبيل تعداد ما نزلت بنا من مصائب إلا بقدر مالتقينا معا من افراح واتراح، وابتسامات ودموع، وريع مخضل، وصيف قائص شدت بيننا العرى، إلى جانب طول الرفقة الحبيبة والتي كانت اطول الفترات مع اخوتي.

(٣)

وكان أول فراق مصحوباً بظرف قاس مر بنا أيام كنا في "سجن حجة" عندما جاءنا الخبر بأن والدتنا رضي الله عنها سقطت مريضة وليس لديها أحد يرهاها ولا يقوم بشؤونها الا أختنا "حورية" -اطال الله بعمرها- ففزع الطبيب "فينروني" وبعض العلماء، وكتبوا الى الإمام "أحمد" (١٣٦٧هـ/١٩٦١م) بخطورة مرضها وأنه لا بد من أن يكون بجانبها احد أولادها، لو حدث واسترجع الله وديعته اليه، وكان أخوتي "العباس" و"إبراهيم" و"محمد" قد فروا الى الخارج، ليواصلوا نضالهم، وكان اخي "القاسم" وانا سجينين في "حجة" فلم يكن بجانبها من ابناءها الرجال أحد، وجاء

الأمر من الإمام بسفري الى "سجن القصر" في "صنعاء" لأكون بالقرب منها أتردد عليها كل يوم صحبة جندي مكلف بمرافقتي خارج البيت وداخله.

## (٤)

ما أمرها من ساعة تلك التي تلقيت خبر انتقالي الى سجن في "صنعاء" لقد انشطرت إلى قسمين: شطر مني فرح برؤية والدتي وخدمتها ما سمح لي به السجنان، وشر آخر حزن لفراق اخي في الحبس، بالرغم من أن العلامة المستنير "أحمد بن محمد الوزير" رحمه الله معه كان قد انتقل من سجنه الانفرادي، إلى سجننا الانفرادي، قد خفف عني ما اجده من ألم ممض مرير، حيث كنت بالفعل ممزق النفس، بين فراق اخي، وفرحتي بلقاء، والدتي، وخدمتها.

من السهل أن أصف تلك المعاناة بالكلمات وارسمها بالألفاظ، ولكن من الصعب أن تنقل معها حرائق نفس تتعذب، فهما في حد ذاتهما مجرد حروف مرصوفة، لا إحساس لهما ليس فيهما نبض يتلظى ولا شعور يحترق، فد ينقل صورة حزينة أو جميلة كرسوم معلق في جدار مع ذلك، لكنها تفقر إلى إحساس حي مؤلم يرعى بين أضلعِ آذاها الحزن، وأرهقها الأسى، ومن العسير ان تتلظى الكلمات كما تتلظى النفس الجازعة، والعين الدامعة، وكما كنا نحسه من وقدة عذاب مستمر. ومهما اوتي المرء من فصاحة فإن ثمة فرق بين الإحساس ووصفه، كانت حالة فعلا لا أقدر أن أصفها لكن اخي -وهو شاعر هذا البيت- عبر عما نحس نحن الاثنان بقصيدة رائعة يصف بها حالتينا تلك فهتف

تلفت لا يدري وقد غاب وعيه      أصهباء يحسو؟ أم لهيب يعاقره  
أفرح؟ أم أبكي الفراق؟ فإنني      تلقيت ما قد كنت عمري أحاذره

لنا الله يا أخي لقد ضربت ايدي الليالي بينا على كره منا.

وهكذا ودعني وودعته كما قال الشاعر "ابن زريق" (٢٠هـ / ١٠٢٩م):

وَدَعْتُهُ وَبُودِّي لَوْ يُودِّي عَنِّي      صَفَوُ الْحَيَاةِ وَأَنِّي لَا أودُّهُ

(٥)

وتمضي الأيام وهو في حجة سجيننا، وانا في "صنعاء" سجين الليل طليق النهار، مع حارس لا يفارقني حتى إذا ما دجا الليل أسرع بي إلى السجن، وبينما نحن نعيش هذه الفترة القاسية قام الشهيد الثلايا بانقلاب ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م وينشغل الإمام "أحمد" بأسرته وشيئا فشيئا يطلق سراح الأسرة من "سجن حجة" واحدا بعد واحد وكان من ضمنهم أخي "القاسم" الذي سمح له بالانتقال إلى "الحديدة" للمعالجة صحبة جندي اوصله اليها واستلم من مدير المستشفى المرحوم "حسين المقدمي" وصلا باستلامه" وبعد ان أجرى بعض العمليات طلع "صنعاء" لزيارتنا بدون أن يصدر أمر بإطلاقه قط. لقد انشغلوا بأنفسهم وتغاضوا عن أشياء أخرى.

والتقينا بعد غياب، وذابت أحزان الفراق المر، في لحظة لقاء سعيد.

ومن المفارقات اللطيفة أنه لما وصل الى "صنعاء" كنت انا ما زلت سجين الليل طليق النهار. ثم بعد حين أطلق الإمام "أحمد" "بيت الوزير" من "سجن القصر".

(٦)

كنت أمل فعلاً بحكم كبر السن أني سابقه الى ربي، كما كان "شوقي" (١٣٥١هـ / ١٩٣٢م) يأمل أن يسبق "حافظ إبراهيم" (١٣٥١هـ / ١٩٣٢م) فقال حزينا:

قد كنت أوتر أن تقول رثائي      يا منصف الموتى من الأحياء  
لكن سبقت، وكلّ طول سلامة      قدر، وكلّ مينة بفضاء  
الحق نادى فاستجبت، ولم تزل      بالحق تحفل عند كل نداء

ولم افتقد أحاً فقط، شدتني اليه نوائب الزمن، وجرعتنا كؤوساً مترعات بالحن، بل أني أفتقد عقلاً كبيراً كان يلتزم بالحق ويلببه عند كل نداء؛ فيعمل من أجله، ويجهد نفسه في سبيله، فيحسن التوجيه، ويرشد فيجيد الإرشاد.

وفقدت - كما فقدت اليمن - عقلاً اجتماعياً يعرف الأسباب والمسببات، فيغوص في مشكلاتها ويتلمس أوجاعاً ويضع الحلول الناجعة لها.

وفقدت شاعراً - كما فقدته عالم الشعر - ينام الناس على قوافيه، ويسهر الناس جراها فيتنعمون بالحن العذب والنغم الجميل، ويشاهدون بالعين صوراً من بلادهم فيها ما يسر وما يحسن، ويقرأون فيها صورة نفوسهم.

وفقدت كاتباً كبيراً - كما فقدته عالم البيان - يرسم بقلم صناع، صوراً تسعى أمام ناظريك بالحقائق المجردة من كل هوى. يحلل المشاكل المستعصية، ويفكك عقدها الملتوية. وكيف يأتيه الهوى وهو بذلك العقل المستبصر الرشيد.

وهو وإن لم يجمع ما حاضر، وما ناقش وما حاور فهو - في هذه الناحية - كموقف الشرق "جمال الدين الأفغاني (١٣١٤هـ/١٨٩٧م) وكالإمام "محمد عبده" (١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م) الذين تركا مكتبة واسعة الأرجاء من التلاميذ بدون أن يكثرا من التأليف، مكتفين بما يبثان من قول اضء الطريق.

ومن المعلوم أن كتاباً واحداً يعني عن عدة كتب، ويكون له من التأثير ما لا يكون لغيره، ونحن نتذكر أن كتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" لـ "عبد الرحمن الكواكبي" (ذ. ٣٢٠هـ / ١٩٠٢م) من أهم الكتب تأثيراً، ونعرف أن كتاب "تحرير المرأة" لـ "قاسم أمين" (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) كان له التأثير المدوي ونعرف أن كتاب "العقد الاجتماعي" "جان جاك رسو" (١١٦٣هـ / ١٧٧٣م) كان من أهم الكتب المؤثرة فلا استبعد أن يكون كتاب "القاسم بن علي الوزير" المسمى "حرث في حقول المعرفة" من هذه الكتب المؤثرة والمرجع، لكل باحث.

وفقدتُ محلاً - ففقدته النقاد الكبار - يفكك العسير من الأمر، والمعميات من القضايا في يسر وسهولة وفي أسلوب بليغ لا يرقى إليه إلا من أعطي بسطة في البيان يتناول القضايا الصعبة، فيحيلها بسحر بيانه ناصعة سهلة الفهم.

فقدتُ انساناً براً رحيماً حيث الناس بحاجة إلى المودة، والمحبة، وترك البغضاء والتنافر. هذا الإنسان يتحدث عن نفسه وارتباطه بالحق، حيثما كان وإنما على ذلك من الشاهدين على ما يقول:

قالوا: تغربت مختاراً؟ فقلت لهم كنت المغرب في أهلي وأوطاني

قالوا: عجبنا تركت الدار أهلاً فقلت: لكن بقطعان وذئبان

قالوا: ومنصبك المرموق؟ قلت لهم حمل من الزور في أكناف طغيان

قالوا: وجاه على النعماء سابغة؟ فقلت: من تحتها آلام نيران.

قالوا: واهلك. قلت: الله يكفلهم قالوا: ونفسك؟ قلت الله يرعاني

قالوا: وماذا إذاً. قلت: اتركوا رجلاً من غير أقطاب ذاك المحفل العاني

إني أهاجرُ لا خوفاً ولا طمعاً لكن حفاظاً على نفسي كانسان

أصيح في الفلوات الريد عل صدى يعيد رشداً لرعيان وقطعان

لا تلتمسيني عند القوم مثلهم القاك في ساحة الجلى وتلقاني

قالوا: وعنوانك الآتي فقلت لهم الحق حيث يكون الحق عنواني

وهل يُدعى الإنسان انساناً إلا إذا كان الحق حليفه، والباطل خصمه، وأشهد

شهادة صادقة، لقد كان "القاسم" إنساناً محقاً في كل حياته، منصفاً في سلوكه،

متواضعاً في عمله، لا أقول ذلك لأنه أخي وشقيقي ورفيقي، بل هي الحقيقة التي

عرفتها عنه عبر عدة مواقف، كان يملك نفسه عند الغضب، لا يقول بذيئاً من

القول، ولا سيئاً من اللفظ، بل يقول للناس حسناً، لهذا كله ترك حزناً، وخلف

فراغاً في هذه الحياة من الصعب أن يملؤه غيره من أسرته الكبيرة.

إن الحديث عن الآفاق الواسعة التي حلق فيها "القاسم بن علي الوزير" لمجال واسع لمن يبحث فيها، وأنا عازم أن أكتب عنه ما أعلم ليستفيد متلمس طريق، أو طالب هدف، ليقيني أنه سيجد فيها ما يروي ضمأه. لأن كان هناك سبيل لإرواء ضمأ عالم، فالعلم بحر واسع لا شواطئ له، ولكنه قد يستفيد من بعض فوائد هذا البحر الزخار، الذي ليس إلى إحاطته من سبيل.

فسلام عليه يوم ولد، ويوم انتقل الى ربه ويوم بيعت مؤمناً حياً.

ولن أقول وداعاً لأنها كلمة يصعب عليّ تلفظها، أو سماعها ولكنني أقول إلى اللقاء في رحاب رب كريم عندما يدعوني اليه، ورحمة ربي وسعت كل شيء.

القاسم بن علي الوزير

دراسات في

في ذاكرة الأعلام ..... فكره وشعره

## كلمة عن الشعر والشاعر قاسم الوزير

### د. مرشد المبارك

ليس ما يأتي في هذه السطور دراسة لشعر الشاعر ولا ترجمة لصاحبه فلذلك مقتضيات وأدوات لم أقصد إليها، وإنما هي كلمة عن الشعر وانطباعات عن الشاعر أمليتها معرفتي الطويلة به وأسرته وخلطة سعدت بها به وإخوته وفي مقدمتهم أخوه الجليل إبراهيم ذو التمييز في عقله وفضله ومكانته، ومثله إخوته الآجلة، وهي ليست تعريفاً به فهو علم في دائرة معارفه وآلافه وهي دائرة تمتد على أطراف الوطن العربي وتتسع لتشمل العالم الإسلامي وخارجه، فالشاعر وأسرته ينحدرون من دوحة تضرب في أعماق تاريخنا بما يحويه نسيج هذا التاريخ من علم وثقافة وجهاد، ومن يعرف قاسم ابن علي الوزير يعرف انه يصعب إن لم يتعذر أن يكتب عن شعره منفصلاً عن الحديث عن ذاته ذلك ان شعره مرآة صافية لذاته وانعكاس لهذه الصفات في خلالها وسجاياها، وهي سجايا يمكن ان تلخص في ثلاث مفردات هي العطاء والصفاء والوفاء

### عن الشعر

والشعر ألصق الخصائص الإنسانية بالإنسان قد يبدو هذا القول غريباً من حيث كونه يجعل مما هو ألصق خصائص الإنسان ينفرد به بعضهم عن سواه الواقع يقول

نعم الإنسان يشترك مع سواه من الأحياء مما يأتي متخلفاً عنه تخلفاً بيناً في سُلم تصنيف الأحياء النبات والحيوان يشتركان مع الإنسان في كثير من صفاته كل من النبات والحيوان يتغذى ويتنفس ويتكاثر ويتحرك ويحس بل وينفعل وكذلك الإنسان الحيوان يشارك الإنسان في التفكير على درجة من درجات هذا النشاط مع مناخ الكائن الحي العلم الوحيد الذي لم يظهر - حتى الآن - مشاركة غير الإنسان للإنسان فيه هو (الطرب) بجناحيه الحزن والفرح ملامح الإنسان قد تبدي ما هو عليه من حزن أو فرح، ولكن اللغة أقوى وسائل التعبير عنهما اللغة ألصق الأشياء بكينونة الإنسان من حيث كونه مخلوقاً اجتماعياً، لولا اللغة لما كان للإنسان علم ولا فن ولا أدب، بل لم يكن له تاريخ الشعر أنغام اللغة مصوغة في كلمات وهو المنفذ الأقوى والأفعل تعبيراً عن (الطرب) ودفعاً إليه

لو اطردت الطبيعة البشرية لكان الشعر لازمة من لوازم الإنسان وكانت مفردة (إنسان) تعبيراً مرادفاً لمفردة (شاعر)

لو اتفق البشر في طباعهم لكان الشعر الواحة التي يستظل فيها كل فرد عن وهج الشمس ويستريح فيها من عناء السفر ويستروح منها أنفاس الشجر من الصحيح أن القدرة الشعرية - مهما علت - ليست مقياساً وحيداً للعبقرية والتفوق، ولو كان الأمر كذلك لما وجدنا نماذج من النبوغ والتفوق لا يربطها بالشعر رباط على أنه من المؤكد أن الإبداع في الشعر أكثر أنواع النبوغ قرباً إلى القلوب

إذا كان القادرون على إجادة الشعر قلة من الناس فإن نسبة كبيرة منهم تُصغي إليه وتنفعل به وتجد فيه أبهج نشواتها لما سبق من أسباب مما يميز النص الشعري في وقعه على النفس وتأثيره فيها ما يحمله من موسيقى بما يضعه الوزن والقافية من إيقاع تجريد الشعر من الوزن والقافية، أي تجريده من إيقاعه سلب لأهم عناصر مقوماته وعناصر جماله

في عالم المادة توجد مقاييس كمية تتعلق بالموضوع ولا صلة لها بالذات التي تقوم بالتقويم أو القياس أو إظهار الصحة والخطأ عن طريق الانشقاق الرياضي، هذه الوسائل تحدد وتكشف طبيعة الموضوع، ومقدار التوصيل الكهربائي والحاراري لمعدن ودرجة غليان وتجمد مادة والنشاط الإشعاعي لعنصر مشع وعمر النصف له أمور تبين عنها التجربة ولا صلة لها بالمجرب في تقويم الشعر وتمييز جيده من رديئه لا توجد مثل هذه المقاييس في دقتها وصرامتها إذ هي علاقة تفاعل بين المرسل والمستقبل

ما يذكره النقاد الأقدمون والمحدثون من المحسنات البديعية وديباجة اللفظ وأثر الصورة الشعرية وغرابة المعنى أو جدته أو طرافته، وكذا الموسيقى الداخلية التي يضعها النسب بين الكلمات وما للغموض والرمزية من قيمة لدى بعض النقاد أمر له مكانته عند النظر إلى النص الشعري علماً أنه - مع ذلك - أمر مختلف في تأثيره ووقعه وبالتالي تقدير أثره باختلاف المتلقين لذلك النص على أنه يبقى قبل ذلك

وبعده حد مشترك بين الناس متى توافر في النص الشعري أمكن تصنيفه وهذا ما جعلهم يصلون إلى إجماع أو شبه إجماع في وضع الشعراء في مراتبهم

### عن شعر الشاعر

لعل أول ما يستوقف القارئ لشعر الأستاذ قاسم هو طابع الحزن الذي يسر به لأنه إلى الحزن صار ومن الحزن انبعث ولا نجد ذلك غريباً من شخص مثل المتحدث عنه ذلك انه إذا كان الشعر هو ألصق بطبع شاعر وأقوى العوامل المشعلة لمشاعره وأكثر ما يلح الحزن ويفيض عندما يبرز المرء بفقد حبيب أو نكل في قريب أو انخيار مجد وتضعض تاريخ، وأن شاعرنا محب ومحجوب اتسعت دائرة خلصائه ومحبيه واتسعت دائرة فقدته جاء أكثر شعره - تبعاً لذلك - قصائد رثاء أو إشارة لتاريخ قد شاخ واتسع ذلك باتساع دائرة هذين الباعثين، لقد عشق تاريخه فأشجاه وأبكاه وأحب آلافاً في حياتهم ووفي لهم بعد مماتهم، غابوا عن ناظره واحتفظ به ذكرى لا تغيب عن مشاعره، يشعر بذلك شعوراً عميقاً حتى يجعل هذا الشعور الحزين بعض مواهبي:

حزين ... نعم الحزن بعض مواهبي      فلا تسألني عني سلي عن مصائبي

تجرعتها طفلاً صغيراً ويافعاً      وكهلاً لقد أتعبت حتى متاعي

وتجرع المصائب في طفولته وشبابه ليس حديث استعارة أو كناية، بل واقع وممارسة، لقد عرف السجن وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره وعرف البعد عن الأهل والوطن ولا يزال أكثر سني عمره، عرفته الحركة ولم يعرفه الاستقرار، وصحبه الترحال ولم ينعم بهدوء بالغ ومع ما تقدم فقد تميز شعر الأستاذ قاسم بميزات عديدة لعل أبرزها التالي:

الأول/ تميز في الرثاء بحيث يمكن أن يعد هو وبدوي الجبل - رحمه الله - شاعري الرثاء في ديوان الشعر العربي لما يتميز به رثاء كل منهما بكونه شجي الجرس، صادق النبرة متوهج الالتهاب.

الثاني/ قدرة ظاهرة على توظيف المفردات توظيفاً جديداً وفريداً لتؤدي وظيفتها أقوى أداء وكأنه جعل مفردات لغته تمر من خلال غربال يختار لكل غرض ما يلائمه من المفردات

الثالث/ ابتكار لمعاني أجاده وبرز فيه

الرابع/ تأمل فلسفي واستنباط لم يفضل إليه كثيرون

الخامس/ كلف بوطنه ووله إليه وحنين لا ينطفئ إلى ما يذكره به من صبايات ولبانات وهو وله تتمنى والهة أن تصوغه رسائل إلى حبيبها

الميزة الأولى

كثير في ديوانه، مثل قوله:

فلا تسألني عني سلي عن مصائبي      حزين ... نعم الحزن بعض مواهبي  
 تجرعتها طفلاً صغيراً ويافعاً      وكهلاً لقد أتعبت حتى متاعي  
 بكيت الرفاق الداهبين فلم أدع      دموعاً لعين أو وجيباً لنادب

وقوله:

يكتب الموت كل يوم من الشعر      فنوناً تهمني أسى وتروع  
 بعض أوزانه النواح وبعض      من قوافيه في القبور ضجيع  
 ما وضعنا يداً على الجرح      إلا سال جرح على الشفاء منيع  
 كل يوم مودع لحبيب      بعض نفسي يمضي وبعض جزوع

بكاء الرفاق الراحلين بكاء لا يدع دموعاً لعين أو وجيباً لنادب وثيقة لا تدحض على مدى الإحساس وبالغة الجرح وعمق المصاب، ولا يخفى ما في البيتين الأوليين من معنى مبتكر عن نوع الشعر الذي يجيده الموت، أما البيت الرابع فهو تكثيف للحزن شديد يذكر بقول الأول:

دفنت بنفسي بعض نفسي فأصبحت      لنفسي منها دافن ودفين

الميزة الثانية

شائعة في شعره كشيوع الأولى وهي القدرة على توظيف المفردات توظيفاً جديداً ومن ذلك قوله:

الراكعون على الجهاد السجد العاكفون على السالح عبادة

القارئون الموت رتل بعضه ناج وجود بعضه مستشهد

الثابتون على العتاق كأنها في بدر ترتجل الحتوف وتنشد

أحسب أن مثل هذا الشعر نمط لا يرقى إليه شاعر، والاعتكاف والسجود على الجهاد والسلاح نوع من العبادة فريد، كما أن قراءة الموت وترتيبه - جهاداً - إسباغ للقداسة على الجهاد لا أعرف ان شاعراً قبله تحدث عنه

#### الميزة الثالثة

ابتكار المعنى، وديوانه يروش تورق فيه المعاني المبتكرة وتزهر ومن ذلك الأبيات السابقة في وصفه للجهاد، والمعاني المبتكرة التي مرت في هذا المعنى موهبة لا توجد إلا في قلة ممن يقول الشعر فيحسنه، واعتبار صليل السيوف صلاة ومواضع الجراح مساجد أمر لا يعرفه إلا قلة من القائمين والصائمين والركع السجود، على أنه قوله:

بعض دمعي مزن وينبت منه في حقول الأحزان وشي الورود

صورة شعرية تستدعي إلى سرادق الحزن مفاتن الجمال، وكأن الشاعر يريد أن يكشف من ظلام الحدث ما تراكم من أحزان

#### الميزة الرابعة

وهي التأمل الفلسفي واستنباط معاني لم يفضل إليها الكثيرون فمن ذلك قوله:

ويجادل فيك الموت معنى حدوثه وفيك رأى معنى الخلود المصاحب

فهذا البيت زفرة أسي واحتجاج إشارة إلى مالا يفهم من الحكمة والغايات وهي زفرة لا يجد المرء ملاذاً عنها إلا في الإيمان بالغيب مما لا تزاح عنه الستور، ومن المؤكد أن من الأفراد ما يكون خلوده في رحيله ومن يكون ذكره نبات تتعاقب على سقيه وإحيائه القرون

#### الميزة الخامسة

وهي الحنين إلى ماضي لم يبق من مجده إلا تذكره وبناء لم تبق من مقاصيره إلا أطلال، وهو حنين يملأ عليه جوانح نفسه يسامره في يقظته ويساهره عند هجوعته

الخيول المطهات سبايا فذليل بذلها المهرجان

والسيوف التي استضاء بها التاريخ أزرى بها الوريث الجبان

أين مني الأقصى ويكي المصلون فنعى عند الأذان الأذان

الذي يقرأ هذا الشعر يسمع منه قعقة اللجم وصليل السيوف وبكاء المصلين، وهذه الأبيات تستدعي رائعة شوقي ( قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا ) والتي قال فيها عن دمشق إبان الاحتلال الفرنسي لها

وقفت بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلى أو المحراب مروان

فاستعجم المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعبدان

## فلا الأذان أذان في منارته إذا تعالى ولا الأذان أذان

فإن هذه الأبيات مع سابقتها في الدواعي والمعنى وشحنة الأسي، فإنه من الواضح أن نبرة الأسي أشد حدة في أبيات الأستاذ قاسم إذ أن أشد وقع المأساة أثراً حالة يكون فيه الأذان نعيّاً

## الميزة السادسة

ظماً لا يرتوي إلى مرابع لهوه ومراتع صباه ووله إلى سماره وإلى صبواته ونشواته وقد صاغ ذلك في كثير من شعره وأبدع رائعته في صنعاء التي جاءت من عيون الشعر في ديوان الشعر العربي، والصورة التي نسجها تجعل قارئها يتساءل أذلك واقع معاش أم منى متخيلة، وسواء كان هذا أو ذاك فقد أتحف الشاعر قارئه بأنضّر اللوحات تموج بالصور والألوان وأنظر ما تجود به الحياة من نشوات

صنعاء هل في الندي السمح أسمار كما مضى من ليالينا وسمار

وهل رخي العشايا مثل عاداتها شعر وأشواق عشاق وأسرار

التحفت الحسان الجميلات التي بمغزر الليل أرواح وأبصار

صنعاء أغفت على الأزمان فتنتها فدونها من وراء السور أسوار

إذا مشيت على حصاها همست شعراً وباح بسر الشوق قيثار

تندي الأصائل من شعر ومن طرب وتنتشي برحيق الذكر سمار

ينساب كالبرق من علي مآذنها      في هدأة الليل تسبيح وأذكار

يمضي الشاعر مكماً قصيدته التي تبلغ الخمسين أو نحوها من الأبيات وكلها مما يسميه القدماء الدياج الكسرواني، يجد القارئ فيها تلك السمات الرخية من رياض البحري وصياغات بدوي الجبل وقدرته على استدعاء جواهر من مفردات اللغة تكون بانتظامها عقداً فريداً لا تملك عقود اللؤلؤ نضارته، فجمع الندي السمع ورخي العشايا والشعر والعشاق والأشواق والسمار والأسرار في بيتين من الشعر منظومة نظماً فريداً في عقد جميل يشعرك بالنسب بين هذه المفردات بمعنى أن كل واحدة تستدعي قرينتها بحيث لو أردت أن تحذف أي مفردة لتضع مكانها سواها لذهبت من العقد نضارته، وأحسب أن القارئ سيشعر من قراءة هذه الأبيات بما تشعره به لمسات النسيم وأنفاس الشجر، أما اختياره لمئزر الليل غطاءً لحسانه كناية عن التخفي فهو تناول لذلك المعنى من ذوق شاعر مرهف، ولعل ربة العشق والغزل تلك الأموية من سلالة الخلفاء فقد كانت أكثر وضوحاً وربما جرأة من حسان الشاعر وقد سبقتهم بأكثر من تسعة قرون عندما كتبت لابن زيدون تقول:

ترقب إذا جن الظالم زيارتي      فاني رأيت الليل أكرم للسر

وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر      وبي منك مالو كان بالنهر ما جرى

أما قوله:

إذا مشيت على حصاها همست      شعراً وباح بسر الشوق قيثار

يجعني لا أخال مدينة أخرى لا تتمنى أن تكون صنعاء ليقال فيها ذلك الغزل أرسله  
ناسك من محراب عشقه، أما قوله:

ينساب كالبرق من علي مآذنها      في هدأة الليل تسبيح وأذكار

فهو يستدعي إلى الذهن قول أبي نواس:

وتمشت في مفاصلهم      كتمشي البرء في السقم

على اختلاف في الغرض والموضوع في هذا البيت يلاحظ القارئ أن الشاعر لجأ إلى  
الإضمار قبل الإظهار، إذ جعل التسبيح والأذكار فاعلاً للفعل ينساب ولم يجعله  
حالاً منصوباً ولا ضميراً في ذلك

وبعد فقد سبق لي أن قلت في حديث لي عن المتنبّي أن الأدب العربي خسر مرتين،  
مرة حين لم يعشق المتنبّي عشقاً يملأ عليه أقطار نفسه وترك هذه النفس محبوسة على  
( أطراف القنا ) كما خسر الأدب مرة أخرى إذ لم يتعرض شوقي لصروف وظروف  
تستثير أحزانه، وظني أنه لو تعرض شاعرنا للواعج العشاق ولوافح الهجر ونسمات  
الوصال لجاء في ذلك بما يوقظ الغافي من الأشواق، ولعل ذلك يفسر أن ما جاء  
من شعره متعلقاً بالغزل هو أقرب إلى الصنعة منه إلى اللوعة وإلى المحاكاة منه إلى  
المعاناة، ومع ذلك يبقى قاسم بن علي الوزير شاعر المعنى المعجب والسبك المطرب  
الناقد لشعره مشتركاً له لا مشتركاً عليه في مقاصده وغاياته واعتقادي انه ظلم  
عشاق الشعر ومتذوقيه عندما حجب أو حبس عنهم مدة طويلة هذا النبع الرقراق

القاسم بن علي الوزير

دراسات في

فكره وشعره

في ذاكرة الأعلام

## القاسم الوزير الشاعر والإسلام والثورة

### د. أحمد سام الساعي

مَنْ للغريب إذا هو اغترباً في الأرض يضربُ كلَّ مُضْطَرَبٍ؟

لا تسأليني: كيف أنت؟ نَبْأِي حَظُّ مُرْتَقِبٍ وَمُغْتَرِبٍ

إنه الشاعر المترحل الذي حمل على ظهره قلمه وفكره وماضيه وأحلامه، وانطلق بما بعيداً عن الأرض التي كانت مراحاً لطفولته، ومغنى لشبابه الأول، ومرتعاً لآماله البكر وتطلعاته الاجتماعية والفكرية والسياسية والأدبية. باحثاً هناك في أرض المجهول عن منبتٍ لبذور أحلامه العذراء، وملجأً لمبادئه المثالية الضائعة، المنبوذة على أرضفة الحياة، ومستقرّاً لنفسه المتفردة الطموح، المحدقة أبدأً في الشمس الغاربة، تحاول أن تشيها عن الأفول، أو تتعد معها على فجر مرتقب جديد

إنه «حالة» من حالات كثيرة في المشرق العربي، تشكل ظاهرة «العقل الباحث عن أرضه الحقيقة» ولكنها هنا حالة لا يرهقها المسير، ولا ينال منها التعب، ولا يدركها الهرم أو الجفاف:

وأنا حالةٌ من السفرِ المَوْوُولِ ما بين جيئةٍ ودُھُوبِ

ما دَوْتُ جِدَّتِي، ولا آذَنْتُ كَأْسِي على كَثْرَةِ الظَّمَا - بُنْصُوبِ

إنها حالة «مؤمنة» تنطلق من المنطق الإسلامي ومفهومه للحياة:

"اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً"

فلا مرارة الهزيمة تقهرها فتزيلها عن مواقعها، ولا حلاوة النصر ونشوة الظفر يدفعان بها إلى سكرة الزهو بعيداً عن أرض الواقع، وهو بهذا الموقف الأخلاقي العقلاني على طرفي نقيض مع المتعيين:

ما ازدهاني نصرٌ ولا جَلَلْتَنِي      في الليالي مَذَلَّةُ المَغْلُوبِ  
تَعَبْتُ حَاقِدِي مَقْدَرَةَ الصَّفْحِ      وبعضُ الأذى قِرَىً للوهُوبِ

### الثورة للأحياء والأموات

ولكنه المسلم الثائر، المتفجّر غضباً على الطغاة، المشتعل بنار ظلمهم، والقادح لشرارة العزائم للإطاحة بهم، كيف لا، وقد ذاق على أيديهم مرارة السجن، وغمسوا قدميه في حياض الردى، فكان منه قاب قوسين أو أدنى، وما ذلك إلا من أجل الوطن الذي أحبه فعقه، وتفانى في سبيله فما كان إلا الجحود والنكران، فماذا بعد ذلك إلا الثورة والغضب، ثورة تطيح بالجدور كما أرادها أبو القاسم الشابي من قبل:

أَيُّهَا الشَّعْبُ لَيْتَنِي كُنْتُ حَطًّا      بَأْ فَأَهْوِي عَلَى الجذوعِ بِنَاسِي

وبين قاسم وأبي القاسم أكثر من صلة روحية وثورية وفنية. أما أبو القاسم فله النظر والتأمل والثورة من خلف زجاج نافذته، وأما قاسم فخلية حية متحركة داخل دم

الثورة. ينبض بها وتنبض به، يدور دورتها في أوردة الوطن والحياة، فتقذف به ويقذف بها حيناً هنا وحيناً هناك:

كيف أنساك أيُّها الوطنُ الغالي      وقد ضِعتَ بينَ سيفٍ وقَوْسٍ

في صباحِ الحياةِ حاولتُ أنْ      أهويَ على المستبدِّ فيكَ بفأسي

رُزْتُ فيكَ الردى وقد كادَ يطويني      مراراً في ظلِّمةِ السِّجنِ رَمسي

واصطليتُ السعيرَ في كُلِّ وادٍ      وشربتُ الحميمَ من كلِّ جنسٍ

إنه الخلية الحية بين الأحياء، ولكنه أيضاً الخلية التي تريد أن تنتقل إلى عالم الموتى، لا لكي تموت، بل لتنتقل إليهم هناك عدوى الحياة وعدوى الثورة، فأبي خطر أكبر على المتجربين من هذا الذي يريد أن يموت ليعث في الأموات روح التمرد والحياة:

أنا لا أعيشُ بغير عاصفةٍ تُعيدُ في حياتي

لو كنتُ أعرفُ أن أموت... إذاً أجربُ مماتي

وأعلمُ الموتى جنوني

ثورتي... قلقَ الرُفاةِ

وسط العاصفة والضياع والانتقال إلى عالم الأموات ليس خطوة بعيدة المدى كما يمكن أن تتصوّر، فما أقرب المسافة بين الموت وبعض الحياة، وحين تقتلع العواصف الشجرة من جذورها وترمي بها خارج الأرض التي نبتت فيها، وحين تقلب الأمواج

السفينة لتبتلعها أعماق البحر، فهل استمرار وجود الأولى على سطح الأرض بعد اقتلاعها يعني الحياة، وهل استمرار وجود الثانية في البحر بعد غرقها يعني البقاء؟ هكذا يجلو للشاعر أن يغرق في وسط العاصفة والضياع بعد أن أدمنها، إنه لم يعد يحسّ لهما وجوداً وقد أصبحا من حوله الهواء الذي يتنفسه وصارا له السكون والسلامة والاستقرار:

معنا غداً؟ لا.. لا، دَعُونِي.. إني لَتُرْعَبُنِي ظُنُونِي

ماذا يخبئ لي الزمانُ إذا خرجتُ إلى السكون؟

تلك الديار... وقد فَرَشْتُ إلى مباحجها عيوني

وسَقَيْتُ من قَطْرَاتِ قلبي عَرَسَةَ الأملِ الحنونِ

وبَنَيْتُ لي بَيْتاً، كأحلامي، منَ الشعرِ الحزينِ

وصَنَعْتُ أفراحي وأتراحي كما تَهْوَى فنوني

أنا لا أطيقُ سوى البقاء هنا... على وَهَجِ الجنونِ

والحيرة، والتمزق والضياع وجوه متعددة لعملة واحدة تعامل بها معظم الشعراء في الماضي وفي الحاضر، وستظل العملة المتداولة بينهم ما ظلّ الشعر، ولكنها عند الشاعر المعاني عملة مؤقتة عارضة يتعامل بها في الحالات الصعبة الطارئة، ليعود من بعدها إلى استقراره النفسي وطبيعته الإنسانية الواضحة. وهكذا تهب عواصف

الأسى في صدر القاسم، فيحسّ بنفسه متمزّقة ضائعة، تتعاورها التناقضات، وتهرب  
الطمأنينة من بين أصابعها كالماء، فيخاطبها بلوعة الجريح:

رياح أهوائك مجنونةٌ      تلعبُ بي لُعب الصبّي بالأُكُر  
فيك النقيضانِ ولكنني      لم أحتَرِ الأمرينِ أو أستَشِرُ  
لا رِخَلتي قد وجدتُ مُنتَهَى      ولا رِكابِي قد سَئِمَنَ السَّفَرُ  
ولا أنا راضٍ.. ولا ساخِطٌ      ولَسْتُ مَهزُوماً.. ولا مُنتَصِرُ  
وأنتِ بالأسوأ أَمارةٌ      وللسمواتِ مددتِ البصرُ  
يا نزوةً شيطانها مؤمِنٌ      يا زهرةً يانعةً في سَقَرُ

ولكن شيطان نفسه «المؤمن» لا يتركه ضائعاً ممزّقا حائراً، فسرعان ما يساعده في  
العثور على الإجابة عن تساؤلاته المريرة، ليجعل من تلك الحالة المرضية سحابة  
صيف عارضة ما تلبث أن تنقشع تحت حرارة شمس الإيمان، الإيمان بالله مكّون  
هذه النفس البشرية العجيبة. يقول لشیطانها في القصيدة نفسها:

أوسَعَتني لوماً وأودتْ بنا  
جِبِلَّةٌ كُؤِنَ منها البَشَرُ  
بكاء الأطلال أم بكاء النفس

وتتكرّر مأساة العربي المترحل، ولكن في شكلها الحديث. كان بكاؤه في الماضي ندباً لأطلال الأحبة الذين ما يفتأون يتحولون من أرض إلى أرض تحت وطأة الحاجة لأبسط متطلبات العيش: الكأ والماء، ولكن تلك البساطة ما تلبث أن تتعقد وتزداد وطأتها ثقلاً على ظهر المعترب، وما يلبث الكأ والماء - عماد الحياة في تلك العصور - أن يتحوّلا إلى وطن كامل، لقد انقلب البكاء على أطلال الأحبة بكاء على أطلال الوطن والأسرة والبيت، بل على أطلال الباكي نفسه:

تِلْكُمْ الدارُ التي كانت لنا      عَجَلَ البَعْيُ إليها فمحاها  
 مَلْعَبِي كانتُ وكانتُ مرتعاً      لهوى النفس على عهدِ صباها  
 ها هنا كُنَّا جميعاً... ها هنا      كم زَهَتْ بالأَنْجُمِ الزُّهْرُ سماها  
 كيفَ لا أذكُرُ أَيَّامِي بها!!      كيفَ لا أَسْكُبُ دَمْعِي في ثراها!!

لم تعد الدار إذن مجرد أطلال، إنها ما زالت الدار، القائمة هناك، عامرة بالحياة والخير والطفولة والشباب، وهو ما يزال، بخياله، قادراً على احتضانها وإعادة الحياة إليها مهما نأت عنها وعن ساكنيها الحياة:

على كَتِفَيْهِ يَحْمِلُ قَبْرَهُ المَفْتُوحَ أَنَّى سار  
 وَرَغَمَ الدَّمْعِ رَغَمِ الجُوعِ ما زالت له عينانِ غائرتانِ  
 تحتضنانِ في شَعْفِ، حَيالِ الدار

## التيه في عالم المادة

ولئن أغرقت العربي المترحل رمال الصحراء، فما كان في تلك الرمال ما يلهيه، عن ذكر الديار والأحبة، ولكن ما بال بهارج القرن العشرين وأضواء حضارته، التي تعشي عيني هذا العربي، ما تزال عاجزة عن شدّه إليها ودفعه إلى نسيان الماضي، نسيان الدار والأطلال والأحبة والشرق كله، هل كان على العربي القديم الضياع في رمال الصحراء ليكتب على العربي الجديد، وعلى كل الثوار وعشاق الحرية المتطلعين إلى الحياة، الضياع والتشرد والتيه في «سيناء» الحضارة المترامية الأطراف؟

وها هو في بلاد المال والأعمال

يسحق جُهدَهُ الإهمال

تُلاقفه الشوارعُ، ضائعاً ويَلوِّكُهُ الحرمان

ويَنفِيهِ رصيفٌ نحو آخرٍ في بلاد المال والأعمال

وتَصَفِّعُهُ المطاعمُ موصلاتٍ دُونَهُ الأبواب

تنهشُهُ ذئابُ الجوع

تعوي في حَواءِ شبابه المهدور

في كونٍ يقولُ الناسُ عنه، إنه مَعْمُور

المال والأعمال والشوارع العريضة والمطاعم الفخمة كلها لا تعدل لمسة حانية من أم أو أخت أو زوجة ولا نظرة حب آسية تلقي بها عليه حتى عجوز من الشرق تبعث في جوانحه من جديد دفء الإنسانية المفقود، فأين تلك النظرة المششفقة واللمسة الحانية في تيه حضارة الغرب البائسة:

تَهْنَا وَجَرَيْنَا فَمَا دَمَعَتْ عَيْنٌ، وَلَا قَلْبٌ لَنَا جَزَعَا

أَيُّ اسْتِغَاثَةٍ تَأْتِيهِ سُمِعَتْ فِي عَالَمٍ مُتَّنَاحِرٍ طَمَعَا

ولكن المسلم وحده هو الذي يعرف الطريق في النهاية، وبنور هدى الله يعثر على الكوة التي تخرج به من متاهته اللامتناهية الآفاق، فما دام خطوه في درب نبيه الكريم ورؤاه على نور من إلهه العظيم، فأبي متاهة يمكن أن تبتلعه:

مَا زِلْتِ مِنْ بَلَدٍ تَمْضِي إِلَى بَلَدٍ وَمَنْ بَعِيدٍ إِلَى جَافٍ مِنَ الرَّحِمِ

مُفَزَّعِ الْخَطْوِ فِي دَرْبِ الرَّسُولِ، وَكَمْ أَغْفَى عَلَى الْإِثْمِ طَرْفٌ عَنْ هِدَاةِ عَمِي

لَمْ يَنْقِمُوا مِنْكَ إِلَّا هَامَةً شَمَحَتْ عَلَيْهِمْ، وَعَنْتَ لِلوَاحِدِ الْحَكْمِ

سَيَحْكُمُ اللَّهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَنَرَى مَنْ فِي غَدٍ قَارِعٌ سِنًّا مِنَ النَّدَمِ

### من وراء المرض القاتل

هؤلاء الذين يطاردونه، فلا يعرف، بوجودهم، مستقراً، ولا يهنأ، وهم من حوله، بالاً، هم أنفسهم كانوا وراء الانهيار كله، هم الذين قادوا شعوبهم إلى الهاوية بظلمهم

وعهرهم وخيانتهم الأمانة، وهم الذين ما يزالون يتربعون فوق رؤوس الناس، فلا يُجْلُوا  
بينهم والجهاد حتى يستردّوا لأمتهم كرامتها المهذورة:

تُصَبِّ الجاهلون في أمم الشَّرِّقِ      فساست شعوبها الذؤبانُ  
أصبحت مخدعاً للهِ وكأساً      لخليعٍ.. وما ارتوى السكرانُ  
سلبوها - باسمها - كلَّ حقِّ      وتولّى العدالة القرصانُ  
وادّعوا أنهم على الناس أربابُ      وهم - في نفوسهم - عبدانُ  
اسألوا عنهم الألى غرسوهم      حرباً مزّقت بها الأوطانُ  
نحن سلّمٌ مع العدو ذليلٌ      أين يَمْتَمَت لا يروغُك إلا

### حاكمٌ ظالمٌ وشعبٌ مهانُ

إنها حرب مستمرة يشنها هؤلاء ضد الحق والشعب والله، وخنوع وخوف وذل  
مستمر أمام العدو والباطل والشيطان، أما الجيوش فما هي إلا أداة لحمايتهم من  
غضبة شعوبهم، وقد وجدت لتكون حماية لشعوبهم من أعدائها:

كم جيوشٍ زَيَّنَتْ أعيادنا      قد غَدَّتْ عبناً لدى الحرب ثقيلاً  
لا تلوموها... ولوموا قادةً      جعلوا منها إلى الحكم سبيلاً  
وتصدّوا للحمى لا للعدى      وأذاقوه من الذلِّ شكولاً

أما الشعب فيظل في صف الشاعر ويظل الشاعر في صفه، فهو الضمير النقي الذي لم تلوثه، رغم كل ما جرى، الأيدي الملوثة بالخيانة التي تبيع شعوبها وتشتريها:

لا، لم يَهْنُ هو.. لكن هان قادتُه وراودوه على أمجاده فأبى

ماذا يبيعون؟ باعوا هم نفوسَهُم و لكلِّ شارٍ وعزُّ الشعبِ مُطَلِّبا

و حين يبكي قاسم الوزير صديقه المجاهد الأفغاني «هارون المجددي» يقتبس من نار المأساة قبساً عليه يجد على نوره الهدى للشعوب المستضعفة، وعلاجاً للداء القاتل الذي يجرحه إياه الطغاة والظالمون، وما الدواء إلا الإيمان مقروناً بالبنديقية:

عطرُ الفتوحِ يفوحُ من أردانه ومن المحيّا ألفُ فجرٍ يولدُ

أنى مشى زرعَتْ حُطاهُ ثورةً في الأرضِ تجتثُ الطغاةَ وتحصدُ

لن يفلح الغازون في استعباده ما ذلَّ من سلاحه يتعبدُ

ويذلُّ كلُّ مسبِّحٍ بمذلةٍ يجثو على قَدَمِ الطغاةِ ويسجدُ

لولا دمُ الشهداء ما ارتحلَ الدجى عنّا ولا ائْتَلَقَ الضُّحى المَتوقِّدُ

وماذا يبقى للأحرار من دور؟ هل يسالمون؟ أم يقاومون؟ أم يصانعون على حساب كرامتهم ومبادئهم؟ ويصانعون من؟ أولئك الذين يحملون أسماءنا ويفخرون بأنسابنا:

إنَّ سالمُوا استُعبدوا أو قاوموا سُحقوا أو صانَعوا حُشِرُوا في زُمرةِ الحَدَمِ

نشكو العدى لليالبي وهي ناظرةٌ فعلاً أشدَّ وأنكى من ذوي الرِّحِمِ

اللابسينَ على النُّكراءِ جِلَدَتْنَا      الخالعينَ سِماتِ النُّبْلِ والكَرَمِ

### الموقف الإسلامي من الحياة

ولكن للمسلم طريقاً آخر أوضح في الحياة، إنه ينظر إليها بمنظار الحقيقة، ومن خلال الآية الكريمة: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ﴾ فتستوي عنده الأفراح والأتراح، والآلام والآمال، والبداية والنهاية، فما

دامت مقومات الحياة لا تخرج عن أنها «لعب وهو» - هذا الذي لم يفهمه الطغاة بعد - فلم اليأس ولم الأمل، ولم الحزن ولم السرور؟ هذه هي خلاصة تجربة الشاعر المسلم الذي لمس آفاق الحياة وأدرك أبعادها:

ما زلْتُ، رَعَمَ مرارةِ الفشلِ      أمشي لأعرفَ غايةَ الدَّرَبِ

ولقد عَرَفْتُ.. فغايةُ الأملِ      كاليأسِ.. تلكَ حصيلةُ الرُّكْبِ

ومرارة الاستواء بين الأمل واليأس عند الشاعر لا تتحول إلى عامل سلبي يمتصّ شجاعته ويحبط عزيمته، فللمسلم دائماً رصيد من الإيمان يستند إليه إذا ترنّح، وحبلاً متيناً يتعلق به في اللحظة التي يشعر بها أن لجة الحياة توشك على ابتلاعه:

أين أمضي؟ هذا الطريق أمامي      ملأته أشباحُ تعسٍ ونُحسٍ

وورائي، ماذا وورائي؟ إلا      ما ترى أنت من عذابٍ وبؤسٍ؟

أنا من حطمتُ يدُ الدهرِ قيثاري      وألقت إلى الثُّرابِ بكأسي

سوف أمضي إلى الحياة لأني  
لا أحبُّ البقاء في جنح ياسٍ  
وإذا كانت الطريقُ ظلاماً  
فسأمشي فيها على نورٍ نفسي

ولكن من يحمل هذه الموعظة للآخرين؟ من يوصلها إلى أسمع أولئك المتربعين على القمة من غير أن يتبينوا إلى أين هم صائرون؟ ويصرخ الشاعر مذكراً ومبصراً، فمن يسمع الصرخة، ومن يعتبر بالأمثلة؟ لا يبقى في النهاية إلا الحق والإسلام جواباً:

ساسَ فِرْعَوْنُ أمةَ النيلِ  
بالعسفِ، فأين القصور والسلطانُ  
فانطوى الفُرسُ وانقضى الرومانُ  
وأتاها النبيُّ أحمدُ بالعدلِ  
وغزاها من كلِّ فجٍّ طغاةً  
فباقي «محرابه» والأذانُ

### الشاعر والحب

وبعد.. هل ملأت مشكلات الحياة والأحياء، والحكام والمحكومين، والظلام والمظلومين، والمتفائلين واليائسين، كل فضاء هذا الشاعر المسلم حتى لم يعد للحب متنفس عنده، ولم يعد للعواطف الإنسانية المرهفة دور تقوم به معه؟ وهل عفا هذا المسلم حتى لم يعد يفكر بالحب والمحبين؟ وهل فرض على نفسه رهبانية لجمت نفسه عن ميولها، وكبحت فيها رغباتها؟ أم استجاب ببساطة لنداء الإنسان في نفسه، ورفض أن يلحق بعيداً عن أرض الإنسان - الواقع ورضي بأن يكون الإنسان - الشاعر - المسلم معاً؟

لم يكن قاسم الوزير، وهو ابن الحياة بكل ما فيها من حلاوة ومرارة، ليفرض على نفسه ثوباً غير الذي ألبسته الحياة، حياة المسلم المفكر الثائر، ولكن حياة الشاعر المرهف العواطف المتوقد الأحاسيس أيضاً

ها هو يهوم، وقليلاً ما يفعل، باحثاً عن ذلك الذي طرق بوابة قلبه ثم مضى من غير أن ينتظر، إنه ليس جسداً، إنه ليس شهوة حيوانية جامحة، فما هو بأكثر من طيف، خيال يعبر به موهناً فيمد يديه إليه فلا يعود بغير قبض الريح:

أَيُّ طَيْفٍ بِنَا عَبَّرَ      مَثَلَمَا تَعْبَرُ الدِّكْرُ؟

طَرَقَ الْقَلْبَ مَوْهَنًا      ثُمَّ وَلِيَ عَنِ الْبَصَرِ

وَدَعَانِي إِلَى الْهَوَى      فَانْبَرَى الْقَلْبُ وَاسْتَعْرَ

وَمَضَى يَسْمَعُ النِّدَاءَ      وَيَسْتَتْبِعُ الْأَثَرَ

وفي النهاية، وبعد أن يؤكد أن هذه التي أقبلت ثم مضت لم تكن إلا فتنة السمع والبصر، يعود إلى نفسه وإلى قلبه فيكفكف عبراتهما ويكبح جماحهما قائلاً:

أَيُّهَا الْخَافِقُ الْخَلِيلُ      أَتَعُودُ إِلَى سَقَرٍ؟

أَنْسَيْتَ الشَّبَابَ فِي      مَذْبَحِ الْحُبِّ يَنْتَحِرُ؟

فإذا حدث وتذكر الأمس، لم يكن أمسه إلا كيومه: فتنة تكبحها العقّة، وحبٌّ يهدّبه الإيمان، ورغبة تحرسها الضوابط الإسلامية للإنسان، وكعاماً يمنعه من الرضاع إذا سوّلت له نفسه بذلك:

أيهذا البعيد هل تذكُرُ الأَمْسَ      غميساً في الليلةِ القمراءِ؟

إذ وقفنا شخصين وَّحَدنا      الحُبُّ، فصرنا بعضاً من الأضواء

وَّحَدتنا أشواقنا حين دُبنا      كلنا في الطبيعة السَّجواء

أنتِ والحبُّ، والحبيبانِ والليلُ      وبعضُ الرغائبِ الخرساءِ

وما أبرعه متلطفاً في الانسحاب من موقف لم يجده لائقاً به، فيتيقظ قبل أن يكبوه، ويستعيد ضوابطه قبل فوات الأوان، ويعتذر أجمل اعتذار:

لا تُرِيقِي الدُّمُوعَ... ما كلُّ دمعٍ      فيضٌ وجدٍ ولا دليلٌ مَتَابِ

خطأي أنني حَلُمْتُ فَأَلْبَسْتُكَ      أحلى جواهري وثيابي

لستِ أنتِ التي ظَنَنْتِ، فَعَفَواً      لم تُسَيِّئِي... لكنْ فَقدْتُ صَوَابِي

### الحبُّ بينه وبين المتنبّي

حتى كبرياء الحب وتعالى المحبين يذكّرنا بكبرياء المتنبّي في غزله، فهو يخوض الحب من الموقع نفسه الذي يخوض منه الحرب، معتلياً ظهر فرسه، ناظراً إلى محبوبته بإباء وترفع، فإن كان الوزير لا يضع نفسه على فرس المتنبّي فإنه يضع نفسه في الموقع الذي يليق به، إنساناً ومسلماً وسليلاً للعترة النبوية الطاهرة، وعضواً أساسياً في أسرة أسست الخطوط الأولى لمدرسة الفكر الثوري العربي والإسلامي الحديث

حتى اللقب «سيدي» حين يتكئ عليه في قصيدة حب، فإنه يتحول به وبالحب  
وبالحببية جميعاً إلى عالم من الرموز لا تستطيع أن تتبين فيه إذا كان الوزير يحدثك  
عن امرأة أم عن حالة نفسية يحياها، أم عن الحياة كلها من حوله:

نأثُ ركائبِي بي عن المكان

أستوطنُ الزمان

أسكُنُ في المعنى

الذي يعذبُ الإنسان

يسكُنني.. أسكُنُ في الزمان

يا أنتِ يا من تكتبين من جديد

خرائط البلدان

و.. كيف؟

كيف يا سيدي، لا أعرف العنوان؟

مثلاً ضاع من الجغرافيا أمسِ مكاني

أثرى ضاع زماني؟

أنا «مسكونٌ» بما لستُ أراه

وأنا «أسكن» فيما لا يراني

أين ما خَطَّت يداه؟

أين أنتِ؟

إنه يبحث، من خلال المرأة - الرمز -، عن بُعدٍ خامسٍ يستوطنه، خارج كل  
الأمكنة. بل خارج الزمان، لأن الزمان هو الذي يسكن فيه، مثلما يسكن هو في  
الزمان، فماذا يبقى له من أبعاد يسكن إليها وتسكن إليه؟ إن المرأة - الرمز - هي  
المرفأ الذي يلجأ إلى أمانه في النهاية وهو مسافر في رحلة الضياع والتهيه في صحاري  
الحياة خارج الأبعاد للوجود، وهكذا تبقى المرأة - المرفأ مجرد رمز، لأن الحب، الحب  
الحقيقي، ليس إلا صنواً للموت، الوجه الآخر لعملة الحب:

يَحْفُقُ القَلْبُ، في عمره، مرَّتين

يَحْفُقُ القَلْبُ

للحُبِّ

يَحْفُقُ القَلْبُ

للموتِ

يَحْفُقُ القَلْبُ، في عُمره، مرَّتين

وها قد حَفَّقَ

## الرياح والجذور

تجاذبت الشعراء العرب في هذا القرن رياح ومذاهب أدبية هبت عليهم من مختلف الجهات، فمنهم من اقتلعتهم من جذوره، ومنهم من ابتعثت زهوره وساعدتها على التفتح وبتت أريجها هنا وهناك

ولم يكن لهذه الرياح والمذاهب أن تقتلع جذور قاسم الوزير، وهو الذي أبقى على وطنه إلا أن يعود إلى الجذور، وفضل أن يقتلع نفسه من هذا الوطن على أن يقتلع الوطن نفسه من جذوره ويتبرأ من أصوله

ولم يكن لها أن تحيي بذوره - وهو الشاعر الذي توارث الشعر والشرف والعلم والسياسة والثورة والجهاد كإبراً عن كابر-، ففي غير مثل هذه التربة قد تموت البذور، وفي غير مثل هذه السلالة قد تذوي الجذور، وأما بذور القاسم وجذوره فلا، ولا يبقى لهذه الرياح إلا أن تبعث زهوره على التفتح، وألوانه على التبرج، وأريجها وعطره على الانتشار، فقبس من الرمزية شفافيته، ومن الواقعية إيجابيتها، ومن الرومانسية ترفها وبهرجها، فزينت لغته بأثوابها الملونة المترفة، وأترعت كؤوس شعره بلذاتها، فغدت ترفل بالدمقس وبالحرير. وسمع إلى هذه العبارات تنضح بالعطر وتجزر أذيال الجمال، وكلها من قصيدة واحدة «طيف»: (مثقل بالهوى - سنحت مسنح الغزال - أيها الخافق الخلي - آدني الليل والسهل - أنت أنشودة الحياة - كفكفي ضلوعي - الشباب في مذبح الحب.. إلخ.) إنها جميعاً مخضلة برواء

الرومانسية، شذية بعطورها المترفة الندية، وينعكس هذا الترف على معاني القصيدة نفسها، فتبدو مشاهدها وكأنها تحتال أمامنا ملكية مكّلة بالنضار والجوهر:

وَمَشَتْ فَالْتَرابُ مِنْ

ذَهَبٍ، وَالْحَصَى دُرٌّ

ذَهَبٍ مِنَ الشَّرْقِ

ولكن «نضار» الرومانسيين ليس هو وحده الذي يستأثر بتزيين العرش اللغوي للشاعر، فالسبائك الذهبية المتأنقة التي رصعت أشعار العمالقة على مدى تاريخنا الطويل أعطت قيادها لشاعرنا، فحلقت، عنده العبارة لتطاول قمم المتنبي والشريف الرضي وشوقي وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة. واسمع إلى هذه العبارة «المنبلجة» كالفجر، وقد اتكأت على المصدر الميمي بدلاً من المصدر الأصلي:

طَلَعَةُ سَمْحَةٌ كَمَنْبَلَجِ الْفَجْرِ      وَخَلَقُ مِنَ الرِّضَا رِيَانُ

أو إلى هذه «المعاصرة» المتبادلة بين كَفِّ العدو وعنان الصافنات في القصيدة نفسها:

بَكَتِ الصَّافِنَاتُ فِي مَأْتَمِ الْقُدْسِ      وَعَاصَى كَفَّ الْعَدُوَّ الْعِنَانُ

وكأن هذه القصيدة التي يبكي فيها صديقه «محمد المساري» تعتمر كل مقومات شعره وتختصرها منذ المطلع حتى الخاتمة، فالجملة القرآنية الفريدة، التي تفصل بين الأساليب بأساليب مغايرة، وتلون السياق بألوان غير متوقعة، ندر أن استخدمها

حتى العمالقة بهذه الثقة التي استخدمها بها شاعرنا، فانظر إليه وهو يتحول بجمله ضمن البيت الواحد من الإنشاء إلى الخبر الفعلي ثم إلى الخبر الاسمي:

أين منّا الأقصى؟.. وبيكي المصلون وثُنعي عند الأذان الآذان

وكأني بقاسم يملك لكل قصيدة مفتاحاً، فإذا دخل بك إليها من الباب الذهبي وجدت الذهب بعد ذلك يرصع كل جدرانها وأثاثها، ولقد افتتح هذه القصيدة بمطلع ذهبي شرقي لا يقل تالفاً ونصاعة عما استشهدنا به من أبياتها، فتحققت له «وحدة» القصيدة الذهبية من البداية إلى النهاية، يقول في المطع:

هل تود مني تحليل الأسلوب البلاغي في هذه الأبيات أو مساعدتك في البحث عن القصيدة الكاملة؟

لا تَلْمُهُ فقد حَلَا المِنْدَانُ

وتَحَلَّى عن الوغى الفُرسَانُ

الخيولُ المِطَهَّمَاتُ سبَايَا

فدليلٌ - بذلّها - المهرجانُ

والسيوفُ التي استضاءَ بها التاريخُ

أزرى بها الوريثُ الجبانُ

وإنها لسبائك لغوية رفيعة تزري على الكثيرين ما يجبلون من طين العبارات أو يعجنون من عجائنها الرخيصة المبتذلة. وكأنَّ البكاء يجلو لسان الشاعر ويرهف لغته مثلما يرهف مشاعره، ويعيدها إلى جوهرها نقيّةً أصيلة، فترى سبائكه الذهبية الشرقية أكثر ظهوراً في مراثياته منها في باقي قصائده

ومراثيته الثانية التي يبكي فيها صديقه المجاهد الأفغاني «هارون المجددي» نفحة أخرى من صبا نجد، تنتسّم فيها عبير الشيخ والقيصوم، وتضع يدك على سبيكة مختلفة من سبائكه الذهبية، ومطلعها نموذج آخر للجملة القرآنية المتميّزة، والمنقطعة لفظاً، المتصلة محلاً، وهو مسلك صعب على السالكين وقمة عزّت على الطامحين:

فيمَ الرحيل.. ولم يَزَلْ لَكَ مَوْعِدٌ

ضَرْبُوهُ فِي قِمَمِ الْجِبَالِ وَحَدِّدُوا؟

العاكفونَ على السلاحِ عبادةً

الراكونَ على الجهادِ السُّجْدُ

القارئونَ الموتَ رَتْلَ بعضُهُ

ناجٍ، وجوّدَ بعضُهُ مُسْتَشْهَدُ

الاستعمال المتفرد للحال

هذا الشاهد الأخير يشدّ أنظارنا إلى نزعة قرآنية أخرى لدى الشاعر تصعب ملاحظتها على غير المتبصّر بأسرار القرآن البلاغية وإعجازاته اللغوية المتفردة، إنها

الاستعمال المتميز للحال، سواء باختلاف طبيعة جملتها أم باختلاف طبيعة صاحبها أو باختلاف طبيعة العامل فيها

فالحال في البيت الأخير (رتل بعضه) أتت جملة فعلية فعلها ماضٍ من غير أن ترتبط بالواو أو (قد) أو كليهما معاً، كما جرت أعراف اللغة وسنت أقلامها، ولا أكاد أعرف شاعراً معاصراً بلغ ذلك المبلغ من الحال، ونال مناله منها غير بدوي الجبل، وهذا التفرد في استعمالها، يشكّل ظاهرة لغوية حقيقية لدى الشاعر، وحسبنا أن نشير إلى بعض حالاتها في قصائده، ومنها مجيئها مصدراً (عصف) في قوله:

كَوَزْدَةَ ذَابِلَةٍ عَصَفَ رِيحٍ

وكمجيئها اسماً جامداً (كفأ) و(جئة) في بيتيه:

مَنْ قَالَ غَيْبَكَ الرَّدَى؟ وَبَسَطَتْهَا

كَفَّأً.. فَعَادَتْ مِلاءَ خَيْبَتِهَا الْيَدُ

جَاءَتْ وَقَدْ حَمَلَتْهُ جُئَةٌ خَيْبَةٍ

لِلثَّائِرِينَ.. وَغُصَّةً تَتَرَدَّدُ

وكمجيء صاحب الحال مجروراً بحرف جرّ خلافاً للأعراف النحوية - وليس خلافاً للقاعدة في قوله:

وَتَمَرَّقَتْ أَوْصَالُنَا وَعَدَّتْ

لِلرَّيْحِ، عَاتِيَةً، بَقَايَانَا

المطالع الخطابية والأبيات السائرة

ولا شك أن انقياد زمام اللغة لديه الحاذقتين، وتشبعه بالثقافة القرآنية والإسلامية العميقة وراء النكهة النافذة للمطالع الخطابية المجلجلة التي ترشح بالحماسة والقوة، وتنجدل ألفاظها بعضها إلى بعض انجدال الصخرة إلى أصولها، كما وجدناها في مرثيته وكما في مناخته الفلسطينية اللبنانية:

أُمَّةٌ عَانَتْ مِنْ الْمَوْتِ طَوِيلاً

فَادْفِنُوهَا... لَمْ تَعُدْ بُجْدِي فَنِيلاً

أَمَعَنْتَ مِنْ زَمَنِ فِي مَوْتِهَا

عَبَثًا مِنْ مَيِّتٍ تَرْجُو مَقِيلاً

وخطابية المطلع لا تعني الجمود أو السلفية الشعرية الرثانة الجوفاء، فكثير ما تسهم الحركة والحوار في تحقيق عناصر الخطابية الدرامية الحديثة، وانظر إلى حركية المطلع المتولدة من السؤال والجواب والتأكيد والتريث والانقطاع والاستئناف في جمل أو مقاطع كثيرة متوالية:

مَعَنَا غَدًا؟ لا.. لا، دَعُونِي

إِنِّي لَتُرْعِبُنِي ظُنُونِي

ولا تقتصر هذه الحركية على المطلع، ولكنها ماثورة في ثنايا أشعاره، ونلمسها في مختلف قصائده بأشكالٍ عديدة متلوّنة بحيث تبدو في كل مرة جديدة شابة، فمن تساؤل متفجّع يعقبه إخبار متمنّع في قوله:

أَذْهَبْتَ؟ ظَهَرُ جَوَادٍ مِثْلِكَ مُسْرَجٌ      أبدأ، وَسَيْفٌ يَمِينِ مِثْلِكَ مُصَلِّدٌ

إلى إقرار الأمر في الشطر الأول ثم نقضه المنطقي في الشطر الثاني بقوله:

إِنَّا لَنَلْقِي عَلَى الدُّنْيَا مَا سِينَا      وَنَحْنُ فِي كُلِّ يَوْمٍ نَصْنَعُ السَّبَبَا

إلى الاستفهام التوبيخي مع حذف المبتدأ، ثم الإقرار التقريعي بجمل حالية متتابعة:

أَذِلَّاءُ؟ وَالكِتَابُ بِأَيْدِينَا      يُعَلِّي رُؤُوسَنَا الْإِيمَانُ

أَجْيَاعٌ؟ وَنَحْنُ سُحَّرتِ الأَرْضُ لَنَا      وَالبِحورُ والأَكْوَانُ

أَوْ جَهْلٌ؟ وَالعِلْمُ بَعْضُ      عطايانا وَفينا تَنْزَلَ القُرْآنُ؟

والحركة الغنية المتوافقة مع المعادلة الشعرية القائمة عنده بين الفكر والتعبير، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، تجعلنا نردد كثيراً من أبياته ترديداً غنائياً ونحن نتملّى بساطتها وحلاوتها فلا نملّ من تكرارها، فتمتلك بذلك عناصر الأبيات السائرة والحكم الخالدة التي ما تفتأ تتردد على الألسنة، من مثل قوله:

مِنْ هَبَاتِ الْأَسَى شَعُورٌ غَرِيبٌ      بالتسامي على الشُّعُورِ الْغَرِيبِ

رُبَّ ذِكْرِي تُعِيدُنِي لَشِبَابِي      وَخِيَالٍ يَفُودُنِي لِمَشِيبي

وقوله:

قُلْ لِلطُّغَاةِ: لَيْسَ خَسِرْنَا جَوْلَةً      فلكم بقيَّةُ يومكم.. ولنا العُدُ

وقوله:

جَاوَزَ الظُّلْمُ الْمَدَى فَارْتَقَبُوا      لا يعيشُ الظُّلْمُ فِي الْأَرْضِ طَوِيلًا

وقوله:

يَنْمَحِي الْعَدْلُ عِنْدَمَا يَحْكُمُ الْفَرْدُ      وتُمَلِّي قَانَوَهَا الْأَوْثَانُ

### الأنفاس الرومانسية

قالوا: الرومانسية مدرسة شعرية ولدت في أوروبا أواخر الربع الأول من القرن التاسع عشر ثم انتقلت إلى الأدب العربي أوائل القرن العشرين، وأنا أقول: الرومانسية هي الشعر، ولا شعر من غير رومانسية إذا عرفنا الرومانسية بأنها: الذات والعاطفة والخيال والجمال واللفظة المنتقاة والموسيقى اللغوية المرهفة والارتقاء عن أحوال الواقع إلى فضاء الحقيقة الهيولية التي يصعب الإمساك بها، ومتى فقد الشعر هذه العناصر توقف عن أن يكون شعراً ولو اخترعنا لتصنيفه مئة اسم ومئة مذهب

ولا يختلف اثنان أن قاسم بن علي الوزير - على واقعيته الإسلامية العقلية الروحية المنطقية - رومانسي من الدرجة الأولى، أقصد (شاعر) من الدرجة الأولى، فقد انمحت عندي الحدود إذن بين الرومانسية والشعر. ولو استمعت إلى مقاطع من بعض قصائده لشدّتك إليها موسيقاها أولاً، فلا تكاد تقرأ منها إلا الموسيقى، وفي قراءة ثانية لها تبدأ بالتفكير فيما وراء الموسيقى، فتفتح أمامك بالتدرّج زهور الصُّور والخيالات الحاملة الغارقة في الجمال والطبيعة العذراء، ثم تقرأها الثالثة فتضع أصابعك هذه المرة على الحكمة والفكرة والمعنى تتسرّب أشعتها من خلال الصُّور والألفاظ والموسيقى، ولعلّ هذا المقطع من قصيدة «طيوف المساء» أوضح مثال للممارسة هذه القراءة الثلاثية:

وَحِشَّةٌ، غَيْرَ أَنَّمَا جِدُّ يَفْظِي      وَيَقِينُ... لَكِنْ كَشَلِّ مُرِيبِ

بين شيعين: مَوْلِدٍ ووفاةٍ      وَفَقَّةٌ مِثْلُهَا مَصِيرُ الْغَرِيبِ

يا طيوفَ المساءِ آبتِ إلى أوكارها      الطَّيْرُ فِي شُحُوبِ الْمَغِيبِ

وَتَظَلِّينَ تَمْتَطِيكِ الْخِيَالَاتِ      حِيَارِي مِلءَ الْفِضَاءِ الرَّحِيبِ

أقبل الليل، بعضُ آلائه الشِّعْرُ      قالوا عنه: صباحُ الأديبِ

وأنا الشاعرُ الذي يمنح الآلامَ      معنى شعوره الموهوبِ

يَنْبْتُ الرَّهْرُ فِي مَرَابِعِ نَفْسِي      فبها مِنْهُ كُلُّ لَوْنٍ قَشِيبِ

الجراخُ التي بنفسي... نزيْفُ      من عُطُورٍ - على الأسي - وطُيُوبِ

ومن السهل أن تكتشف عند الشاعر ذوبانه في الطبيعة، وهو أصل آخر من أصول الرومانسية أو قل من أصول الشعر، فهو إما أن يختلط بالطبيعة وتختلط فيه، وإما أن يبتعث الروح فيها فيحاورها ويسرّ إليها بما في نفسه وتبوح له بما في صدرها، كما يفعل حين يناجي القمر:

كل شيءٍ يَمْضِي، وأنتَ كما أنتَ      على الدهر، في البعيدِ النَّائي  
 خالداً تَرْفُبُ الخليقةَ مُذْ كانتَ      وتَبْدُو كسادرٍ في الفُضَاءِ  
 شَهِدَتْ عينُك الحبيبةَ أولى      قُبَلاتِ الصَّبَابَةِ العذراءِ  
 وشهدتَ الإنسانَ طفلاً فَوْحِشاً      فَنزوعاً... فسيّدَ الأحياءِ

وذوبانه في الطبيعة وهو الشاعر المسلم، لا يعني الهروب إليها، فمن خلال الذوبان التام ينبعث منه مخلوق مرادف له يلاحق مشكلات كل شيء: الشعر، الذكريات، الأحزان، الطيور، البؤساء، الأحياء، حتى الثّوار:

أنا هَفَقَةُ الشَّعْرِ الطليقِ ولَوْعَةُ الدَّمْعِ المراقِ  
 أنا غَصَّةُ الدِّكْرِى.. سعيْرُ شرايها المِرِّ المذاقِ  
 أنا خفَقَةُ الطيرِ الميَكِّرِ كالنسيمِ إلى السواقِ  
 أنا بَهْجَةُ اللُّقيا... تَبَدَّتْ بعد غاشيةِ الفراقِ

## التلوين الموسيقي

وينتقل شاعرنا بين محور الخليل والأنظمة العروضية الحديثة التي أطلقت «نازك الملائكة» على النظام الأقدم منها اسم (شعر التفعيلة) ثم أثبت في كتابي (حركة الشعر الحديث) أنه بالأحرى (شعر التفعيلتين) واقترحت له اسماً آخر هو (التوقيع) وأطلقت على النظامين الأحدث والأكثر تطرفاً اسمي: (التشكيل) و(التنوع)، ولكن شاعرنا يتوقف عند النظام المعتدل الأصيل منها (التوقيع) فلا يتجاوزه إلى الأنواع المتطرفة، وهو في النظامين الخليلي والتوقيعي يحسن استخدام التفعيلة والكلمة في تلوين مشاعره، والتنقل بين المواقف الإنسانية المتباينة ضمن القصيدة الواحدة، فتهدأ موسيقاه حيناً، وتشتد حيناً، ثم تعصف فتتحول إلى انفجارات مدوية حيناً آخر، لا يثنيه عن ذلك تمسكه بطول محدد للبيت وقافية محددة للقصيدة تبعاً للنظام الخليلي أو التقليدي، وسمع إلى هذه الأصوات الحماسية المتفجرة في الأبيات الأولى من هذا المقطع، وهو يتحدث عن فرعة فرعون القديم وعريدة الفراغة المحدثين وجبروتهم، ثم إلى تلك الأصوات وهي تنقلب في الأبيات المتأخرة إلى هدوء يشيع الطمأنينة في النفس أولاً، ثم الحزن والأسى والاستسلام للمصير المحتوم ثانياً:

فأين القُصُورُ والسُلطانُ؟

ساسَ فِرْعَوْنُ أمةَ النيلِ بالعَسْفِ

فانطوى الفُرسُ وانقضى الرومانُ

وعَزَّاهَا مِنْ كُلِّ فَجِّ طُغَاةٍ

مُسْتَطِيرٌ، وفي القُرَى عُدوانُ

أين جنبُولُ في البحارِ بلاءُ

أين أسطورة المعريد في الأرض وأنيابه الحداد الحشان؟

ذهب الظالمون.. والنيلُ باقي وحديثُ النبي والقرآنُ

يا لِدات الشباب.. جهشةُ محزونٍ أعارته نابها الأشجانُ

وأنا إثرهم أرددُ الحاني، فما أرجعتهمُ الألمانُ

استراح المشيعون.. ويوماً سوف يرتاحُ الدمعُ الثكلانُ

وهذه القدرة على «تكييف» البيت الخليلي لألوان المشاعر النفسية لا يستطيع أن يدعيها إلا قلة من الشعراء، على حين لا يجد الآخرون صعوبة في جعل قصيدة «التوقيع» الحديثة بأسطرها المتفاوتة الطول، وقافيتها المتنوعة، مرتسماً بيانياً حقيقياً لنفوسهم، تظهر عليه ألوان مشاعرهم، فتتطاول الأسطر مع تطاول أنفاس الشاعر وهدوئها، وتتقاصر مع تسارع أنفاسه واشتداد توتره وانفعاله، بل كثيراً ما يتجاوز الشاعر هذه المرحلة إلى مستوى أكثر تعقيداً، حين يراوح بين تفعيلتين مختلفتين لبحرين مختلفين ضمن القصيدة الواحدة، كما فعل شاعرنا حين أجاد اللعب على حبال (فاعلن) و(فعولن) - كلاهما من دائرة عروضية واحدة، كما يعرف دارسو علم العروض - فتتلون التفعيلات وتتبدل بتبدل المواقف الإنسانية في القصيدة، رغم أننا كثيراً ما نجد أنفسنا قادرين على وصل الأسطر أحدها بالآخر - أو تدويرها بالمصطلح الخليلي - لتكون على وزن (فاعلن) أو فصل أحدها عن الآخر لتكون على (فعولن) كما في هذا المقطع:

وقد أوركثُ

أورقَ الجذبُ حباً

وأصبحَ للصمتِ

لحنٌ له أجنحه

أينع الهجرُ وصلأً

وغادر كلُّ هوى

مهجعَه

ونادى الجمالُ

ولبي الشباب

وجاءَ الربيعُ

وجاءتْ مَعَه

فلو قرأنا الأسطر منفصلة لكانت من المتدارك حيناً ومن المتقارب حيناً آخر ولو قرأناها متصلة لكانت من المتقارب وحده

ولكن الأمر لا يقتصر على بحور الدائرة العروضية الواحدة، فهو يبدأ قصيدته «العنوان» بثلاثة مقاطع من الرجز يتلوها مقطع من الرمل بعنوان «صوت داخلي» ويختمها بمقطع آخر من الرجز. ومن الواضح أنه أراد للصوت الداخلي أن يختلف

طبيعته عن الصوت الخارجي، فانتقل من الرجز إلى الرمل حين انتقل من الخارج إلى الداخل، ثم عاد في النهاية إلى الرجز مع انتهاء صوت النفس الداخلي إن استغلال الشاعر لإمكانات الأنظمة العروضية كان ذكياً وهادفاً، ولم يكن في استغلاله لإمكانات النظام العروضي التقليدي بأقل توفيقاً ومهارة وهو يلعب على الحبال الصعبة ويتجوّل بين المسالك الضيقة لهذا النظام الأصيل

### العروض والصورة الحديثة

وحين أتحدث عن الجانب العروضي في القصيدة فإنما هو الحديث عن الخلفية السرية للمشكلات الأساسية في الشعر الحديث، فلم يعد

العروض، تحت وطأة الظلال المرعبة التي فرضتها المخططات التي رسمت لثورة الشباب الشعرية والفكرية والاجتماعية والسياسية في الوطن العربي، لم يعد مجرد جانب فني من جوانب القصيدة، بل غدا المفتاح إلى كل الجوانب الفنية الأخرى في القصيدة: الخيالية والفكرية واللغوية، بل العقديّة والسياسيّة، فمن خلال العروض تتسرّب الأمراض التي تصيب كلّ هذه الجوانب، ومن خلال العروض يتسرّب العلاج لكلّ تلك الأمراض و«الثورة» التي عمّت الأرض العربية، فانضوى تحت تظاهرتها الثوّار الحقيقيون والمزيفون معاً، كان فيها الداء والدواء جنباً إلى جنب، فباسم الثورة، يسجن الثوّار الحقيقيون ويتهمون ويضطهدون ويموتون، وكأنني بقاسم الوزير يوجّه إلى السجانين، ومن والاهم من أصحاب الكلمة، هذا النداء الذي يرفعه «إلى قاتلي المحتوى والمضمون عابدي الشكل الحديث:

يا إخوتنا... يا مَنْ تَنَأُون

نحن هنا... في أنفسنا مُنْفِيُون

باسم الحرية والثورة

يَنسحق الثوار

ويعوثُ الأحرار

وباسم الحرية والثورة تهدم صوامع الشعر والشعراء الحقيقيين، وباسمها تهدم بيع الفكر والمفكرين الأحرار، وباسمها تغتال الكلمة وينسحق المتكلمون، وباسمها يدسّ السم في غذاء الشعر الحديث فيسقط صريعاً مضرجاً بدماء تلوثت بها أصابع المدسوسين عليه الحاملين لرايته رغم أنوف جنوده الحقيقيين

وهكذا تهبّ الريح الصفراء للشعر الحديث من الدّمّن الخضراء للباطنيين، لتكون كالموت على كل ما هو حديث، على حين تهبّ نسائم قادمة مع صبا الأصالة وجنوب الصدق والإخلاص، لتكون نفحة حقيقية جديدة تدبّ في أوصال الشعر فتمنحه نكهة جديدة، وطعماً متميزاً جديداً، وحياة غنية جديدة، حتى لنحسّ كل شيء عند الشاعر وقد غدا نضراً جديداً تحت أمطار الحداثة الخصبة: الموسيقى، والعروض، والفكر، واللغة والخيال:

لا ضَوْءَ هناك

ولا نُجْمَة

وصحارى تمتدّ

كظلالٍ للظلمة

وجبال تترأى

كخيالاتٍ فزومة

وأصيحُ بسَمعي

لا أسمعُ

إلا أصداءَ الريحِ

تَعزِفُ الحانَ الظُّلمةِ

إنها لغة جديدة وخيالات جديدة لم نعهدها في قصائد الشعر الخليلية، فالنظام العروضي الجديد ينتقل به، وقد لعب بأصالة حقيقية على أوتاره، إلى آفاق جديدة لا نلمحها في قصائده الأخرى: اللغة جديدة، والصورة جديدة، والمعادلة بينهما جديدة أيضاً، واسمع إلى هذه المعزوفة القادمة من وسط الليل:

أصْرُحُ في وَجهِ اللَّيْلِ

أنشُبُ أظفاري في وَجهِ اللَّيْلِ

أحفُرُ في جبلِ اللَّيْلِ مجازاً لِلنُّورِ

جَهْدُ كالعَبَثِ الضائعِ

ماذا في وسع الكلماتِ ووسع الشعر؟

أطفأتِ الريحُ المصباحَ وجفَّ الكأسُ

خمدت نازُ السُّمَّارُ

هَجَرَ اللحنُ الأوتارُ

صمَّت المِزمارُ

وانفضَّ السَّامِرُ في الحَيِّ... انفضَّ الناسُ

كالعَبَثِ الصَّمْتِ

وكالصمْتِ حفيفُ الأشعارِ إذا جَنَّ اللَّيْلُ

ولو انتزعنا صوراً وعبارات مثل: (في وجه الليل - أحفر في جبل الليل - مجازاً للنور - هجر اللحن الأوتار - كالعَبَثِ الصمت - كالصمت حفيف الأشعار) وزرعناها في إحدى قصائده الخليلية لبدت ناشرة خارجة عن طبيعة تلك القصيدة

وهكذا تنهمر تحت قلم الشاعر زخات من الصور اللغوية أو التركيبات الخيالية التي ما كانت القصيدة ذات البيت الموحد الطول والقافية الموحدة الروي أن تؤهله لابتداعها أو تستوعبها، من مثل (فرح الأحزان - زوارق من عطر - البسمة تصلبها شفة وردية - مستنقع الأحزان - يد سوداء مضرجة بألف جريمة نكراء - ليأكل ذاته إن جاع أو فليشرب الأوحال...) بل إن التشكل الجديد يغدو أطوع له حين يهَمُّ باستعمال الرمز، حتى إن استقى هذا الرمز من صميم التراث العربي، كما نرى

في استخدامه لشخصية (أم الصبيان صياد) من الخرافة اليمنية القديمة التي اعتادت  
الأمهات تخويف أبنائهن بها:

ضَحَكْتَ هَائِئًا

نَشَرْتِ أَثْدَاءَ أَرْبَعَةٍ فَوْقَ الْأَكْتافِ

أَمَّ الصَّبِيانِ..؟ صِيادٌ؟

صَرَخْتُ فِي وَجْهِ غَاضِبَةٍ... هَلْ سَلَّمْتِ؟

لا... لَمْ أَلْقِ سَلامًا...

قُلْتُ!! فَتَحَتْ فَمَهَا كِي تَطْرَحُنِي بَيْنَ الْأَضْرَاسِ تَطْحَنُنِي..

تَأْكُلُنِي.. تَخْلُطُ لِحْمِي بِعِظامِي..

وَتُوِّدِي هَارِبَةً فِي كَنْفِ اللَّيْلِ. طَعْمِي مُرٌّ...

وَمِذاقِي مُرٌّ.. لَفْظَتْنِي... بَصَفْتَنِي فِي وَجْهِ اللَّيْلِ

وهذا هو شأنه مع الرمز التاريخي حين يريد إسقاطه على واقعنا المعاصر، فالتنار  
وشمشون ودليلة تلبس عنده أثواباً عربية حين يلبسها في إحدى «توقيعاته» أحداثاً  
ووجوهاً عربية قائمة:

الزَّهْرُ صَوَّحَ.. والرَّيْعُ.. وَقَوَّضَ الرِّيحُ الحَمِيلَةَ

والشوقُ يا صَنَعاءُ يوغلُ في الفرار

## من البداية والنهاية

## جاء التناؤ

وبدلت أسماءها حتى الفضيله

وأضاع «شمثون» دليله

هذا كله طوع يد الشاعر، أي شاعر، حين يختار الشكل العروضي الجديد «التوقيع» أو الشكلين المتطرفين الآخرين: التشكيل والتنويع، ولكن بطولة الشاعر الحقيقية تكمن في قدرته على اختراق حصون القصيدة الخليلية القديمة بأسلحته «الالكترونية» اللغوية والخيالية الحديثة، ثم التنقل ضمن هذه الحصون بحرية ربما لا تقل كثيراً عن حريته في القصائد الحديثة المفتوحة الخالية من الأسوار والحنادق والأسلاك الشائكة. ولنسمع إلى هذه اللغة الجديدة وقد اخترقت أسوار قصيدته الخليلية، فنرى إلى الذين يقرأون الموت، وإلى ابتهالات صليل السيوف، وإلى عطر الفتوح، وإلى الخطي التي تزرع الثورات في الأرض، وإلى رحم العذاب وهي تلد «جمال الدين الأفغاني» عبر قسوة التاريخ وعسفه:

القارئون الموت... رتل بعضه  
ناج، وجود بعضه مستشهد

أدى صلاتهم وصليل سيوفهم  
فلهم بموضع كل جرح مسجد

الثابتون على العتاق كأنها  
في «بدر» ترجل الحتوف وتشد

من ذلك الأفق المضيء أتى على  
وعد بمنبلج الصباح السيد

عَطْرُ الْفُتُوحِ يَفُوحُ مِنْ أَرْدَانِهِ      وَمِنَ الْمَحْيَا أَلْفُ فَجْرٍ يُوَلِّدُ

أَنْتَى مَشَى زَرَعَتْ حُطَاهُ ثَوْرَةً      فِي الْأَرْضِ تَجْتَنُّ الطُّغَاةَ وَتَحْصِدُ

إنه القفز الذكي والمتمرس من فوق الحواجز الصعبة، وما أسهل أن نقفز من تحتها، كما يفعل أولئك الذين يجهدون لإلغاء الحواجز والقواعد والأعراف والتقاليد والمقدسات والتاريخ والدين والحياة

وبعد... لقد أمسكت بالقلم وأنا أوشك أن أتسقط ما لقاسم الوزير وما عليه، فها أنا وقد انتهيت من بعض ما له، ولم آتِ على شيء مما عليه، ولا أدري: هل خلا شعره من العيوب فسكتُ عنه وعنهما؟ أم أعشتني أضواء شعره عن رؤية الزوايا المظلمة فلم أتبينها عنده؟ أم انسقت وراء عواطف الجائحة وأنا أعدو لاهتاً وراء قفزاته، فلم أستطع أن أسترد أنفاسي لأقف عند هناته وعثراته؟

قد يكون هذا، وقد يكون ذاك، وقد تكون كلها جميعاً، ولكن الحقيقة التي لا يستطيع إنكارها حصيف، أننا أمام عملاقٍ في الأدب تواضع أمام أقزامه، وسيدٍ للشعر خفض الجناح لعبيده، ومعلمٍ للفن لم يحاول مرة أن يلقي درساً واحداً فيه

## الصورة والنص في شعر القاسم بن علي الوزير

د. محمد أبو بكر حميد

بدأ الأستاذ قاسم بن علي الوزير يكتب الشعر منذ حوالي ثلاثين عاما. ورغم جودة شعره إلا أنه لم يحفل إلى الآن بجمع شعره المتناثر في الصحف والمجلات، وفي ملفات الأصدقاء ونشره في ديوان. وربما يعود هذا إلى تواضعه، وربما يعود إلى إهماله وإشغاله بأمور أخرى، يظن أنها أهم من الشعر، وربما تكون له أسباب أخرى لا نعرفها، فالذي يهمنا هنا هو شعر الشاعر، ولذلك نأمل أن تكون هذه الدراسة مدخلا لدراسة جانب من جوانب الشعر اليمني الإسلامي المعاصر. فالشاعر قاسم الوزير سليل أسرة عميقة الجذور في تاريخ اليمن وطنية وعلماء وأدباء. وقد غادر وطنه بالجبر والاختيار معا، وأصبح واحدا من الطيور اليمنية التي تعيش على الهجرة المستمرة، والطيوان في أكثر من سماء، لهذا نجد في شعره خصوبة التجربة وصدق العاطفة. وإن كانت تجربته الشعرية تتفرد بما يميزها عن غيرها، إلا أنها تشترك مع تجربة شعراء اليمن الذين رفعوا أجنحتهم عن الوطن في أزمان متعددة، وحلقوا في سماوات الدنيا، لكنهم ما كفوا أبدا عن الشوق لأوطانهم والحنين إليهم.؟ الرؤية والصورة الشعرية: وعلى هذا فالروح الغالبة على مجموعة القصائد التي بين يدي الآن هي روح الغربة في المكان والاعتراب في الزمان. فالشاعر كعضو حساس في جسد أمة تتداعى منذ قرون يعبر عن ألم عام يعيشه كل فرد فيها، والشاعر إذا ما صدق وأخلص في زمان

الكذب والغدر يصبح ضمير الأمة صوتها المعبر عنها آمالا وآلاما. ونحسب شاعرنا قاسم الوزير من الشعراء الذين يجاهدون للتعبير عن أمتهم إسلاميا. ولذلك فنحن لا نرى في شعره الكثير من الصور الحسية. ولكن الأكثر منها هي الصور الروحية. إذا صح التعبير. والروحانية في الصورة الشعرية كما نفهمها هي أن ينجح الشاعر في مس أوتار القلب ولن يمسه إلا إذا صدق مع نفسه، إن لم يكن بشخصه فبروحه، وما أكثر ما تترك المعاشة بالروح من أثر. وإذا لم نجد كل ما نطمح إليه من مزايا التصور الإسلامي في شعره فإننا نلتقي بوحدة من أهم هذه الميزات.. نجد الكثير من لحظات الصدق التي توحى بالمعاناة التي تمس الروح وإن لم تترك على الجسد جروحا وفي نظري أنه من الصعب تقسيم الشعر الجيد إلى شعر سياسي وعاطفي وغيرها من هذه التقسيمات التي يكررها النقاد. إذا كانت القصيدة لحظة صدق فإنها تولد بلا عنوان، لأن تسمية المولود عادة تتم بعد ولادته وبعد التعرف على جنسه فمن الممكن أن نجد في قصيدة سياسية أوجها أخرى، وهذا عادة ما نجده في أجود القصائد، بصورة لا تخل بالوحدة الموضوعية للعمل الفني. ولعل أفضل الشعر هو ذلك الذي يتعرف فيه الإنسان على ملامحه الخاصة به، إضافة إلى تعبيره عن روح العصر ومقدرته على البقاء لأكثر من عصر. ؟ بين التقليد والإبداع: وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم شعر قاسم الوزير إلى ثلاثة أقسام: قصائد تقليدية لا تجديد فيها في الشكل ولا في المضمون مثل قصيدته الميمية صاحب الشفاعة التي يقتفي فيها أثر من سبقوه من أصحاب المدائح النبوية، دون أن يحاول تمييزها بشيء مما يميز عصرها. على أن هذا الاتجاه التقليدي قليل في شعره، ومن ثم فإننا

سنتجاوزه لما هو أهم منه، ونكتفي بهذه الإشارة إليه. والنوع الثاني من شعر الشاعر هو القصائد التي تتوسل باللغة السياسية المباشرة، لكنها تبدع في خلق المعاني الجديدة، وإن سارت على درب قصائد سبقتها؛ مثل قصيدة صوت في المناحة التي ينقلنا مطلعها إلى أجواء عمر أبوريشة من حيث روح السخرية الساخطة التي تجدها في قصيدته المشهورة التي مطلعها: أمتي هل لك بين الأمم منبر للسيف أو للقلم؟ وقصيدة قاسم الوزير الزاعقة تنطلق بهذه القوة في التدفق والاحتشاد، حين تتحدث عن آلام العرب والمسلمين في قافية صارخة كالرعد، حارقة كاللهب: أمة عانت من الموت طويلا فادفونها لم تعد تجدي فتिला أمعنت من زمن في موتها عبثا من ميت ترجو مقيلا! لا تقولوا عرب قد ذهب نخوة كانت هي الأصل النبيل! ذهب غير بقايا لم تزل في ربى بيروت تأبى أن تزولا فنحن نجد القصيدة تزدحم بالحركة، وبالأصوات المدوية، وبزخم كبير من المشاعر، فكلمة فتिला توحى بقرب الانفجار، ثم نجد الانكسار في ضياع الأصل النبيل وفي رؤية الحق قتيلا. وعندما نبحت عن الأسباب نجدتها في نهايات بعض الأبيات مثل قالا وقيلا وهي صورة لحياتنا اليومية ثم نجدتها في الروح الانهزامية عندما نجد بيتا آخر ينتهي بقوله نصرا مستحيلا، ونجد الجواب في بيت آخر ينتهي بالفعل قليلا. وهكذا إذا أخذنا آخر كلمتين في كل بيت فإننا نجدتها تشكل لنا مقالا سياسيا تحليليا لقصة أمتنا. ثم يعرج قاسم الوزير على فلسطين، ويقف عندها بمرارة يلخص الواقع في بيت واحد، بيت يزن قصيدة بحالها، يقول فيه لفلسطين: فاطلي ما شئت إلا نجدة وسلي — غير الفدى — قالا وقيلا وقد أثبتت الأيام أن نجدة من خارج الأرض المحتملة مستحيلة، وأن بركان

الحجارة الذي تفجر لعدة أعوام في الداخل هو أحد سبل التحرير. وقد يتخذ الشاعر من مرثية في مناسبة سقوط شهيد وسيلة لإشهار سيفه وإعلان غضبه في قصيدة.. وغاب فارس عن الميدان. ويبدو فيها كالزبيري يعري البطولات العربية المزيفة، ويكشف الستار عن الأصنام الخشبية التي نخرها السوس والزيف ويستثير الهمم، ثم يغضب. ما نحسبها إلا <. غضبة تذكرنا بروح شاعر الإسلام أحمد محرم، غضبة تهتر لها جنبات القصيدة في أذن السامع وقلبه وهو يقول: أذلاء والكتاب بأيدينا ويعلي رؤسنا الإيمان أجياع ونحن سخرت الأرض لنا والبحور والأكوان أو جهل والعلم بعض عطايانا وفينا تنزل القرآن أو ظلم والعدل شرع من الله فكيف الجحود والنكران ثم يصل إلى الحقيقة المرة التي يتجرعها كل مسلم وهو منكسر القلب واليد، لأنه يحسب أن لا حول له ولا قوة في شيء إن لم يكن هو قد صنعه فقد سكت عنه: نحن كنا نعم! ولكننا اليوم على الأرض سبة وهوان نحن سلم مع العدو ذليل ومع > ثم حرب عوان وفي قصيدة بلا سيف أو شكوى الذرى الشم نجد الشاعر يحاول أن يضع أصابعه على مواطن الداء في جسد أمته. الشاعر لا يقول ما تعود أن يسميه أو يقرأه، لكنه بإيجاز بليغ يقف وقفة صادقة مع النفس، وفي بيتين حكيمين يشخص لنا المرض وأسبابه: هنا على الناس.. إذ هانت مرابنا ومن يهن يلق ذل العيش والعطبا إنا لنلقي على الدنيا مأسينا ونحن، في كل يوم، نضع السببا! وفي صراحة - يدمى لها القلب الغيور على أمته - يعدد الشاعر هذه الأسباب: بأن كل شيء قد بيع.. الدماء.. المروءات.. النفوس وكل شيء حتى: بعنا عرانيين لبنان وإخوته شم الأنوف! وبعنا السهل ملتعبا! بعنا الخيول على الميدان

مسرحة بعنا السيوف وبعنا الشعر والأدباء وتصل عملية التعرية التي يقوم بها الشاعر للضعف في النفس العربية، وهو لم يخص القيادات العربية وحدها، ولم يقل العرب ولم يستخدم ضمير الغائب، ولو فعل ذلك لجعل من نفسه شاهدا ومتفرجا، ولكنه أشرك نفسه في المسؤولية وقال نحن بعنا بهذا جعل تعبيره أكثر تأثيرا وواقعا في النفس لأنه قد أشرك القارئ واشترك معه، لأن المسؤولية جسيمة والتهمة عظيمة.. ولو برأ الشاعر نفسه منها لما خلا من اتهام: ولو قدرنا لبعنا كل عابرة من النسيم تضم العطر منتحبا لم يبق شيء بأيدينا لمدخر حتى الكرامة بعناها لمن طلبا ثم اثنتينا بلا سيف ولا قلم نبيع أنفسنا التزوير والكذبا هذه لحظة من لحظات الصدق التي يتفرد بها جيل من شعرائنا المعاصرين، الذين اتجهوا في شعرهم السياسي، إلى المواجهة بالحقيقة والصدمة بالصراحة. وكان هذا الشعر السياسي المباشر الصرخة في وجوه من حطت على رؤوسهم الطير، والكبي في جسد ما نفع فيه طب ولا دواء، وجاء هذا النوع من الشعر منطلقا من الإيمان بأن الساكت عن الحق شيطان أخرس. ؟

التعبيرية الإسلامية: وفي قصيدة أو ليس غير الحزن يرثي أحد المجاهدين، يتفوق قاسم الوزير بما يمكن أن نسميه بالتعبيرية الإسلامية في الصورة الشعرية (والتعبيرية هنا لا علاقة لها بمذهب التعبيرية عند الغربيين). فالشاعر يتحدث عن حمل السلاح بمفهوم إسلامي نقي، عندما يكون الجهاد فريضة وعبادة: العاكفون على السلاح عبادة الراكعون على الجهاد السجد القارئون الموت رتل بعضه ناج وجود بعضه مستشهد أدى صلاتهم صليل سيوفهم فلهم بموضع كل جرح مسجد لعل هذه الأبيات تعد من أجمل الصور التعبيرية الإسلامية في شعرنا المعاصر، إنه إحساس

الشاعر الضاغط بمسئولية فريضة الجهاد، في عصر وجبت فيه هذه الفريضة أكثر من أي عصر آخر. هذا الإحساس الضاغط نجده يقف وراء الصورة الشعرية في هذه الأبيات. فكأن الشاعر يقول لمعاصريه في البيت الأول إن اعتكاف المسلمين اليوم على السلاح هو أوجب من الاعتكاف في المساجد مثلاً، مادامت أرضنا تغتصب وأعراضنا تنتهك. لهذا نجد المعادلة تتساوى في كلمات البيت الأول بين كلمات الجهاد وكلمات العبادة فنجد أن: العاكفون، الراكعون، السجد، عبادة = السلاح، الجهاد. وإن لم تصح هذه المساواة في ميزان الشعر فهي تصح في ميزان التصور الإسلامي. فإذا ما جئنا إلى الصور في البيت الثاني، نجدها تزدهم بالحركة، فبالرغم مما يفيض به الموت من سكون، فإنه في هذه الصورة يبدو حياً متحركاً على أكثر ما تكون الحركة: القارئون الموت رتل بعضه ناج وجو بعضه مستشهد فالعاكفون على السلاح هم القارئون الموت. ثم إننا نجد أن المجاهدين نوعان، نوع يرتل بالحياة ونوع يجود بالموت، وإذا عرفنا أن التجويد والترتيل يرتبطان في ذهن المسلم بالقرآن الكريم، والقرآن في عقيدة المسلم هو الحياة التي لا تعدلها حياة، جنة في الدنيا إذا ما احتواها قلب المؤمن كانت طريقه إلى جنة الآخرة، فإن الشاعر عندما يجعل من المجاهدين قارئون للموت يرتله الناجي ويجوده الشهيد، فإنما هو يعكس التصور الإسلامي الذي يقول إن الموت والحياة في ساحة الجهاد يستويان في ميزان المؤمن، إن مات فهو في الجنة وإن عاش فهو في طريقه إلى الجنة. ومضمون البيت عموماً يوحي بالحكمة الإسلامية: احرص على الموت توهب لك الحياة. ومن هنا كان توفيق الصورة الشعرية في الإيجاء بالمفاهيم الإسلامية في شكل جديد. وفي

البيت الثالث نشهد جانبا آخر من اللوحة، جانبا يصور لنا روعة و قدسية الجهاد، فصليل السيوف هو صلاة، والجروح على أجساد المجاهدين هي مساجد: أدي صلاتهم صليل سيوفهم فلهم بموضع كل جرح مسجد وهذا لا يتم إلا إذا كان الجهاد خالصا < وحده، فصليل السيوف صلاة، وهو كناية من التكبير الذي يرتفع في ساحات الجهاد. و صليل السيوف هنا أيضا يوحي بحالة الانتصار وفيها الله أكبر، وفي الشطر الثاني لا نفتقد الله أكبر فما دام جرح المجاهد قد تحول إلى مسجد، فهناك إذن الله أكبر، وما دامت الله أكبر في شطري البيت فقد اعتدل واكتمل ميزان التصور الإسلامي فيه، وحيثما حلت الله أكبر بصدق كان هناك نصر، والله لا يضيع أجر العاملين. فهنيئا للشاعر على صدق التصور ودقة التصوير. ؟ شعر الرمز والإيحاء: والآن انتقل انتقل إلى الجزء الثالث وهو الأكثر في شعر قاسم الوزير. وهو في نظري أجود شعره؛ لأنه يقوم على الرمز والإيحاء أكثر من التصريح والمباشرة، ولأن الصور فيه – وإن كانت تعبر عن عصرها – إلا أنها قابلة للسفر إلى أكثر من مكان، وللحياة في أكثر من زمان. ولعل أكثر الصور التي تملأ أجواء القصائد وتسيطر عليها هي صور الغربة والاعتراب. وأهم ما يميز هذه الصور ويعطيها أصالتها الفنية وديمومتها هو الجانب الإنساني فيها. وأقصد بذلك أن الشاعر لم يتحدث في هذه القصائد عن نفسه كمغترب يعني في هذه البلاد أو تلك، ولم يتحدث عن همومه الشخصية أو هموم وطنه اليمني، لم يقل كل ذلك صراحة، ولو فعل ذلك لأصبح شعره نوعا من الأخبار الصحفية أكثر منه قصائد شعرية، ولحصر نفسه في دائرة صغيرة من الزمان، ودائرة أصغر من المكان. ولا نعني بهذا أن

على الشعراء ألا يذكروا أوطانهم بأسمائها في أشعارهم، وألا يتحدثون صراحة ومباشرة عن همومها التي هي همومهم، ولكن هذا نوع آخر من الشعر، تحدثنا عنه في القسم الثاني من قصائد الشاعر، وفيه من الجيد الصادق الذي لا ينكر. ولكن هذا النوع الثالث من شعر الشاعر، والذي لا أريد أن أضع له أسما غير الشعر وهو أفضل أنواع الشعر في نظري، لأنه يتحدث عن التجربة الشخصية من منظور إنساني، أي أنه يبلور التجربة الشخصية لتتحول إلى تجربة إنسانية، فإذا قرأها إنسان في الصين أو أمريكا مثلا تنقل إليه نفس الصور والمشاعر، ولكن بنكهة عربية تميزها، ويصدق هذا على الزمان كما يصدق على المكان. وهذا اتجاه معروف في تاريخ النقد والأدب العالمي، على أن الفارق أننا لا نقول إن كل الشعر يجب أن يكون بهذه الصورة. وإنما هو من أجود أنواع الشعر. ؟ تجربة الغربة والاعتراب: وكما قلنا إن تجربة الغربة والاعتراب هي الهم الضاغط على معظم قصائد الشاعر، وهي اللحن الحزين والمميز لـ سيمفونية الحياة عنده. وحتى قصائد الحب التي يتحدث فيه قاسم الوزير إلى المحبوبة نجد ظلال الحزن تسيطر على ألوانها، فهو لا يفتأ يتحدث عن الغربة عن حلم العودة إلى الوطن، وفي معظم الأحوال نجد المحبوبة ترمز لوطن أو لقضية كبيرة على نحو ما نجد في قصيدة من أغاني التيه التي يتحدث فيها عن أحوال الغريب: من للغريب إذا هو اغتربا في الأرض: يضرب كل مضطرب لا تسأليني كيف أنت؟ نبا بي حظ مرتقب ومغترب ثم نعود فنجد أن أغاني التيه عند الشاعر هي معاناة الغربة والإغتراب، ولن ينتهي هذا التيه إلا بالعودة: يا أخت نفسي ليس ينفعنا هذا المتاه وليس يجدينا لن تقهر الدنيا سواعدنا إلا إذا عدنا

لوادينا وحديث الغربة مرافق دائم للحديث عن هموم الوحدة التي يعاني منها الغريب، وإن كان في زحام من الناس. ويتوسل الشاعر بحديث الحب ليتحدث عن محبوبة عظيمة عاش حياتها يحلم بلقاها، وسواء أكانت هذه المحبوبة امرأة أم أرضا يحلم بالعودة إليها، فخاطر الشعور بالوحدة لا يهدأ، والصراخ بالعودة إلى أحضان الحبيب يلح عليها، وهذا الشعور نسمعه عليا في مطلع قصيدة حادي الحب: يا حبيبي أين ألقاك، فقد طال عذابي؟ ومتى أنسي بأحضانك همي واكتئابي؟ يا حياة الروح في الدنيا ويا حلم الشباب شفني الشوق وألوى بأماني العذاب وأنا ما زلت وحدي نائحا أدعو حبيبي وقد ولدت تجربة الغربة المريرة في نفس الشاعر رفض فكرة السفر وكل ما يتصل بالفراق. ففي قصيدة أغنية للعاصفة التي يهديها إلى الذين قالوا له: معنا غدا وأبحروا نحو شواطئ الدعة يقول لهم الشاعر: إني حطمت الشراع لأبقى على الأرض الملتهبة. لقد خرج من تجربة التجوال والترحال بجزر شديد: معنا غدا.. لا.. لا.. دعوني إني لترعيني ظنوني ماذا يخبئ لي الزمان إذا خرجت إلى السكون ورغم ما يوحي به ظاهر الصورة من مشاعر الخوف التي نجدها في كلمات الرفض لا.. لا.. دعوني ونجدها في الرعب الذي تحدثه الظنون إلا أن المفارقة تبدي لنا أن الشاعر يخاف الخروج من الخطر إلى الأمان والدعة، إنه يريد أن يبقى داخل الأرض الملتهبة ثم تجده يتساءل في البيت الثاني: ماذا يخبئ لي الزمان إذا خرجت إلى السكون وهنا تتضح لنا الصورة وتكتمل ملاحظتها: فهو أشجع من أن يغتر بدعوة الذين قالوا معنا غدا لأنه عرف سلفا أنهم كانوا سيبحرون إلى شواطئ الدعة، فحق له التساؤل عندما قرر البقاء، أن لا أمان للزمان إذا خرج إلى السكون.

ولذلك نجد في الأبيات اللاحقة يتغنى بديار الأرض الملتهبة، كأنه يريد أن يقنعنا ويقدم مسوغاته بأسباب البقاء: تلك الديار وقد فرشت إلى مباحجها عيوني وسقيت من قطرات قلبي غرسة الأمل الحنون وبنيت لي بيتا كأحلامي من الشعر الحزين وجبلت أيامي بأشجى ما تهديج من لحوي ووضع أفراسي وأحزاني كما تهوى فنوني أنا لا أطيق سوى البقاء.. هنا على وهج الجنون وهكذا ندرك استحالة الرحيل مع الذين قالوا له معنا غدا: كيف يرحل معهم وقد سقى من قطرات قلبه الأمل الحنون الذي غرسه في الوطن؟، أيهجر بيتا بناه على ثراه من الأمل الحزين؟ ففيه وضع أشجى أمانه واختلط بفنه أفراسه وأحزانه، لذلك فهو لا يطيق سوى البقاء هنا وإن كان على وهج الجنون. هذا الضرب من الجنون، هو أفضل لديه من الرحيل الذي يعلن صراحة أنه يخاف منه: إني على قلق الرحيل.. أخاف منه.. من الرحيل ما قيمة الأيام فارغة من القلق الجميل إن القلق الذي يصنعه الرحيل هنا ليس من نتائج الجبن والتردد، ولكنه خوف المحب على فقدان الحبيب والقلق الدائم الذي يساور هذا المحب على المحبوب، فليس أحب إلى قلبه من الوطن، ولا أقرب إليه منه، فكيف لا يقلق وكيف لا يخاف وإن كان في الأمان الذي لا أمان بعده؟! ثم يأتي البيت الثاني ليحل لنا المسألة حين يسمي هذا القلق بالقلق الجميل، والأيام فارغة لا قيمة لها بدون هذا القلق الجميل وهذا صحيح، لأن قلق المحبين الذين لا يكف عن التوقف حتى في لحظات الأمان هو المضخة التي تكفل لهذا الحب الحياة والتي تضمن استمرار توقده وجدوته، وبه تتحول حياة إلى الحياة وتتحول كلمة حب إلى الحب إذ لا يكتمل معنى هاتين الكلمتين دون الألف واللام كما يقول

العقاد.. وعلى هذا نجد أن النفس الأخير في القصيدة يزدحم بمعان تذكرنا بصرخات الزيري – رائد الشعر الوطني في اليمن الحديث – تلك الصرخات التي يقبلها العقل ويستعذبها القلب وتستطيبها النفس، لأنها تتصل بأفكار هي أقرب ما يمكن أن يصل إليه عقل، ومشاعر هي من موطن القلب تنبع، وخلجات لا تنفثها إلا نفس لا تلتذ إلا بالعيش في الوطن الحبيب. لهذا يجب ألا يساورنا العجب عندما نجد المقطع الأخير في القصيدة يبدأ بلا لأنها الحرف الرفض، والزاعق الذي يوحي بالرفض المطلق، الذي لا يقبل المساومة لكل أشكال الحلول الأخرى. فلا كما سنرى هي الطريق الصلب أو السد المنيع، إن شئت، والذي أغلق الطريق لما قد يأتي من محاولات الإقناع قبلها، وهو الطريق الذي سهل العبور لكل جمل الرفض من بعدها: لا.. لن أسير، هنا مكاني فاتركوني يا رفاقي! أنا لهفة الشعر الطليق ولوعة الدمع المراق أنا خفقة الطير المبكر في الصباح إلى السواقي أنا بهجة اللقيا تبدت بعد غاشية الفراق أنا أنة الباكين في ليل التعاسة والشقاق أنا صيحة الثوار.. غضبتهم على عفن النفاق أنا صبح هذا الأيك: يطويه وينشره عناقي! ها قد رجعت إليه.. أنفض عنده بعض اشتياقي ولقد شربت من اللقاء.. فلن أعود إلى الفراق هنا نجد الشاعر بعد أن قال لرفاقه لا.. لن أسير، هنا مكاني وطلب منهم أن يتركوه، وجد أنه لزاما عليه أن يبين لهم لماذا قال لهم لا، ليبقى في الأرض الملتهبة. ذلك لأنه يمثل لهفة الشعر الطليق الذي يعبر عن صوت الأديب الحق الذي يعيش بين الناس يصور آلامهم وآلامهم، فمن غير الشاعر يستطيع أن يعبر عن بهجة اللقيا.. لحظة السعادة في أن يلتقي إنسان بوطنه بعد فراق طويل أو اغتراب مرير،

ومن غير الشاعر يترجم أنة الباكين إلى لغة القلوب والمشاعر لأن أحدا لا يسمعهما في ظلمة ليل التعاسة والشقاق. فإذا ما وصلت أنة الباكين للذين يهمهم أن تصلهم تحول الشاعر بعد ذلك إلى رمز لصيحة الثوار، لأن هذه الصيحة عادة لا تنطلق إلا إذا سمعت أنة الباكين، فيؤدي ذلك إلى أن ينهض من بين السامعين من يصيح نائرا غاضبا على عفن النفاق. وهذه هي رسالة الحق في الأمم الحية، يعبر عن آلامها وآمالها، يبشر وينذر، ويحذر ويتنبأ والشاعر لا يستطيع أن يفعل هذا إلا إذا اشترى دينه بدنياه، لا يزيغ بصره بنجم ضال، ولا يتحول إلى صدى الصوت أي فرعون، وإنما يحل في ضمير الأمة ليحبر عنها ويجعل من نفسه أحد قلوبها السليمة ليسمع الناس دقاته وقت الخطر وزغردته وقت النصر. وربما لهذا كله أو لبعضه قرر شاعرنا البقاء في الأرض الملتهبة وحطم الشرع على الشاطئ ولم يحبر مع الذين قالوا له معنا غدا بكل ما توحيه الكلمة من إغراء بالرحيل ثم قال لهم لا، لأنه لا يستطيع أن يكون ضمير الأمة وهو بعيد عنها، وقد أدرك هذه الحقيقة عندما غاب عنها، لذلك نجده يعود ويقول بلهفة المشتاق: ها قد رجعت إليه.. أنفض عنده بعض اشتياقي ولقد شربت من اللقاء.. فلن أعود إلى الفراق!؟ الشعور بالوحدة: وفي قصيدة نحو شروق لا يغرب يرسم لنا الشاعر صورة هم ثقيل يرسف في ظلمة ليل طويل، ويشكو الشاعر من معاناة الشعور بالوحدة. إن الدنيا تتحول في عين الشاعر إلى قبر صغير مظلم: ما أهولها: هذي الظلمة! والريح.. وراء الجدران تعوي.. تعوي وتتكاثر الظلمة حول الشاعر، وهو يشعر بضيق الدنيا على سعتها، وظلمتها على نورها. إنها دنيا يرى فيها انتشار ظلام الظلم والباطل على نور العدل

والحق، ثم نجده بعد ذلك يرسم لوحة لدينا أظلمت جوانبها من روع الظلم.. دنيا يعاني فيها الإنسان المسكين من الجوع والخوف والحر والبرد والهلم والغم والحزن، ولا أرى هذه اللوحة تنطبق على حال أصدق من حال الإنسان المسلم في كثير من بقاع الأرض الذي يصرخ: ليس هنا إلا الظلمة فتكومت على نفسي أفضم من جوع لقمة وألمم من برد جسدي وأخىء من خوف رأسي وأنا أهذي من فرط الغمة! وطفقت أغني في سري لحنا أبكم لحنا - كحياتي - مبهم ودموعي في صمت تجري وبصمت تتجمع لكن هذا الإنسان الذي أنهكه برد الليل الطويل، وقتله الخوف حتى جعله يخشى على رأسه من الظهور في العراء لئلا يقطع بأيدي الظلمة.. هذا الإنسان أصبح مجنوناً أو كاد، بعدما طال عليه الليل، وطال عليه تكميم فمه، فتمتم بلحن أبكم لا يفهمه إلا الذين يشتاؤون إلى النور في عالم الظلام ثم يتكاثرون بعد ذلك كالنجوم في السماء فلا تستطيع ظلمات الليل أن تخفيه

القاسم بن علي الوزير

دراسات في

في ذاكرة الأعلام ..... فكره وشعره

## ألوان التصوير.. في شعر القاسم الوزير

### مطهر شهاب

ثق بنفسك! ذاك وتثر تهمتر له كل القلوب

هذه الوصيّة وردت في مقال مشهور للكاتب والشاعر الأمريكي «أميرسون» الذي كان لا يخفي إعجابه بالفكر الإسلامي وحكمة الشرق. وما هو ذا يسطر هنا حكمة تزري بكل من يتصنّع الأدب أو يتكلّف الشعر. وما أقل أن تجد، حتى بين المجيدين، من يُسمعك أوتار ذاته، خاصة في شرقنا المكبوت، حيث أصبح الحرس فضيلة والنفاق حكمة.

ولكنك لا تعدم سماع هذه الأوتار كلما قرأت شيئاً للشاعر اليمني القاسم بن علي الوزير. فسرعان ما يجد المتابع لفرّ هذا الرجل أن أشعاره لا تعدو أن تكون أصداً لموسيقى نفسه، وأن مكوّن صورته البلاغية رسومات تعكس ما يبرق في ذهن الشاعر من خواطر. إنه ضرب نادر من القصيد، يكاد فيه أن يكون الشعر شعوراً خالصاً. وسترى أن الصنعة في هذا الشعر تتقلّص إلى درجة يصبح معها دور الشاعر أشبه بدور المقترض المستعير. فهو من الأيام يستعير ريشة التجارب التي تلون معاناته النفسية، وهو من الأشجان يستعير النَّاي الذي يجيش بهذه التجارب:

يا لِدات الشباب جهشةٌ محزونٍ      أعارته نايها الأشجانُ

ذهب الصادقون إلا قليلاً      وتولّى اللدات والأقرانُ

وأنا إثرهم أردُّ      ألحاني فما أرجعتهم الألمانُ

بهذه الألمان الشجيرة الجاهشة، يبكي شاعر اليمن صديقاً له من مصر هو المرحوم

«محمد المسماري»، عضو مجلس الشعب، الذي كان يصفه القاسم:

وله الصدر في الندى تزكي      حُسنَ أقواله الفعالُ الحسانُ

المحامي يحمي الدمار.. فحقُّ      يتأدّى به وعرضُ يسانُ

وكان بين الرجلين أخوة ومودة، أخوة العقيدة الواحدة ومودة الشعور المتجانس. أما

في الساحة السياسية، فإنهما ينتميان إلى مدرستين مستقلتين

المسماري إلى مجموعة الإخوان المسلمين، والوزير إلى اتحاد الشورويين التعاونيين. وفي

هذا الائتلاف الطاغي على الاختلاف، يقول الشاعر:

كان لي منه في «الكنانة» ظلُّ      وارف مثل حُلِقِه فَيَنانُ

التقينا على العقيدة لا الحزب      ففي الله كُلتنا إخوانُ

ولنعد إلى جهشة المحزون، إلى الأبيات التي يستعير فيها الشاعر من أشجان نفسه

النأي الذي يبكي به. فسيجد الدارس لشعر القاسم أن في تلك الأبيات ما يغنيه

عن جهد كبير. فيها يكمن كنه فنّه وسرّ شعره. فإذا ما قابلناها بأشعار القاسم

وقصائده الأخرى، وجدناها جميعاً، على اختلاف ألوانها وتباين ألحانها، تصدر من

نأي واحد: القانون الجدلي الذي ينتظمها جميعاً هو عين القانون: العاطفة تحرك

الفنّ، والفنّ يستعير أوتار العاطفة لإنجاز الأداء. الرسم يساير الموسيقى، والصوت يصاحب الصورة، والشعر مصبوغ بألوان المشاعر

والأبيات التي استشهدنا بها تدليلاً على هذه العلاقة الجدلية وردت في المقطع الأخير من المرثاة المشحونة بألوان العواطف الشخصية، والموحيات التاريخية، والتأملات الفكرية، فإذا ما تابع القارئ هذه السلسلة من الشجون والعواطف، فإنه لحظة أن يصل إلى عبارة «يا لِدات الشباب»! لا يملك إلا أن يقف. وهو يقف ليس لأن صرخة الشاعر تستوقفه فحسب، بل لأنها تستوقفه في المكان المناسب. فنداء الشاعر «يا لِدات الشباب» يأتي بعد رحلة طويلة زاخرة من جزيرة العرب ووديان مكة إلى الأقصى في ربوع الشام، ومن روابي اليمن إلى ضفاف النيل في مصر. وفي هذه الرحلة يبحر القارئ في نفس الشاعر، يحسّ بما يحسّه، ويعاني مما يعانيه. فما أن ينطلق نداء «يا لِدات الشباب» حتى يفزع القارئ للنداء، وكأنّ لسان حاله يقول: «نعم! هذا هو وقت الانفجار والاستراحة معاً، ترى ماذا أستطيع لك الآن؟» فيأتي جواب الشاعر:

جهشة محزونٍ أعارته نايها الأشجانُ

يأتي هذا الجواب فيقبله عقلك وترضاه نفسك وكأَنَّك كنت تترصّده ترصّداً، وتنتظره انتظاراً، فلا تملك إلا أن تسلّم للشاعر بأنّ قصيدته ما هي إلا جهشة. وأنت تستخلص من طوايا القصيدة بأنّ الشاعر، إذ يقدم العمل على القول، يدرك بأنّ لكلّ عملٍ غاية، ولكلّ مقام مقالاً. ومقامه هنا هو مقام الجاهش الباكي، مقام من

يتذكر فيذكر. القصيدة «جهشة»، ولكنها ليست جهشة من يتصنع البكاء الشعري أو يتعمد النياحة الفنية – إن هي إلا «جهشة محزون أعارته نايها الأشجان» فهي، بحق، ترديد لوقع هذه الأشجان، وصدى من أصدائها

هذا الصدى الصادق نسمع رنينه أيضاً في قصيدة القاسم «صدى الرحيل» ولها مع الأشجان قصة، إذ خرجت إجابة على قصيدة للمفكر والمجاهد السوري المسلم عصام العطار، الذي سقطت زوجته الأخت «بنان علي الطنطاوي» شهيدة برصاص الغيلة النكراء في ألمانيا. فكان أن نظم زوجها «قصيدة الرحيل» وهي ميمية، يبت فيها آلامه، ويجهر بآماله. فإذا بالقاسم يتمثلها جميعاً ويسمعنا رجوع نفسه في ميمية مماثلة هي «صدى الرحيل» وكأنك تلمس فيها السهر والحمى اللذين تداعت بهما اليمن لشكوى الشام:

جفنٌ لجرحك.. لم يغمض ولم ينم يشكو من الهم.. ما تشكو من الألم

يا نازح الدار لم يختر مبارحةً إلا حفاظاً على زاكٍ من الدم

إلى أن يقول:

لئن تغير أقوامٌ أو انقلبوا فقد وفيت وإن قبضاً على الحُمم

ولنتأمل الأبيات التالية، وكيف يسمعنا الشاعر فيها من جديد أنغام نفسه وما انطبع على ذهنه من حداء الضمير أو حداء العاطفة المتجاوبة:

يا حادي الركب من خلف البحار وقد نأت ركابك عن «ليلي» وعن سلم

أشجيت قلباً شجياً غير ممتليِّ إلا بحشدٍ من الأحزانِ محتدمٍ

غنى فأبكي.. وأشجى قوله.. وإذا أراق دمعاً... ففي باكٍ من الكلمِ

لا يستطيع عطاءً ليس يملكه من يعزف الحزن يجرح بهجة النغمِ

من أجل هذا.. توارى عن نواظرهم ولاذ بالصمت مطوياً على ضميرِ

إنّا كلانا نزلنا غير سامرنا واستوطن القلب جرحٌ غير ملتئمِ

نحن أمام رجل لا يعطي من الفنِّ إلا ما يملك من العاطفة، وأنَّ أشعاره غيظ من فيض مشاعره؟ النغمة النفسية التي نجدها هنا تعود بنا إلى ذات النغمة التي لمسناها في قصيدة الشاعر عن المسماري. ففنُّ القاسم كله، وإن تباينت ظلاله وأطيافه، مصبوغ بلون أساسي واحد هو لون نفسه. الإحساس والتعبير يلتقيان، كما رأينا، في وحدة عضوية

غير منفصمة، فهناك وشيجة قوية تربط الثمرة الفنية والبذرة العاطفية التي تنبثق عنها القصيدة. ومن هنا تتضافر الأنغام والصور في شعر القاسم في نسيج فني وعاطفي واحد، مما نخال معه أنَّ الشاعر أسير لفنِّه لا مسير له، وأنه مطيع لقوى من الإلهام والإيحاء لا قبل له على عصيائها. الخلق الفني في مثل هذا الشعر تسبقه عاطفة نضجت وشعور فدَّ استفاض. أي أنَّ مخاض التجربة النفسية يكره الفنان على هذا التعبير المبدع إكراهاً، فتولد أشعاره مشاعر تضحج بالدفء والحياة. ولنتأمل هذه

الصورة التي يصور فيها الشاعر حياة «بنان» وموتها، معزياً زوجها بكرامة الاستشهاد:

بنان.. ذلك نورٌ مرَّ مؤتلقاً      من نور ربك في داحٍ من الظلمِ  
عاشت عطاءً على الدنيا تمرّ بها      كما على الجذب مرّت واكف الدّيمِ  
عاشت صلاة جهادٍ غير منقطعٍ      وسلّمت بفداءٍ غير منفصمِ  
عادت إلى ربّها أكرمَ بعائدةٍ      أدّت شهادتها مكتوبةً بدمِ  
طوبى لها في الأعالي عند بارئها      وباء قاتلها بالخزي والندمِ

لا بدّ أن ننوّه أولاً أنّ تبجيل الشاعر للشهيدة ليس ضرباً من ضروب المجاملة يسوق به العزاء التقليدي. فقد عاشت الشهيدة مع زوجها مرارة الغربة ومحنة المرض وأخطار الجهاد. تحمّلت «بنان» ذلك كله في صبر لا يقوى عليه أكثر الرجال، فكانت من ثمّ نعم الشريك والمشجّع والملهم لزوجها الذي ينجيها في القصيدة، قائلاً:

بنان يا أنس أيامي التي انصرمت      وليس يومك في قلبي بمنصرمِ  
ويا رفيقة دربي والدنا ظلّم      نشقُّ درب الهدى في حالك الظلمِ  
ويا ثبات فؤادي في زلازله      وبلسم الجرح في نفسٍ وفي أدمِ  
ويا وقائي إذا ما كنت في خطرٍ      ويا يميني ويا سيفي ويا قلبي

هكذا عاشت «بنان»، فكان من وفاء التسجيل أن ترسم ريشة القاسم حياتها وموتها في هذه الصورة النافذة:

عاشت صلاة جهادٍ غير منقطعٍ      وسلّمت بفداءٍ غير منقسمٍ

وقد تُمي إلينا أنّ مؤرّخ الأدب اليمني والبحّثة الدؤوب السيد أحمد الشامي، عندما سمع هذا البيت طرّب له طرّب الناقد الذوّاقة. قال إنه بيت «غير مسبوق»، وإنه لم يرَ من صوّر هذه الفكرة في الشعر العربي سلف يدانيها. والذي يعرف الشامي، الشاعر الصناع، لا يصعب عليه أن يخال الرجل ينطق بهذا وعيناه تقدحان وميض المنافسة، وكأنه يقول: «ليتها كانت لي»، ومن السهل على من يغبط شعر القاسم أن يطمح بتوليد مثله. فشعر القاسم، على ثرائه وجزالته، كله سهل. ولكنه السهل الممتنع. أما مردّ امتناعه، وهذا ما أحسبه قد غاب على الشامي، فهو أنه شعر لازم لنفس قائله، لاصق بها. فهو يلجأ إليه للتفريج عن قلبه، لا للتفريج عن جيبه. فهو في مذهبه الفني إذن ليس بحترياً يتخذ أدبه حرفة يرتزق بها، أو مفخرة يمشي بها في الأرض مرحاً. فهو، كما رأينا، مضطر إلى الشعر اضطراراً، يعاني في حمله كما يعاني في ولادته. وأخاله وهو يسجّل ذلك الشعر وكأنه لا سلطان له إلا سلطان من يكتب ما يملى عليه. أما الذي يملى على شاعرنا شعره فهو رصيد ضخّم من تجارب الحياة العملية والنفسية والعاطفية. وهي تجارب تمثّلتها قريحة يقيّظة وشعور مرهف دقيق، فسرى ذلك في كيانه حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من مزاجه الذهني والفني.

ويتّضح هذا خير اتّضح في وصفه لتاريخ «بنان»، إذ صوّره بأنه صلاة جهاد متواصل، كانت الشهادة في آخره سلاماً اختتمت بها تلك الصلاة

في منتصف القرن الميلادي هذا، كان القاسم وإخوته صبية أحداثاً يتلقون العلم والأدب في بيت من أعرق بيوت الفقه والسياسة في اليمن. في هذه البيئة كان الصبية الصغار يسمعون أنّ الصلاة هي خير العمل، وأنّ الجهاد هو تاج المسلم والعلامة الفارقة بين الناهضين والقاعدين. ثم إذا هم يشهدون ذويهم يفعلون ما يقولون. شهدوا أباهم علي الوزير وعمّهم عبد الله الوزير يَحْتَمُونَ صلاة الجهاد بذلك التسليم، تسليم من أذى شهادته «مكتوبة بدم». حدث هذا سنة ١٩٤٨م عندما أجهضت ثورة اليمن الحقيقية المعروفة بثورة الأحرار الدستوريين، وهي الثورة التي حظيت بتعاطف طلائع الصحة الإسلامية ورجالاتها، ومنهم الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله. وحرّيّ بالذي يتصدّى لفهم شعر القاسم أن يتأمل هذا التاريخ المفعم بالجهاد، المتوّج بالاستشهاد فالمزاج النفسي والتكوين الذهني لأي إنسان ما هو إلا ثمرة من ثمار تاريخ حياته، به يتغذى وعليه يترعرع. فإن كنت شاعراً، وشاعراً من طبقة القاسم، جبهتك آثار الأحداث بكل ثقلها وعنفوانها، فإنك لا تسمع ألحانه إلا ومعها تاريخ كامل مركز في رزمة أو صورة أو كلمة. وهنا يكمن سرّ تلك القوة التي قصد إليها «أميرسون» عندما قال: «ثق بنفسك! ذاك وترّ تهتزّ له كل القلوب»، وكأنه يقول: «كُنْ من أنت، وأسمعنا ألحان نفسك غير أن السيد الشامي، مع هذا، محقّ في أن فنّ القاسم، من حيث هو فنّ، أهل للغبطة وأهل

للإعجاب. مثلاً، هذا الطباق الذي تلتقي فيه العفوية بالمهارة في مزيج بديع، في البيت الذي يختتم به الشاعر قصيدته صدى الرحيل:

أنت الغريب فما آسى لمغترِبٍ      عاف الوحول فأخى وحشة القمم

مثل هذا المعنى طرّقه أبو القاسم الشابي في قصيدة «إرادة الشعب» حيث يحذّر من أن الذي يرغب عن صعود الجبال يقطن أبد الدهر بين الحُفَر. كما طرّق عمر أبو ريشة مثل هذا المعنى في قصيدة «النسر» الذي اهتزّ هزة المقرور فترك السفح وأبى إلا أن يخلّق طائراً ويموت موتة كريمة على الذورة الشمّاء في حضن وكره المهجور. أقول إن هذا التسامي من السفح إلى القمّة قد طرّقه هذان الشاعران الكبيران، التونسي والسوري، فأجادا وأبدعا. غير أنني ألمس في بيت القاسم الوزير قوّة عجيبة ونبرة صِدْقٍ أدعى للإطراب. ولعلّ مردّ هذا إلى سببين: الأول، هو موقع البيت في آخر القصيدة، وهو موطن يستقر فيه القارئ، كما يستقر طالب القمة آخر المطاف. والثاني، هو أن البيت يأتي، وكأنه الخاتمة المنطقية، بعد سرد مطوّل للحوول التي يرى القاسم أنّه لا بأس على رجل في إباء العطار من أن يهجرها ويلوذ منها إلى وحشة القمم

وقد صوّر الشاعر هذه الوحول فأتقن تصويرها في لمحات خاطفة وإيجاز مبدع، بيّن فيه مآسي الأحرار من بني المسلمين في مواطنهم، حيث يلقون من المواجه ألواناً تفوق ما يلقونه في غربتهم، يقول الشاعر:

في كل أرضٍ لنا منفى.. وما طلعت      شمسٌ.. ولا غربت إلا على غمم

والقاطنون؟ وهل تدري مواجعهم؟ يودّ ناجيهم ولو فاز بالعدم

إن سالموا استُعبدوا، أو قاوموا سُحقوا أو صانعوا حُشروا في زمرة الخدم

نشكو العدى لليالي وهي ناظرةً فعلاً أشدّ وأنكى من ذوي الرّحم

اللابسين - على النكراء - جلدتنا الخالعين سمات النبل والكرم

الحاملين - وبا للزور - في صلفٍ أسماءنا - وهي منهم - دونما حُرّم

الهادمين عزيزاً من مآثرنا والقاعدين على الأنقاض والرمم

الواغلين على التاريخ هازلة أحداثه في سياق غير منتظم

وفي قصيدة الرحيل يقول العطار عن نكبة العرب بحكامهم:

والحاكمون بأرض العُرب سمعُهُم عن محنة الحق والإنسان في صمم

إلى أن يقول:

نُصِبُّ طراطيرُ أقزامٍ وإن لبسوا للناس أثواب هارون ومعتصم

نرى بهم كل ما نشكوه من صنم ولا نشاهد فيهم عفة الصنم

ونلاحظ أنّ العطار يستشهد في البيت الأخير بالشاعر أبي الطيب المتنبي، فيما

يشبه المسامرة أو الحوار الفكري عبر التاريخ. هذا الحوار يدخله القاسم، فنجد

أنفسنا في مؤتمر يقارع فيه أصحاب القلم والبيان أهل الجبروت والسلطان، يقول

الشاعر في صدى الرحيل:

حكّامنا وليكن للعار موسمه يزهون بالإثم أو يزهو بمثلهم

تَجَرَّؤُوا كِي نَرَى فِيهِمْ جَبَابِرَةَ أَمْثَالَ هَارُونَ.. أو أَمْثَالَ مُعْتَصِمٍ

ليسوا جبابرة.. لكن زبانيةً فللجبابرِ بعضُ الزَّهْوِ.. والشَّمَمِ

سَلِ الْيَهُودَ.. وَسَلِّهِمْ.. هل ترى رجلاً؟ لولاهم.. لم تكن صهيونُ.. أو تَدُم

وشاعرنا، من بعدُ، ليس ناظماً يُجَبِّرُ القراطيس في برج من العاج، فقد شارك آل الوزير في صنع تاريخ اليمن الفكري والسياسي من قديم، ولهم في تاريخ اليمن الحديث، كما رأينا، صفحات كتبوها بدم. وقد دخل القاسم معترك العمل الإسلامي وعمل على الصعيدين السياسي والثقافي جنباً إلى جنب مع إخوته ومنهم الكاتب والمفكر الجهبذ السيد إبراهيم الوزير والباحث المؤرخ زيد الوزير، وشاركوا فيه بالكلمة الجريئة والجهد الكريم. ومن هنا، فالقاسم، وهو يرسم صوراً من ألوان الحكم والسياسة لا يردد صياغات باليات جوفاء الرنين لإدانة هذا أو القدح في ذاك بل يصوّر المأساة كما شهدها، ويعيّن الخطوط التي رسمتها الأحداث في نفسه، فيشعرك أنه لا يقول إلا ما يعلم، وأنه يعلم ما يقول، وأن قلمه طَوَّعَ لمشاعره، ومشاعره غداء لشعره. فأنت، إذا تأملت الأبيات التي أوردناها من قصيدة «صدي الرحيل»، والتي تصور المسلمين وقد رزئوا بحكامهم، تجد أن صدقها له ذات الرنين الذي تجده في قصائده الأخرى

تجد هذا الرنين، مثلاً، في المراثاة التي كتبها في موت المسماري فهناك أيضاً يسجل الشاعر جانباً آخر من جوانب الظلم والظلام المخيم على أمة ساد فيها حكم الطغيان وعدالة القرصان:

وَيْكَ إِنَّ الظَّلَامَ دَاجٍ وَإِنَّ الرَّكْبَ فِي اللَّيْلِ تَائِهُ حَيْرَانُ

نُصِبَ الجَاهِلُونَ فِي أُمَّمِ الشَّرْقِ فَسَاسَتْ شَعُوبَهَا الذُّوبَانُ

أصبحت «مخدعاً» للاه وكأساً لخليع.. وما ارتوى السكران!

سلبوها - باسمها - كل حقّ وتولّى العدالة القرصانُ

صَدَقُوا الحَرْبَ فِي أَذَاهَا وَلَكِنْ كَذَبَ الضَّرْبُ، فِي العَدَى، وَالطَّعَانُ!

حاربوها - باسمها - وأدّلّوها فهانت على الوجود وهانوا

وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ عَلَى النَّاسِ أَرِيَابٌ وَهُمْ فِي نُفُوسِهِمْ - عِبْدَانُ

اسألوا عنهم الأولى غرسوهم حَزَبَةً مُرِّقَتَ بِهَا الأوطَانُ

ودعوهم إلى الحنا.. فأجابوا وأرادوهم عبيداً فكانوا

نَصَّبُوهُمْ.. لَكِي يَطِيعُوا.. فلما طلبوا منهم الخيانة.. خانوا

وتغطوا - وهم عرايا - بزيف المغطى بستره عريانُ

أرأيت مستوراً عريان بما يستتر؟ أولئك هم المنصّبون في أمم الشرق الذين يعرّيهم الشاعر في هذه الصورة الفاضحة. إنها صورة كاشفة، وهي وإن لم تكن جديدة،

فإنها في السياق تفاجئك بأصالتها، لأنها ترد حيث يجب أن ترد، بالقسط الوافي من الألوان، والقدر اللازم من الأوزان

والوفاء بالقسط في الأداء الشعري والفني هو، عند أكثر الدارسين لفنون البلاغة، مسألة جوهرية. فهو بحق لبّ الأسلوب الأدبي. وقد سجّل العرب، من قديم، أن روعة الإنجاز تكمن في دقة الإيجاز، أي فيما «قلّ ودلّ». وكذا الإنجليز، يقول شاعرهم «شكسبير»: إن «الإيجاز هو روح الفطنة». وعلى مثل هذا سار الفرنسيون الذين جرت بينهم عبارة فلوير مجرى المثل السائر. فقد كان فلوير يحرص كل الحرص على تقصّي

الكلمة الوافية. والكلمة الوافية في الفرنسية لها معانٍ كثيرة مترابطة. فهي تدلّ على الضبط، والعدل، ودقّة الميزان. وهي في عبارة «فلوير» تعني أن يتقصّى الكاتب أنسب الألفاظ للتعبير الموجز الوافي بالمعنى

وسترى أن هذا الإيجاز الوافي هو بصمة لا تفارق شعر القاسم. غير أنني أعود فأقول إنه، على الرغم من ثقافة الشاعر العريضة وسعة اطلاعه فإن الوفاء بالقسط في أدائه الشعري مرثؤه الأول هو طبعه لا فنّه. فهو يعوّل، أكثر ما يعوّل، على ما تزخر به نفسه ومخيّلته من ألوان الإحساس والتصور. وهذا ما عنيّت أنه ربما يكون قد فات على الأستاذ الشامي وهو يصنّف أبيات القاسم إلى قديم وجديد وسابق ومسبوق. فالأسلوب، كما يقول الناقد الأمريكي «وايت» هو، في المقام الأول، «دفعه إيمانية، وليس حيلة نحوية»، الأسلوب هو الأديب

وأدينا شاعر يربأ بفنّه أن يوزن بأوزان المسابقة والملاحقة في سوق الفن، كما يزدري البيع والشراء في حوانيت السياسة. بل إنك تجده يقول إن عادة الاتجار بالأدب وبالغالي والرخيص من القِيم هو مرض من الأمراض التي تنخر في جسم أمتنا:

إنا لنلقي على الدنيا مآسينا ونحن، في كل يوم، نصنع السببا!

بعنا الدماء التي سالت مقدسة بعنا المصير.. الذي ما زال محتجبا!

بعنا المروءات.. بعنا كل غالية من النفوس وبعنا الحزن والطربا!

إلى أن يقول:

بعنا الخيول على الميدان مُشرجةً بعنا السيوف وبعنا الشعر والأدبا

ولو قدرنا لبعنا كل عابرة من النسيم تضم العطر منتحبا

لم يبقَ شيءٌ بأيدينا لمدخرٍ حتى الكرامة بعناها لمن طلبا

في هذه الأبيات محاسبة. وفيها إدانة وعتاب. لكن نبرتها هي نبرة الشعر لا جمعجة الخطابة. فما أسهل على مصطنع الأدب أو محترف الشعر أن ينزلق إلى هوة الخطابة حيث يريد الشعر، وبخاصة إذا تصدّى لمسائل السياسة والاجتماع. غير أنك تتوسّم هنا ما يسميه الأديب الناقد محمد مندور «فن الهمس في الأناشيد» فالشاعر يبلغ غايته عبر مجموعة من الصور المترابطة ويصلك معناه في سلسلة من الأفكار الموحية، وكأنه يهمسها لك همساً ويقترحها اقتراحاً، لا يصرخ بها صراخ من يخطب للغوغاء عبر مكبّر للصوت

وفنّ الهمس في الأناشيد يبلغ ذروته في ألوان أخرى من شعر القاسم، والمجال لا يتسع لنا هنا لتأملها، وإن كان لا بأس علينا أن نضرب لها مثلاً سريعاً من قصيدة له بالشعر الحر، وهي قصيدة «رموز على حاشية الأفق» (١). وفيها يرسم صورة لشاعر مقصوص الجناح، طموحاته العليا تشدّها قيود ثقال إلى أطيان سفلى، تتجاذبه سماء الآمال الباسمة وأرض الواقع الكئيب:

الليل حالك بهيم

مواكب القطعان في أرجائه.. تهيم

قد نامت الرعاه

وغابت النجوم عن سماه

وحفلة للدود، والفئران والوباء

وقصة للموت والفناء

في الحالك البهيم

أهكذا تُفتَحُ الجحيم؟

ونرى هنا كيف يعرض الشاعر في ومضات سراع سلسلة مترابطة من الصور المادية. وهكذا تتجسّد لنا حالة نفسية لا نستطيع أن نلمسها، بطبيعة الحال، إلاّ من خلال تلك الصور. وقد كانت هذه المشكلة من أبرز المسائل الشعرية التي تصدّى لها الناقد «تي. إس. إليوت». طلع إليك النص المستخرج من الصفحة السابعة التي

أرَفَقْتَهَا، وهي تكملة للتحليل النقدي حول نظرية "المعادل الموضوعي" وتطبيقاتها في شعر القاسم الوزير:

إليوت بنظرية «المعادل الموضوعي»، وهو يقصد بذلك أن جيّد الشعر يعبر عن كل إحساس ذاتي غير ملموس بصورة موضوعية ملموسة تعادله أو تكاد. هذه الصورة ينبغي على الشاعر أن يقتنصها من دنيا الواقع ويبنى بها جسراً يدخل عليه الناس إلى دنيا نفسه

وهذه الصورة الهامسة والجسور الموصلة كثيرة في شعر القاسم. فهو إذا أراد مثلاً، في رثائه للمسماري، أن يقول إن عدل الإسلام وبساطته قد عمّر في مصر أكثر مما عمّر ظلم الأباطرة وهيلمان الفراعنة، لجأ إلى المحراب وصوت الأذان رمزاً للخالد الباقي، واستحضر قصور فرعون وأسطول «جنبول» رمزاً للغابر الفاني. ثم إن أراد مؤرخاً يشهد على ذلك كله أتى بشاهد عريق هو النيل، فجعله يهمس عبر التاريخ وقصبه همساً يملأ الشيطان:

كم جلسنا على الضفافِ وللنيلِ حديثٌ مُجَنِّحٌ فَتَّانٌ

يرسل الحكمة البليغة في هَمْسٍ فتصغي لهمسهِ الشيطانُ

وتراه وقد تباطأ حيناً مُثَقَّلَ الموجِ.. عَقَّه الجريانُ

مغرَقاً في التفكير يتلو علينا قصصاً خطها عليه الزمانُ

إلى أن يقول:

ساس «فرعون» أمة النيل بالعسفِ فأين القصورُ والسلطانُ؟

وغزاها من كل فجٍّ طغاةً فانطوى القُرسُ وانقضى الرومانُ

وأتاها النبيُّ أحمدُ بالعدلِ فباقٍ «محرابُه» والأذانُ

أين «جنبول» في البحارِ بلاءِ مستطير وفي القرى عدوانُ؟

أين أسطوله المعريد في الأرضِ وأنيابه الحدادِ الخِشانُ؟

ذهب الظالمون.. والنيل باقٍ وحديث النبيِّ والقرآنُ!

والحديث عن شعر القاسم له شجون مثل شجون النيل هذه لا مكان لاستنفادها هنا. وكم وددت لو أن ناقدًا نابهًا كناقدنا الدكتور عبد العزيز المقالح يعرض لشعر الرجل فيعوض ما قصّرت فيه من عرض. فالتعريف بشعر القاسم مظلوم كظلم شعبنا الآمل بعيش الرخاء وعدل الحكم والقضاء. وشاعرنا، كما رأيت، قد جعل الظلم رمزاً لما يحاربه في أشعاره. وما أخشاه هو أن أكون أنا قد ظلمته في موطنين

فأنا أخشى أولاً أن أكون قد أوهمت القارئ أن الشاعر لا تتجاوز قصائده مشاكل السياسة وأمور الحكم والعدل التي تغص بها ديار المسلمين. والواقع أن القاسم، إلى جانب تركيزه على هذه الجوانب، له أيضاً الجيد من الشعر الغزلي العفيف. وله في التأمل الفلسفي ومحاسبة النفس شعر يذكرك بالجيد من شعر التصوف. كما أنه طرق أبواب الشعر الحر، وفيه أيضاً يجد القارئ ذلك المزيج الفريد من الرقة والفحولة التي تمتاز بها أشعاره جميعاً. وقد فاتني أن أذكر التيه والغربة وحال المهاجر اليميني.

فله في هذا الباب شعر تصويري لم أر مثله إلا في شعر الدكتور محمد عبده غانم. وأنا أرغب إليك أن تقرأ قصيدة «التائه»، فهي في جودتها وبالغ تأثيرها أهل للمطالعة المتأمله والدراسة الفاحصة. ولما كنت أبتغي أن أقصر العرض على شعر القاسم، فقد تجاوزت هنا عن فنّ المقالة والكتابة التحليلية، وله فيها مساهمات شتى تجدها في دوريات مختلفة، وعلى الأخص في مجلة الرسالة التي كان يصدرها اتحاد القوى الشعبية اليمنية

وأنا أخشى ثانياً أن أكون قد أوقعت القارئ في إيهام آخر. فأنا فيما عرضت كنت أسعى إلى تبيان الروابط النفسية التي تصل بين ألحان الشعر لدى القاسم وأوتار العاطفة. ولكن لعلّي فيما أخذته من أمثلة قد طبعت في ذهن القارئ بأن شاعرنا هو شاعر الأسي المظلم

وفي هذا بعض الصدق، ولكنه ليس الصدق كله. فظلام الأسي في شعر القاسم تبدّده إشراقتان، إشراقة الأسي في بعض شعره، وإشراقة الأمل في بعضه الآخر. وبين الإشراقتين ارتباط

وأنا أستميحك بأن أبدأ بالدعابة، لأن نقادنا لا يوفونها حقها من العناية. المترمتون في عالمنا، ولهم جمهورهم من المغفلين يزعمونها محلة بالوقار، في حين يخالها الأجلاف متنافية مع الجدد. والحق غير هذا. فالدعابة شيء، والهزل الماجن شيء آخر. الدعابة تزين الفنان كما تزين الحكيم، وفيها يشتركان. وقد روى الناقد الإنجليزي «لوكاس» أن عالماً بريطانياً في القرن الثامن عشر، كان يتبسط يوماً مع تلاميذه ويمازحهم، إذ

لمح ثقيلًا يقبل عليهم. فقال الأستاذ العالم لمريديه: «إني أرى الأحمق قادم إلينا، هلم بنا نتجهم!»! والحق أن اصطناع الجد والتجهم لا يجوز إلا مع الحمقى، وإن هو لازم أحداً من الناس في كل المواقف فلك أن تشك في حسن عقله أو حُسن نيته. وإشراقه الدعابة في شعر القاسم تجدها حتى في لجة الأسي، وهي تدكرنا بلمسة الدعابة لدى المرحوم الزبيري، أصدق شعراء اليمن طويّة وأجود من قال الشعر في عصره. ودعابة القاسم، كدعابة الزبيري ليست قهقهة تنفر، ولكنها ابتسامة من لم يفقد مع الأسي حلمه. فهو قد يسخر، ولكنها سخرية من يرى أن تعثر الضيق انفراج. مثل هذه الابتسامة تراها في هجاء القاسم للأمة التي راحت تبيع وتبيع لا تلوي على شيء: باعت الدم والسيف والخيل والشعر، وما لبثت أن تمت لو كان بمقدورها أن تبيع النسائم العطرة، ثم إذا بهذه الأمة وهي تجد نفسها صفر اليدين، لم يبقَ لديها ما تتاجر به لأنها قد باعت كرامتها أيضاً. في هذه السخرية صدق مؤسف. ولكنها أيضاً مصحوبة بلمسة من الدعابة المقرونة بالأمل، وكأن الشاعر يقول تعالوا نبداً من جديد ولنتفادى طرق التجارة الخاسرة، وكأنه يهيب بالأمة ألا تمضي في الظلام، وأن يدرك أبنائها غيهم فينتبهوا

وأنا أجد في دعابة القاسم ربح اليمن. ففي السخرية الجاحظية التي تصوّر بخل البائع وحمقه ما ينقلني نقلاً إلى مجالس الأنس في صنعاء وتعز، حيث يجتمع القوم ساعة القيلولة يلوكون القات والسياسة، فتشخذ النشوة أذهانهم كما تشخذ ألسنتهم، فلا يتكون صنماً للباطل، إلا أزهقوه، ولا رمزاً للجهل أو البخل إلا سحقوه، ولا حاكماً خائناً أو قاضياً ظالماً إلا نال من أحكامهم الغيائية ما يشاؤون. ولعلمهم من هذه

الناحية، وهذه الناحية وحدها، أقرب أمم الأرض شبيهاً بأمة الإنجليز، المغرمين بوضع الأشياء في نسب متواضعة وتحجيمها إلى قدر معقول، فلا يطبقون بين أبناء ملتهم من يبغي أو يطغى، وإن رأوا للغرور أو السخف «بالوناً» قد انتفخ فإنهم ما يزالون به إلى أن ينسفوه بهجاء لا يكف وسخرية لا تلين أما إشراقة الأمل، فقد تجدها حتى في أشد أشعاره تصويراً للأسى. فأنت في أول المرثية التي كتبها عن المسماري تسمع بكاء المصلين ونعي الأذان في مساجد الأمة المهزومة:

الخيوْلُ المطهَّماتُ سبايا      فذليلٌ ببذلها المهرجانُ

والسيوفُ التي استضاءَ بها التنا      ريحُ أزرى بها الوريثُ الجبانُ

ثم ما يلبث شعاع الأمل أن يدخل القصيدة من نوافذ التاريخ المليء بالمواعظ والعبر الواعدة بأن الأمة لا بد لها يوماً، قَرَبَ العهد أو بَعُدَ، من أن تغير على أعدائها:

قُلْ لمصرٍ مهما غَلَوُا في أذاها      في يدِ اللهِ عَرَضُ مصرَ مصانُ

لن ينالَ العدوُّ منها ولن يُخْذَ      مَدَ أشواقَ روحِها الطغيانُ

إلى أن يأتي بالحكم التاريخي الفاصل:

ذهبَ الظالمونَ.. والنيلُ باقٍ      وحديثُ النبيِّ والقرآنُ

وكذا الأمر في قصيدة «صدي الرحيل»، إذ يطلب الشاعر من أخيه «العطار» أن يكفكف الدمع ويطلب أجر المصطرِبِ ويتذاكر معه سيرة الرسول والوعد الحق بأن ينصر الله الصابرين:

شعابُ مكةَ قد ضاقت بسيدِها يوماً.. وهاجرَ عنها سيدُ الأممِ

أيحسب المؤمنون العُرَّ أنهم سيُتركون بلا كيدٍ ولا نقمٍ

عقبى الثبات انتصارٌ لا نشكُّ به وعدٌ من الله لا ضعفٌ من الخلمِ

وهكذا ترى أن أسى الأحداث لا ينسي القاسم صبر المؤمن أو دعاية الحكيم. وتقديرنا كل هذه السمات في شعر القاسم يزيدنا عتياً عليه ولوماً له على تقصير لا بد من إثباته هنا. فقد كنت أتحدث مؤخراً مع صديقنا الأديب السوري الدكتور أحمد بسام الساعي عن الدراسة التي يعدّها الآن عن المعادلة الشعرية عند المتنبي، وساق الحديث بعضه بعضاً، ورجاني أن أعيه ديوان القاسم الوزير، فلما عرف أن القاسم لم يول هذا الموضوع اهتماماً بعد، عتب واستغرب. وقال: إن العدل يقتضي جمع كل قصائده من مواطنها في المجلات والصحف الأدبية وضمها في ديوان يرجع إليه القارئ والدارس.

ونحن إذ نضم صوتنا إلى صوت الدكتور البسام، لا يمنعنا هذا العتب من أن نقرّ بأن أشعار القاسم الوزير، أو قُلْ صور ذهنه وألحان نفسه، تدل على فنان مطبوع، وحسي أن أكون قد شوّقت القارئ والناقد العربي على ملاحظته والاستزادة منه. ولعلّ فيما أوردناه هنا ما يطمئن شعراء العربية في مصر والشام وغيرها أن الشعر في الجزيرة لا يزال بخير، وأن لهم في اليمن إخوة وزملاء يواكبونهم ويحاورون.

القاسم بن علي الوزير

دراسات في

فكره وشعره

في ذاكرة الأعلام

## قراءة أولى في ديوان الشاعر قاسم بن علي الوزير

### د. عبد العزيز المقالح

ينتمي الشاعر المفكر قاسم بن علي الوزير إلى أسرة عريقة من العلماء والشعراء والشهداء، ويضم في ديوانه الصادر أخيراً عن (دار المناهل ٢٠١١م) ثلاث مجموعات شعرية هي: 'الشوق يا صنعاء' و'أزهار الأبحار' و'لم تشرق الشمس بعد'. وكان قاسم قد بدأ كتابة قصائده في أوائل خمسينيات القرن الماضي في السجن، وهو فتى في الرابعة عشرة من العمر، بعد أن اقتيد كل أفراد عائلته من الذكور شيوخاً وكهولاً وأطفالاً إلى السجن في أعقاب فشل الثورة الدستورية ١٩٤٨م، وقد قُطعت رؤوس بعض أفراد هذه العائلة وفي مقدمتهم والد الشاعر رئيس مجلس وزراء الثورة علي بن عبد الله الوزير. أما من نجا من أفراد العائلة فلم يسلم من عذاب السجن وترويعاته.

حدث ذلك في تراجيديا بالغة المأساوية والقسوة قلماً تحدث إلّا نادراً وفي بعض العصور المظلمة. وفي السجن تبلورت موهبة الفتى الذي صار شاباً يقرأ كل ما يتسلل إلى السجن من كتب قديمة أو حديثة. وكانت لجبران خليل جبران، كما لمصطفى صادق الرافعي، مكانة خاصة لدى كثير من السجناء الذين وجدوا في

أدب الأول ابعاد ثورة رومانسية تعكس أشجانهم وحينهم إلى التغيير ومقاومة تكسير الأجنحة، كما وجدوا في أدب الثاني جنوحاً باذخاً نحو الحلم والخيال.

وأزعم أنني اقتربت بعد تلك السنوات الفاجعة- من تجربة سجناء ١٩٤٨م، والتقيت بعضهم وأفدت من معارفهم العلمية والأدبية، وجمعتني بالشاعر قاسم الوزير صداقة عميقة قادت إلى لقاءات لا حصر لها بعد أن خرج من السجن، وتولى شؤون العائلة في صنعاء نيابة عنم تبقى من أشقائه الذين كانت قد استقبلتهم المنافي. وفي فترة قصيرة أستطاع تكوين مكتبة صغيرة لكنها نوعية وعامرة بالأهم من عيون الأدب القديم والحديث كانت منهلاً سائغاً لعشاق الأدب وشُداته. ولا يمكن استيعاب تجربة هذا الشاعر المفكر دون أن يلّم القارئ بتلك الملامح من حياته العاصفة التي جعلت منه شاعراً، وفتحت أمام مخيلته عوالم الإبداع، ودفعت به إلى الإنصات لصوت الشعر وهو يتموج في كل ما يحيط به من معالم الحياة وصور الناس والأشياء. ومن المهم أن أشير هنا إلى أن معظم ما كان يكتبه من شعر إن لم يكن كله يبقى مطويّاً في صدره، أو في الأوراق، في انتظار الزمن الذي يسمح بالنشر، وهي مشكلة عانى منها كثير من معاصريه.

وفي هذا السياق، يبدو لي أن ما ورثناه نحن اليمنيين وما اكتسبناه أيضاً من المخزون الهائل من الأحزان والذكريات المؤلمة كفيفيل بأن يجعلنا نبذع أعظم الملاحم الشعرية، وأحياناً يبدو الحال على العكس من ذلك، حين يلفني شعور بالدهشة والغرابة وأنا أتساءل كيف استطاع الشعراء اليمنيون المعاصرون أن يكتبوا -في مناخ مغلق- شعراً

ينتمي إلى هذا العصر ويواكب ما أبدعه أشقاؤهم في مشرق الوطن العربي ومغربه؟ فقد كان الإنسان في هذا البلد البائس، وفي أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته خاصة، يعيش في أسوأ واقع يمكن لعقل إنسان معاصر أن يتخيله. ومع ذلك كان لليمن شعراء كبار تمكنوا من تحدي ظروفهم القاسية ومن أن يتغلبوا - وذلك هو الأهم - على انقطاع التواصل مع أشقائهم من مبدعي الوطن العربي. ولم يكن الشاعر قاسم الوزير سوى واحد من المبدعين الذين تحدّوا واقعهم الخاص والعام، واثبتوا وجودهم بجدارة في عالم الشعر العربي المعاصر.

ولا ريب أن المجموعات الشعرية الثلاث التي يضمها الديوان، الصادر في نهاية العام ٢٠١١م، تشكل انجازاً شعرياً جديراً بالاحتفاء، وبأن نستقبلها بفرح غامر بعد سنوات الانتظار الطويل الذي كاد يتلاشى بعد أن تحول اهتمام صاحبها إلى الكتابات الفكرية؛ يمنحها وقته، ويسعى إلى توسيع آفاقها لتتلاءم مع الواقع العربي والإنساني الراهن، وفي وقت يبدو فيه الشعر وقد تضاعف دوره حتى وهو يخوض - دون هوادة - معركته مع القضايا السياسية والاجتماعية التي تشابكت وتعقدت وصارت واقعاً مفزعاً ومثيراً للقلق بعد عقود من الأمل والثورات والمحاولات الدؤوبة في اختراق جدار التخلف السميكة لاختصار الطريق والعبور السريع نحو المستقبل بأقل قدر من التضحيات والخسائر. ومع ذلك يبقى للشعر حضوره الفاعل واقتداره المكين على فتح نوافذ الروح نحو آفاق أبعد مما تستطيع البندقية أن تفعله أو تراهن عليه: البندقية لا الكتاب.. باتت طريق الضارين إلى الغد المجهول في وحل التراب الخوذة السوداء تملّي ما تشاء وعندها فصل الخطاب ولا سؤال ولا جواب والشعر؟

حتى الشعر يكتب بالحراب وأنت من باب لباب قد طال بحثك.. عمّ تبحث تحت  
أقدام الذئاب؟ من ذا سيقرأك الغداة.. ومن يدارسك الكتاب؟ إن الجريمة وحدها يا  
صاحبي بطل المدينة!

في قراءة كهذه، محدودة المساحة والغاية، لا يمكن الوقوف على الملامح الدلالية  
والفنية في ديوان يضم أغلب المنجز الشعري للمفكر والشاعر قاسم بن علي الوزير.  
وكنت في بحث لي بعنوان 'الشعر العربي الحديث بين التلقائية والتصنع'، وهو بحث  
مطول لم ينشر بعد على أمل أن يتطور إلى كتاب، قد ألمحت إلى تجربة شاعرنا  
بوصفه واحداً من الشعراء الذين وجدت أنهم يذهبون في كتابة الشعر مذهب  
التلقائية، فلا تشعر وأنت تقرأ قصيدة من قصائده في أي موضوع كان، بأنه يتكلف  
الصياغة أو التقاط المعنى، وإنما تراه ينساق مع سجيته مسترسلاً كالنهر الذي يجري  
في واد منبسط شديد الاستواء، أو كأنه يكتب، أو بمعنى آخر، ينقل شعره من ألواح  
مرسومة أمامه بوضوح خال من التعقيد والغموض. وهذا في رأي النقد الصحيح هو  
الشعر الحقيقي الذي يخلو مما كان يشكو منه القدماء، وما يزال يشكو منه  
المعاصرون تحت عيبي (التوعر والتعقيد)، وهذان العيبان لا يرافقان الشاعر الموهوب  
بل الشاعر المتصنع الذي يظل يكد ذهنه إلى أن يصل إلى ما يعده معنى طريفاً أو  
جملة مثيرة أو صورة بارعة. ومن الأمثلة التي اخترتها لشاعرنا في بحثي المشار إليه هذا  
المقطع من قصيدة حوارية طويلة تدور بين مواطن وطاغية: وأنا يا مولاي أضحك  
منك ومن نفسي أبكي منك على نفسي أبكي منك عليك... أعرف أنك لا

تبصر إلاّ نفسك لا تعشق إلاّ نفسك كم أرجو أن تخرج منها مرة... فتراها من خارجها إذ ذاك ستعرف عنها ما يعرفه كل الناس!

ولعل أبرز ما يميز شعر قاسم الوزير ذلك الحزن الشفيف العميق الذي يكسو قصائده الأقدم منها كتابة والأحدث، وفي المقدمة التي كتبها للديوان الدكتور راشد المبارك إشارة تقول: 'أن أول ما يستوقف القارئ في قصائد الشاعر هو طابع الحزن الذي يسربله شعره لأنه إلى الحزن صار ومن الحزن انبعث' وكأن الدكتور المبارك تحاشى الحديث عن أسباب ذلك الحزن الذي يعود إلى ما تجرّعه الشاعر من مصاعب في طفولته وشبابه، وما عاناه من السجن والبعد عن الأهل والوطن، وكلها كافية لتجعل من شعره دموعاً تسيل على الورق بغزارة، وليس في ذلك عيب، بل العيب أن يكتب المبدع مشاعره ويكابد الصمت وهو القادر على البوح والإفشاء. ويمكن القول في هذا الصدد بأن قصائد الحزن في الشعر العربي هي أجمل ما ينطوي عليه هذا الشعر من أشجان المبدعين وتأوهاتهم، وما استوعبته حياتهم من وحشة الطريق ومكابدة الأحداث. إنه حزن يستحضر في صوره ومجازاته حزن الإنسان أين ما كان وحيثما يكون، وليس حزناً ذاتياً مفرداً في الذاتية، وإنما يختزن في تجربته الشفافة التجربة الإنسانية في خصوصيتها وعموميتها: أحمل في قلبي أحزان جميع المحزونين أطعم أشعاري منها لكن.. لا أطعم منها الأشعار! أشعاري؟ ما أتفه أن يحكي الإنسان إذا كان خريز الأنهار ورفيف الأشجار وحديث الأزهار ترنح أعطاف الليل بتسايح الأسحار..

هذا زمن الطبل الأجوف والقلب الأجوف والعقل الأجوف والشبق المهتاج إلى الدم. وواضح أن شاعرنا لم يشغل نفسه بالاصطفاف إلى تيار شعري معين، من التيارات التي استحدثتها التحولات الأخيرة في مجرى التطور، بل ترك موهبته على سجيتها تختار الشكل الذي تفرضه اللحظة الشعرية، فهو يكتب القصيدة البيتية (العمودية) كما يكتبها المجددون من أنصار هذا الشكل الشعري، ويكتب قصيدة النفعيلة على غرار ما يكتبها رواد هذا النوع من الكتابة التي تجمع بين الوزن والتحرر من السيطرة البيتية، وقد تسوقه موهبته إلى تجاوز هذين الشكلين غير معني بالاشتباك الذي يحدث بين أصحاب هذا الاتجاه أو ذاك، فالشعر عنده هو الشعر في أي شكل وفي أية بنية. وهذا مقطع من إحدى عمودياته: لسنا في هذه القصيدة وأمثالها أمام قوالب لغوية تتصيد المعاني والصور العابرة، بل نحن أمام نهر يتدفق وهو يعرف مجراه، ولا يغفل عما يشكّله جريانه المتدفق من جماليات اللغة والمعنى، ومن الصور اللمّاحة الشفيفة التي تأسر قلب قارئها وتحمله يرفق إلى حيث تريد ويريد، وفي شعر يعكس ثقافة تراثية باذخة، وثقافة حديثة ذات ملامسات إنسانية وفنية تنطلق من نسغ رومانسي شفاف وقدرات تخيلية لا تتعد عن الواقع ومعاركه ومعاناته ورؤاه.

## قطوفٌ من حقول العقل والقلب..

### إلى روم فقيده الفكر والأدب قاسم بن علي الوزير

#### عبد العزيز البغدادي

ما إن بدأت بقراءة كتاب “حرثٌ في حقول المعرفة”، للفقيه العزيز العلامة والمفكر والأديب والشاعر قاسم بن علي الوزير، والذي تضمن عددًا من المحاضرات ألقى معظمها في مركز الحوار العربي بمنطقة واشنطن الكبرى بالولايات المتحدة، ما إن بدأت بقراءة هذا الكتاب، وكذا مجموعاته الشعرية الثلاث التي جُمعت في كتاب بعنوان “مجموعات شعرية”، والكتابان أهدانيهما صديقي العزيز الناقد والأديب الموسوعي الأستاذ حسن حمود الدولة، رعاه الله، مع بداية القراءة غمرني شعور بحالة انتشاء وجدانية غريبة شدتني بقوة للغوص في بحار فكر الفقيه العميقة، شعرت كأنني أعرف الفقيه منذ زمن طويل!

ومثل هذا الشعور لعله من أسرار خلود الروح بعد فناء الجسد الذي اعتبره كثير من المبدعين كفنًا أو سجنًا للروح يتحرر منه بالموت، وهذا ما جعل كثيرًا من الشعراء يكرسون تأملاتهم الشعرية في تخليد هذه المعاني، وعلى سبيل المثال ها هو الشاعر والفنان التشكيلي والأديب المبدع عبد اللطيف محمد إسماعيل الربيع، يتخذ “الكفن... الجسد!” عنوانًا لأحد ديوانيه المنشورين، سماهما كتابين، وهما: كتاب

“الكفن... الجسد!”، وكتاب “فازعة”، معتبراً الموت في إحدى قصائده خلاصاً من الكفن، وفي قصيدة أخرى تنبأ بموته المبكر والمفاجئ، بقوله:

في مواجهة مقبرة خزيمة يوجد شرطي      يؤشر للناس باتجاه المقبرة

يوم الجمعة أغتسل من نفسي      وحسب الموعد غادر دنيانا يوم الجمعة

ولأن الشاعر والمفكر والفنان المبدع في أي فن، إنما هو شمعة تحركها وتحرقها حروف ولون وصوت إبداعه، يستوي أن يكون شعراً أو نثرًا أو أية صورة أو مادة إبداعية أو نتاج فكري أو فني أو أدبي طالما كان نابغاً من وجدانه الصادق الحي الصافي

ومن الواضح أن كلمة وجدان ذات البعد الروحي مشتقة من الوجود المادي الذي لا ينفصل، وهما وجودان لا ينفصلان، إلا أن الوجود الفكري والمعنوي الذي يطلق عليه البعض الوجدان المعبر عن هذا الوجود، أقدر على البقاء والخلود!

ويبدو أن عزوف فقيدنا العزيز خالد الذكر قاسم بن علي الوزير، عن نشر أعماله حسب تأكيد شقيقه الأستاذ المفكر والشاعر الجليل زيد بن علي الوزير، أطال الله عمره، في مقدمته لكتاب “حرث في حقول المعرفة”، يأتي من منطلق فلسفي أساسه الإيمان بأن الله المحبوب الأعلى -بلغت الصوفية- هو الأقدر على حفظ أعمال المخلصين، وجعل الابتلاء بالحياة محكوماً بخفايا ألطافه التي تبقى سرّاً من أسرار التواصل بين الخالق والمخلوق

كثير ممن يسوّدون البياض بترهات يزعمون أنها من جواهر الشعر والفكر والأدب، ويتباهون بكثرة مطبوعاتهم التي تنتهي إلى العدم بموت كاتبها لأنها ولدت ميتة، أما الشعر والكلمات المضيفة الصادقة فإنها تولد مرتين؛ مرة يوم “إبداعها”، وأخرى يوم رحيل مبدعها، وتبقى في حالة ولادة تتجدد بتجدد من يجيد القراءة!

هذه الكلمات أو القطوف السريعة سأخصصها أولاً للإطلال على بعض إضاءات الفقيه الفكرية، وستقتصر على مجرد إيماءة إلى قبس من فكره حول محاولة الإجابة على النهضة -السؤال الأزلي الذي شغله كما شغل ويشغل كل حري بحث عن إجابة فيها معنى الحرية، وفي الجزء الثاني قراءة عابرة وسريعة لقصيدة “صنعاء” أولى قصائد مجموعات الفقيه الشعرية، وهي قراءة متواضعة أسهم بها في إحياء ذكرى الأربعين لرحيل هذا المفكر والشاعر المبدع، أما الدراسة النقدية الجادة والمتعمقة فأتركها للمتخصصين من النقاد والشعراء، لأنها جديرة بالدراسات النقدية التي تليق بمكانتها في ساحة الفكر والإبداع العربي

### أولاً/ قطوف من حقول المعرفة:

في توطئته لكتابه الفكري “حرث في حقول المعرفة”، خلص فقيدها إلى أن قضية النهضة ما تزال سؤالاً قائماً، وأن من أسباب فشل الرد على هذا السؤال كما قال: هو استمرار المراوحة في محاولة الإجابة عبر “الانطلاق من ذات الواقع الذي أدت إفرازاته إلى الخروج أصلاً من الحضارة والوقوع في بؤرة التخلف، ولا يمكن ذلك إلا

بتصفية ينابيع تلك الإفرازات في الفكر والنفس والثقافة، وذلك بتصفية المفاهيم على المستويات التاريخية النفسية والاجتماعية

وهذا محل اهتمام وملاحظة كثير من المفكرين الذين قرأوا وبقروا واقع الأمة العربية والإسلامية المحزن

أما المنهج والطريق الذي ركز عليه الفقيه من خلال رؤيته وتصوره للمنطلق الذي يتوجب الانطلاق منه لتصفية هذه المفاهيم، فإنه يرى أنه مازال كامناً في ذات "العقيدة التي أرست الدفعة الأولى الرائعة، وصنعت الحضارة"، مشيراً إلى مقولة الإمام مالك: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها

ولا يزال كثير من المفكرين يبحثون عن إجابة لأسئلة أخرى تبدد حيرتهم حول تاريخ وواقع أسباب الصراعات البينية، واستهداف العقول النيرة على مدى التاريخ الذي يرويه الرواة عن الإسلام والمسلمين، وأسباب ما وصلوا إليه من ضعف وهوان. من هذه الأسئلة الحائرة المحيرة: متى صلح أول الأمة؟ وكيف؟!

إنني أظن أن محاولة الإجابة على هذين السؤالين تمر عبر الإقرار بأن نظرية الإمام مالك المشار إليها، مثلها مثل كثير من النظريات، ما تزال محل خلاف، على الأقل من خلال ما توجهه من ضرورة تأمل المسار السياسي للأمة، وقراءة سلوك وممارسات الإمبراطوريات التي حكمت باسم الإسلام، وآخرها الإمبراطورية العثمانية، والانتقامات المتبادلة بين الأمويين والعباسيين وغيرهما من الإمبراطوريات التي نشأت باسم الإسلام، والتي يتوجب تحليل ومعرفة أسباب وعوامل سقوطها جميعاً، وآخرها

ما سميت الخلافة العثمانية، أقصد الأسباب الداخلية والخارجية، وعدم القدرة على تجاوز ما وصلت إليه الأمة حتى الآن من انيارات متلاحقة ومستمرة دون أن نلحظ بصيص ضوء يشير إلى نهاية للنفق!

وفي تصوري أن الأسباب والعوامل كثيرة، منها سببان رئيسيان:

الأول: إشكالية عدم وجود نظرية متكاملة لنظام الحكم في الإسلام تحدد كيفية الوصول إلى الحكم واختيار الحاكم ومدة ولايته، وفي ظل هذا الفراغ النظري أصبح الاستيلاء على السلطة سواء باسم الخلافة أو الإمامة، مسألة مشروعة، وكذلك البيعة التي هي أقرب إلى الانتخاب، وفي اعتقادي أن الإشارات القرآنية إلى مبدأي الحرية والشورى بمعناها العام تؤكد هذا المنحى، وإذا ما حاولنا تفسير ما سميناه الفراغ قد نصل إلى نتيجة تأويل إيجابي لعدم وجود نصوص قطعية الدلالة على تنظيم كيفية الوصول إلى السلطة وممارستها وتداولها، والتفسير والتأويل المقبول عقلاً هو أن الله عز وجل قد ترك موضوع السلطة الدنيوية للبشر، أي للاجتهاد الذي يخضع لظروف الزمان والمكان

أما السبب الثاني: فهو أن المسار التاريخي والصراع على السلطة، ورغم ما عانته الأمة عبر أربعة عشر قرناً، مازال بشكل أو بآخر أسير النظرية الضيقة لكيفية معالجة هذه الإشكالية المحكومة بعقدة القرشية والهاشمية التي ما تزال المهيمنة على حركات وتحركات جناحي مكون الأمة (السنة والشيعة) في شكل الخلافة والولاية، بل إن التعامل مع هذه العقدة بات في حاضره أشنع من ماضيه، إذ أصبح التظريف

السياسي أداة خطيرة للتلاعب بالأمة من خارجها، مع تزايد ارتقاء كثير من الأنظمة العربية والإسلامية في أحضان الكولونيالية الغربية منذ سقوط الإمبراطورية العثمانية، أي منذ تحول الدين بشكل واضح إلى دين موظف لدى الحكام المستلبين بمختلف أنظمتهم!

هذا المنطلق الضيق أصبح العائق الأكبر من عوائق تكبيل فكر الأمة وعرقلة انطلاقها نحو المشاركة الفاعلة في مسار التاريخ الإنساني المعاصر، حيث صارت في موقع الصفر أو ما تحت الصفر بأصفار بين الأمم كما جاء في قصيدة الفقيده "صنعاء"، ولا يزال هذا حال إسهامها فيما وصل إليه العالم اليوم من تقدم مذهل في مختلف المجالات رغم ما يوجه إلى بعض السياسات المتحكمة فيه من انتقادات وملاحظات

ولا شك أن هذه المسألة لم تغب عن فقيدهنا المفكر والشاعر المبدع الراحل قاسم بن علي الوزير سلام الله على روحه، وهذا ما يتجلى مما يرمي إليه من الدعوة للخروج من أسباب التخلف القائمة، وهو على وعي تام بأن عمر هذا الصراع البليد على السلطة قد طال أمده واتسع مداه في الساحة العربية والإسلامية، بل هو في ازدياد مضطرب منذ الفتنة الكبرى التي بدأت بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلامة ذلك أن الخلفاء الراشدين جميعاً قد قضوا إما بالاغتيال المباشر أو بواسطة السم، وهذا مؤشر خطير يضع أكثر من علامة استفهام حول بداية الصراع على السلطة في الإسلام، والتساؤل المستمر حول متى ينتهي هذا الصراع!

ومعلوم أن ارتباط الوصول إلى السلطة في غالبية مراحل التاريخ الإسلامي باستخدام القوة انتهاك واضح وصريح للشرعية المفترضة القائمة على مبدأي الشورى والحرية، وهما مبدآن يرى بعض المفكرين أنهما الأساس الذي يقربهما من الديمقراطية الكاملة بمفهومها الغربي الحديث، وليس ديمقراطية "أهل الحل والعقد" كما ترى النظرة الاستبدادية للحكم، وهم أصحاب الرأي الآخر الذين يفسرون عمومية الضمير (هم) في آية: "وأمرهم شورى بينهم"، بأنه إشارة إلى الشعب في الإقليم أو الأمة في الدولة الاتحادية المتخيلة المقسمة إلى أقاليم متفق عليها بناءً على حوار حقيقي وبناء يقوده عقل واعٍ، وتستوعبه عقول حرة وفاعلة، ولعل هذا مما يعزز أسباب ترك موضوع السلطة للبشر، وعدم وجود نصوص صريحة وواضحة حول نظرية الحكم والسلطة في الإسلام، أي أن إعمال العقل هو الرسالة التي ما يزال الإنسان بعيداً بعد المشرقين عن القيام بها!

المفكرون العرب والمسلمون الذين شغلوا حيزاً فيما مضى من التاريخ، وفيما هو حاضر، يبدو كما لو أنهم يخبطون خبط عشواء، ويحترثون في البحر، مع الأسف الشديد

ومن الحقائق الجليلة أو التي يجب أن تتجلى، أن الحراثة في حقول المعرفة بالتمسك التام بجرية الرأي والبحث العلمي، وإعطائهما الحيز الواجب كطريق لمحاولة الإجابة على "سؤال النهضة" الذي حاول فقيدنا الجليل الإجابة عليه، وأن الحرث الجاد في هذه الحقول لا بد أن يثمر توجهاً فعلياً نحو توسيع مجالات البحث العلمي مع

الضمان لأن يكون مبنياً على الحرية والاحترام الجاد للرأي المخالف كي يؤتي أكله ذات يوم، لأن لغة وحدة الوجود في كل المجالات تُلغي كل الحواجز والجدران والأنفاق المظلمة التي تمنع الحضارة الإنسانية من تلاقح المعارف والعقول التي تحملها، وبناء جسور تربط كل الرؤى والحضارات والأفكار تمهيداً لميلاد كيان إنساني موحد عصي على التدجين والارتهان والتبعية المحجفة الظالمة لعوامل القوة والجبروت بكل الأيديولوجيات التي تخدمها وتسيرها، والدروشة والكهنوت معاً أيًا كانت منطلقاتها!

### إشارة إلى أهمية التفكير في إعادة الاعتبار لثورة ١٩٤٨ أو ثورة الدستور

بهذا الأفق، ومن هذا المنطلق، ورغم كل الملاحظات على هذه المحطة من محطات الحلم بثورة حقيقية حلم اليمنيون ببدء أولى خطواتهم نحو إثبات وجودهم في العصر من خلال ميثاق ودستور ثورة ١٩٤٨ ليس فقط ليكونوا جزءاً من الأمة العربية والإسلامية، بل أن يستوعبوا لغة العصر استيعاباً حقيقياً وفاعلاً يترجم العلاقة بين السلطة والشعب، باعتبار الدستور عقدًا اجتماعيًا ومنطلقًا للتغيير يقفز باليمن لتكون موطن أول تجربة ثورية في المنطقة قائمة على رؤية نظرية واضحة أو من أوائلها، حيث اتفق الأحرار في “ثورة الدستور” سلفاً على دستورها قبل قيامها، ما يعني وجود عقول يمنية واعية أدركت في وقت مبكر أهمية الدستور كعقد اجتماعي مُلزم لبناء الدولة تسير عليه سلطاتها باعتبار السلطة ملك الشعب، وقد اعتبرنا هذه الخطوة مبكرة ومدهشة بالنظر لحالة الانغلاق التي كانت تعيشها اليمن، بل لا يزال

مفهوم العقد الاجتماعي غائبًا عن الوعي نظرًا لحالة الاستلاب والغربة في حياته السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وهذا كافٍ لاعتبارها ثورة لو أنها نجحت، لأن مقياس نجاح أية ثورة برأبي هو أن تقوم بالتغيير نحو الأفضل، وبما أنها قد فشلت فإنها بالتأكيد في عداد محاولات الثورة، ولو وجدت العقول التي تتجاوز عقدة البدء من الصفر في كل تاريخ الحركة الوطنية اليمنية، لكنا درسنا كل التجارب الثورية والوطنية بهدف الخروج من دوامة العنف والبدء الحقيقي في بناء دولة وطنية بعيدًا عن العرقية والطائفية وكل أشكال التعصب المريض!

لقد أثبتت كثير من العقول والأفهام في آخر محطات الحلم بالثورة أنها ما تزال تائهة وبعيدة عن محاولة البحث عن فهم سليم لعوامل الثورة بمفهومها العلمي القانوني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي الملتزم بكون التغيير السلمي يجب أن يكون أساس الثورة التي رفعت شعار السلمية في ساحات ما عُرف بثورات الربيع العربي، وقد خاب مسعاها في الوصول إلى غاية التغيير السلمي المطلوب، فأصبحت ثورة بالمقدمات السلمية الواعية، أما النتيجة المعبرة عن أهدافها النظرية فلم تتحقق

وأهم الأسباب في اعتقادي عدم الاتفاق على قيادة ثورية موحدة قادرة على استيعاب الأهداف التي طُرحت في الساحات بشكل متناثر هُنا وهناك، وجمع وحدة تطلعات الثوار للسير باتجاه وحدة حقيقية، وكان من الضروري والمهم دراسة الثورات الإنسانية السلمية التي حصدت نتائج مهمة في طريق النجاح وتحقيق النتائج، مثل الثورة السلمية ضد الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، والثورة الصينية،

والكوبية، وغيرها من الثورات التي بدأت خطوات ملموسة وفاعلة في البناء المؤسسي والتطور العلمي والمعرفي الذي حول أهداف الثورة إلى فعل بهدف تحقيق مكاسب مهمة في مجال الحريات وحقوق الإنسان والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها

إن من علامات النظرة إلى الثورة كبناء قابل للنمو والبقاء وقادر على الإجابة على سؤال “النهضة” استجابة لطموح الفقيه الذي عاشت الأمة في وعيه ووجدانه، إدراك الارتباط الوثيق بين الحرية والعدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان، فهذا المكون يشكل الجزء الأهم في جسد الثورة لمعناها العلمي والسلمي المنشود والقابل للنمو واتساع الآفاق

وقد أشار في محاضراته بعنوان “أولويات للنهضة العربية”، إلى أن “مشاكلنا لا تخصي، وهي مع ذلك تتراكم مع الأيام، فكل يوم يمر يضع مشاكله الجديدة، ولأننا لا نحلها فإننا نعجز بالضرورة عن مواجهة المشاكل المستجدة، بل إننا نعجز عن تفهمها، فضلاً عن حلها كما تقتضيه طبيعة الأشياء وبما تقتضيه

إن بقاء أية مشكلة بدون حل لا يعني توقفها عند حد كونها مشكلة فحسب، بل إنها من حيث الكم تتوالد، وبذلك تزداد تعدداً، وهي من حيث الكيف تتعقد، وبذلك تزداد تنوعاً

إن المشكلة الواحدة إذا ما تُركت تُصبح مشاكل شتى متعددة الأشكال والألوان، تتوغل في مختلف مجالات حياتنا، وتتحكم في أوجه نشاطنا، وكل استمرار في هذا

الاتجاه يعني ابتعادًا متواصلًا عن مواجهة المشكلة الأم، أي ابتعادًا عن الرحم التي تتناسل منها جميع المشاكل

وبسبب ذلك تتجه جهودنا إلى متفرعات المشكلة، وتشتبك مع بنياتها في معركة خاسرة عوضًا عن مواجهة المشكلة ذاتها، تلك المشكلة التي تبقى -بسبب ذلك- قابضة في أعماق النفوس، وفي مسارب العقول، ومن ثم في صميم الواقع تمدنا بمدد لا ينقطع من المشاكل المتفرعة عنها.. إنها تظل خميرة تفسد حتى تفكيرنا، ومن ثم تحبط جميع جهودنا وأعمالنا

وتأييدًا لهذه النظرية، وانطلاقًا منها، فإن أم المشاكل الكبرى في الوطن العربي والأمة الإسلامية كما يبدو هي كما أسلفنا مشكلة الخلاف أو بالأحرى الصراع المزمع على السلطة، وعدم فتح الآفاق لمناقشة جادة لكيفية حسم العلاقة بين السلطة الزمنية والدينية بالإقرار بعدم جواز اعتبار آراء الفقهاء دينًا مقدسًا يتم التمسك حوله كل بحسب مذهبه واعتقاده الذي يخدم مصالحه، بمعنى آخر تغليب دين الفقهاء على دين الله، فدين الله ترك هذا الأمر للاجتهاد وفق المصلحة العامة، وليس خدمة لأية أيديولوجية أو مصالح ذاتية

إن هذه المشكلة ما تزال، وفي اعتقادي أنها ستظل مصدر الصراعات والفتن، وتسيء بشكل قاطع وواضح للدين، وجرحًا مفتوحًا يجعل كثيرًا من الحقوق والحريات عرضة للانتهاك لما يؤدي إليه من علاقة ملتبسة بين العلم والدين، فالعلم مجاله مختلف عن الدين، وله نظرياته وأدواته، وللدين كروية كونية وليس أيديولوجية

سياسية محصورة، تصوراته وقواعده الفقهية، وبذلك وحسب فهمي لما ذهب إليه فقيدنا، فإن محاولة الإجابة على سؤال النهضة إنما “يبدأ بانعتاقنا من ريقة الأسر خلف قضبان نتائج المشكلة إلى مواجهة المشكلة ذاتها. بمعنى آخر تحرير “عقولنا” من أسرها وصولاً إلى تحرير إرادتنا واستجماع قوانا وإيقاظ أو استرجاع وعينا أو استعادته..

إن هذا يعني -بالضرورة- تجاوز كل النقائص التي تعوقنا. وفي طليعتها تلك الشوائب النفسية التي هي أحد -وربما أهم- مسببات فقداننا الوعي والإرادة، ومن ثم وقوعنا ضحايا المشكلات الفرعية. والتغيير النفسي عملية تتطلب ظروفها وشروطها. وذلك مرهون بما يتوجب من تغيير لطريقة تفكيرنا، ومن تصحيح لمنظومة “أفكارنا”، وذلك يقتضي انتفاضة ثقافية حقيقية على الذات، ينفذ بها الإنسان عن كاهله أثقاله التي تعوقه عن النهوض، ويطلق إرادته من أغلال العجز والخوف والاستسلام والتواكل والذل والجهالة بحيث يصبح قادراً على أن يرغب نفسه على الإقلاع عن المألوف الراكد والانقياد لعقله الذي سيقوده -بالإيمان والإرادة والعلم- نحو الآفاق الجديدة!

وأعتقد أنه لا توجد مشكلة في حياة هذه الأمة ينطبق عليها هذا التوصيف، أكبر من مشكلة استمرار الصراع الدموي على السلطة طوال أربعة عشر قرناً، وما زالت المشكلة تنمو!

## ثانياً/ شاعرٌ وقصيدة

أما الشاعر فهو فقيدنا العزيز الشاعر الجميل والمفكر العبقرى الذي أسفت أشد الأسف وأنا أقرأ بعض نتاجه الشعري والفكري كي أقتبس من نفحاته هذه الحروف للمشاركة بها في أربعينية رحيله، أسفت مرتين؛ مرة على فقدانه قبل التعرف على شخصه الكريم مباشرة، وأخرى لكوني لم أقرأ له قبل هذه المناسبة الحزينة، وهذه من عاداتنا نحن العرب الذين ندعي نحن اليمينيين بأننا أصلهم، من عاداتنا أن نتذكر جواهر عقولنا بعد فقدان أصحابها، فتأسى عليهم ونكيل لهم المديح ونسكب أغزر عبارات الحزن وتبجيلهم وتكريمهم بعد فقدانهم، وهي عادة أضاعت وأهدرت منا الكثير من الفرص والطاقات التي تجلوها الحركة النقدية فتظهر حُسنها ومواطن قوتها وضعفها في حياة أصحابها لتعظم الفائدة وتنمو القدرات، وهذه غاية النقد البناء الذي هو إبداع في الإبداع ونسيج داخل نسيج الحروف والكلمات ضمن صناعة الكلمات الآتية من عالم الوجدان الجامع بين العقل والعاطفة سواء في ثنايا الشعر أو الكتابة الفكرية والنقدية والأدبية والسياسية

مزيجها جميعاً له نكهة الشعر والفكر والفلسفة كما هو حال شاعرنا الذي أطلت علينا روحه فلمحناها من خلال قصيدة “صنعاء” أولى قصائد المجموعة الأولى من مجموعته الشعرية البديعة: (الشوق يا صنعاء. أزهار الأحزان. لم تشرق الشمس بعد) هذه المجموعة التي رأت النور بمبادرة من إخوانه وأصدقائه الكرام الذين أصروا على نشرها رغم عزوفه عن النشر، وهذا العزوف ذكرني بشاعرين عظيمين من شعراء

الوطنية اليمنية، هما الشاعران الفقيدان الكريمان يوسف محمد الشحاري ويحيى علي  
البشاري، تغشاهما الله بواسع رحمته

وأسباب العزوف عديدة تختلف من شاعر ومفكر لآخر، ولكن ما يجمعهم هو  
تواضعهم الجم

أول قصيدة من قصائد المجموعة الأولى التي حملت اسم “الشوق يا صنعاء”،  
عنوانها كما أسلفنا “صنعاء”، بدأها بتساؤلات مشتاق شوق شاعر عذب العبارة  
صادق الحنين يملؤه العشق ويعانقه الوله:

صنعاء هي في الندي السمع أسماؤ  
كما مضى من ليالينا وسماؤ

وهل رخي العشايا مثل عاداتها  
شعر وأشواق عُشاق وأسراؤ

صنعاء هذه الفاتنة ليست مجرد مدينة، إنها خزان ذكريات كل الشعراء العشاق  
الذين عبروا عن عشقهم، والذين رحلوا وفي ثنايا وجدانياتهم من عبق الحروف  
والكلمات المفعمة بالجمال ما لم تتمكن أرواحهم من البوح به ليفدي الحسان:

تفدي الحسان الجميلات التي التحفت  
بمآزر... الليل أرواخ وأبصار

صنعاء مفذنة المدن الساحرة التي رغم ما قيل فيها وعنهما من الشعر والنثر، ستبقى  
اسماً يفوق كل معاني الحب والغزل، لأن لاسمها سرّاً من أسرار الحب المعجز،  
فالإعجاز كما يكون للعقل، يكون كذلك للقلب، بينهما رابط المعنى والمبنى، ولها

وقع في الأذن وإيقاع في القلب، بل إن إعجاز العقول لا يجوز، وهو للقلوب أدهى وأقرب!

توهجت بالشهي العذب واختبأت خلف الدخان وثُفشي سرها الناؤ

صنعاء أغفت على الأزمان فتننتها فدونها من وراء السور أسوارؤ

صنعاء ليست مجرد مدينة من الأحجار والياجور والطين ومواد البناء المختلفة، إنها شُيدت من أرواح ملائكية ومعانٍ عصية على الفهم والإدراك الحسي، من رآها عشقها، ومن عاش فيها أصبحت جزءًا من كيانه، تسكنه دون أن يدري، وتبقى في مسكنها أينما حل الساكن أو رحل، هكذا رآها شاعرنا، وهكذا عاشها وعاشته، فوجد جدرانها ومآذنها تتكلم فتجيد الحديث أكثر من كثير من المحسوسين بين البشر. إنها شاعرة تسكن قلب الشاعر، ومتحدثة لبقة تبادل من يحس بها الأحاسيس!

إذا مشيت على حصبائها همست شعراً وباح بسر الشوق قيثارؤ

وغازلتك من الجدران خاجلةً من الثقوب قديماتٌ وأحجارؤ

وأسمعتك السواني لحنٌ متعبه تشكوه للمرنع المهجور آبارؤ

هكذا تحس أن الشاعر هو المغني، لأنه من يبدع جسد الأغنية ويمنحها روحها، وهو المتكلم والمخاطب، والشعر الذي يصدق عليه معنى الشعر ومبناه يولد في لحظة

يصعب إن لم يستحيل الفصل فيها بين الروح والجسد، بين الحضور والغياب،  
الغموض والتجلي.

هذا في المعنى العام، أما في الخاص فنقصد به فقيدنا الشاعر المقيم بمعشوقته صنعاء،  
وقد أجاد البوح بمكنون مشاعره قبل أن تغادر روحه (الجسد... الكفن) حسب  
فقيدنا الربيع

نعم تمكن فقيدنا من البوح بما أراد، فكان حضوره البهي ممثلاً في كلماته العذبة  
المملوءة حكمة وفلسفة ورؤى صادقة نقية، ومن خلال صورته الشعرية أنعش الأفئدة  
وأراح النفوس

كل أجزاء صنعاء وتفصيلها تخاطب العشاق من داخل الوجدان وعبر العيون،  
وبقدر حفظها لهذه العلاقة الوجدانية مع من يحبها، فإنها لا تنسى ما فعل الطغاة  
بها عبر العصور، فهم أعداؤها وأعداء المدنية والتمدن دائماً، ولهذا فعلاقتهم بصنعاء  
وكل المدن سيئة، ذاكرتها مليئة بسوأهم كما وصفهم الشاعر:

أما الطغاة فتاريخٌ تردده  
شوامخٌ من روابيها وأغوارُ

مرؤوا عليها فجرخٌ غير منطمسٍ  
على الجبين وفي العينين أكدارُ

ومع كل ذلك، فإن صنعاء الحرية قد خيبت ظن الطغاة، لتؤكد لهم أنها لا تصلح  
لهم مرعىً أو مقامًا آمنًا:

ظنوا العرين لهم مرعى وما لبثوا  
إلا قليلاً ومات الحزبي والعار

وهم على الغي ما ترجى إفاقتهم كأن بعضهم للبعض تكرأ

حقاً إن نهاية الظلم والطغيان حقيقة دامغة طال الزمن أم قصر، لأن حياة الطغاة تتغذى بالكذب والنفاق وعمرهما قصير مهما طال!

قصيدة صنعاء متسع من الحكمة والعشق وبلغة شعرية فيها من الرشاقة والجمال ما يدهش بل يشمل، ينقل إلى عوالم عديدة، وشملت القصيدة إشارات مهمة عن تجربة خاصة للشاعر:

آهًا لمضطربٍ في الأرض يقذفه للشرق نوؤٌ ونحو الغرب إعصارُ

قد لوححت قبلات الشمس جبهته وفي مفارقه للثلج آثارُ

على المنافي من آثاره أثرٌ وفيه منهن مثل الجرح تذكأرُ

بلوتها وبلتني واكتشفت بها ما غيبته عن الأبصار أستأرُ

خلائق الناس كم غطت مبادها موشيات من الدعوى وأطمازُ

من كل زارع زهر في أسرته وفي سريرته للغدر أوكأرُ

يسعى إليك وحلوٌ قوله فإذا ما غبت عنه فأنيابُ وأظفارُ

نعم بضاعة النفاق والمنافقين وعديمي الوفاء رائجة، وأكثرها رواجًا من يمارسون السياسة، لأنهم يعتقدون أو يريدون الاعتقاد بأن السياسة يجب أن تخلو من المبادئ كليًا، فهم يرونها فن الكذب، وليس فن الممكن كما هو المفترض، وبين السياسة

والاجتماع وكل المجالات روابط لا تنفصم عراها، وأقبح وجوه السياسة من يمارسها باسم الدين، فيستبيح المحرمات في كل المجالات بحجة ضرورات السياسة، ليثبت أنه سياسي، فيدعي أنه مؤمن قولاً، ويتولى الشيطان فعلاً، ويتاجر بالدين واستخدام القرآن بصورة فاضحة ومقززة!

يعطر القول بالذكر الحكيم فإن أفضى إلى الفعل فالشيطان أمارئ

من مشترين ضاللاً بالهدى لهم دعوى.. كأنهم لله أصهار!

صورة عجيبة تكشف فداحة دعاوى المدعين الذين يلوثون الدين بالسياسة، ولا يدركون خطورة هذا النهج على الدين وعلى الإنسان الذي وجد الدين الحق لخدمته، وأصبح إخراج هذه الحكمة من بين ركام التراث شبه مستحيل في ظل حالة الغيوبة الحاكمة المتحكمة:

يستكثرون من الدعوى وحظهم من الحقيقة دون الصفر أصفار

لم يمنحوا الله شيئاً في ضمائرهم وباسمه في حقوق الخلق تجار

ويسرد الشاعر بعض النماذج المسيئة لكل القيم من السلاطين والمتاجرين بالمبادئ والقيم الدينية والأخلاقية، فيقول:

ظنوا الزمان لهم ملكاً وما علموا أن الحضارة أطوار وأدوار

الأرض لم يرثوها عن أوائلهم وتعرف الأرض أن الناس أحرار

إنه عمق الشعور بالحرية، وعلاقة الشاعر الأصيل بالحرية ليست كعلاقة بقية الناس، فمن المستحيل الفصل بين الشاعر وبين الحرية كياناً وتعريفًا وعرفاً وحياة، الحرية قيمة الشاعر ونبض حياة حروفه وقلبه في آن

يقول الشاعر نزار قباني رحمة الله:

أنا حريتي فإن سلبوها      تسقط الأرض كلها والسماء

والشاعر يضع تصويره للإنسان الحر وللإسلام الذي يعطي للحرية مقامها الذي هو من مقامه، حيث يستخدم ضمير المتكلم للجمع المسلم، فينقل صورة الإنسان مطلق الإنسان الشامخ الذي أقام العدل كركن غير قابل للانهيار:

بنا نعم! رفَع الإنسان هامته      وقام للعدل ركن ليس ينهارُ

ويقدم الشاعر الشريعة في تصويره كنظام لكل البشر، مقرونًا بالحرية والاختيار، وليس بالغضب، ادعاء الاصطفاء والإكراه والظلم؛ نظام لا يقبل العنصرية، ويقاومها كي يسع الدين الدنيا بالحب والعدل والحرية والبناء:

شريعة تسع الدنيا مناهجها      في الحرب والسلم تمدن وإعمارُ

لكن قومًا على أعقابها انقلبت      فهم على الحق لا للحق أنصارُ

هم الخلائف للمستعمرين على      جهالة تؤثر الخنا وتختارُ

على مخازيهم ناموا وما حلموا      إلا بأنهم في الليل أقمارُ

ومبلغ العلم فيهم أن عالمهم      قدم وأوفاهم بالعهد غدارُ

نشكو على القدس غلواء اليهود      وفي ديارنا اليوم أشباه وأنظارُ

ويقدم الشاعر واجب الاستغفار للشعر من عمل مزوري التاريخ وعشاق الرذائل  
الماسة بحرية الإنسان وكرامته وحياته:

أستغفر الشعر، ذنب أن يدنسه      في مهجع القوم عند الفجر زواؤُ

ويسأل ليالي الحمى عن أي خبر جديد يأتي من الشرق يفرح به الشاعر متأوهاً في  
منفاه في الغرب:

إيها ليالي الحمى هل من مشرقةٍ      لنازح في أقاصي الغرب أخبارُ

القصيدة كما رأينا مزيج من الفلسفة والحكمة والسياسة والعشق المعطر بالحنين  
لصنعاء المدينة كرمز للوطن وكمعشوقة لها روحها، وفيها بوح عذب لعلاقة خاصة  
وحميمية جداً ربطت فقيدنا الشاعر والمفكر بتفاصيل الزمان والمكان والإنسان،  
وموقف حُر من الظلم والاستبداد، ورؤية واضحة للعلاقة بين الدين والوطن التي  
يفسدها الطغاة في كل الأزمان وبمختلف الصور والوسائل والأساليب، ولكنه  
بعبقريته الشعرية وذائقته الرفيعة عراها جميعاً

## القاسم بن علي الوزير.. والحِث في حقول المعرفة

### أ. عبد الباري طاهر

حِث في حقول المعرفة كتابٌ للمفكر النهضوي والفقيد الكبير القاسم بن علي الوزير. صدر الكتاب ١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م، عن مركز التراث والبحوث اليمني. يقع الكتاب متوسط الحجم في ١٦٧ صفحة

عن الكتاب والكاتب مقدمة الأستاذ زيد بن علي الوزير-مركز التراث والبحوث اليمني. يتحدث الأستاذ زيد عن شقيقه ورفيق الطريق الذي سارا فيه منذ سقوط الثورة الدستورية ١٩٤٨، في ظروف غاية في القسوة والشقاء، مؤكداً على حمل إرث الثورة العظيم، ونشدان الخير والتطور والحكم الرشيد. تغمره العاطفة عن شقيقه ورفيق الطريق، ويرى أن شخصية القاسم تقوم على نواحٍ متعددة ومبدعة؛ فهو شاعر كبير إلى جانب ذلك أديب بليغ الأسلوب، ناصع الكلمة، عميق الفكرة، لديه القدرة العلمية المتمكنة، والتجرد التام من أي انتماء إلا للعلم وحده كرؤية زيد. له اطلاع على تاريخ الفكر الإسلامي والتراث العربي والمعاصر، وعلى تاريخ الفكر الغربي، وعلى مسار الفكر الماركسي، ويتناول بتوسع قراءته للفكر المعتزلي والفلسفي والأدبي والتاريخي.

ويدلل بنماذج وشخصيات عديدة، ثم يتناول الكتاب فيشهد له بحسن التحليل، وإنارة الطريق، كما يشير الأستاذ زيد إلى تناول الكتاب ما بعد انخيار الإمبراطورية العثمانية، ويرى أن الإمبراطورية قد مثلت سوراً قوياً حامياً للشرق المسلم من طوفان الاحتلال الغربي، ويندد محملاً بمكائد الغرب، وطمس الهوية، واستغلال تخلف العالم الإسلامي. ويبيدي تعاطفه مع السلطان عبد الحميد-آخر سلاطين آل عثمان. والأستاذ زيد - كمفكر إسلامي - تغمره العاطفة في الترحم على السلطان عبد الحميد؛ وهو ما فعل حينذاك حافظ إبراهيم في قصدته الشهيرة: ”لا رعى الله عهدها من جدود..“، وإن شابها الانتقاد

يتناول الأستاذ زيد موقف جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومقاومة المفاهيم الغربية الغامضة لما يسميها المفاهيم الإسلامية البناء، وإن موقفها قد أضعف الهجمة الغربية، لكنه لم يتغلب عليها

ويرى أن إدراك طبيعة المكائد الغربية ضروري لفهم شروط النهضة، ويرى أن الكتاب يمثل المخرج من الإبهام والغموض، وإن المضامين الواضحة خير معين في استجلاء الطريق

ويضيف: “ومن هنا فإني لوائح أن ما قدمه القاسم بن علي الوزير في كتابه هذا وفيما يكتب من فهم دقيق للمفاهيم، وعمق الأفكار، سيجد فيه الناس منارةً تهدي للخروج من غياهب مفاهيم منحرفة تعتقت، ومفاهيم أخرى غامضة أضرت

ويشير إلى أن القاسم لا يجب أن ينشر كتابًا ولا شعرًا، وأن الأستاذ إبراهيم بن علي الوزير حاول مرات عديدة إقناعه بطبع أبحاثه وبعض أشعاره الكثيرة، وكم حاول أصدقاء معجبون به إقناعه بذلك، فلم يُصغِ إليهم، وقد قام إبراهيم بتجميع ما توفر له وطباعته.

في حين قام زيد بتجميع ما أمكن جمعه من أوراق هنا وهناك للطبع في مركز التراث والأبحاث، وذلكم بالتعاون مع صديقه المفكر العربي صبحي غندور، رئيس مركز الحوار العربي

### توطئة

في التوطئة المُقدِّمة من المؤلف، يتناول الأستاذ قاسم المواضيع المتعددة في الكتاب الصغير حجمًا كبير معنيٍّ وأهميةً ودلالةً، والعميق فكرًا ورؤىً؛ فهي كما يدون مجموعة محاضرات وأحاديث متفرقة مستقلة بعضها عن بعض تدور حول موضوع واحد هو النهضة. وحقًا، فإن المحاضرات والمواضيع الأخرى مكرسة من الألف إلى الياء لقضية النهضة، ومسار الحداثة والتنوير والبناء في الوطن العربي كله. وبالفعل، فإن تنوع علوم ومعارف الأستاذ قاسم كثيرة ومتعدد، وتدلل على مقدرة كبيرة ومهارة وإتقان.

سؤال النهضة - كما يرى - لا يزال قائمًا، ويشير إلى أنه ألقى معظم المحاضرات في مركز الحوار العربي في واشنطن الكبرى، وقد ألقى نظرة جديدة بغية موازنة ذاتية،

فلم يرَ تعديلاً أو تغييراً في موقف؛ فهي وجهة فكرية قائمة على منهج استفاد من

مصادر علم، وكما يختم: فلا جرم تظل صالحة للنظر ما احتاج الواقع للتغيير

في حديثه عن الموقف من الحضارة الغربية، يعرف مصطلحين. والباحث دقيق جداً

في تحديد المصطلحات، وتوضيح المفاهيم والإحاطة بالقضايا. المصطلحان:

الحضارة، والغرب

يختار تعريفاً جامعاً لعالم اجتماع هو مالك بن نبي، إذ يقول: “إنها مجموعة الشروط

الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادهِ من كل طور

من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو

ذاك من أطواره. فالمدرسة، والمعمل، والمستشفى، ونظام شبكات المواصلات والأمن

في جميع صورهِ عبر سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعها أشكالا

مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي

إليه.”

ويرى مالك بن نبي أن جوهر الحضارة تُعطي مضمراً في ذاتية أي مجتمع تحمل إرادته

معطياتها الأصلية وفقاً لاطراد تاريخي متواصل، أما من الناحية المادية البحتة، فإن

الحضارة هي التي تصنع منتجاتها، وليس العكس

ويتناول مصطلح «الغرب والشرق»، ويرى أن المصطلح قد بلغ الأوج مع المرحلة

الاستعمارية. فقد أصبح الشرق يعني المنطقة المستعمرة، والغرب المنطقة المستعمرة،

وهناك أكثر من شرق وأكثر من غرب

ثم يدرس متسائلاً: ما المقصود بالحضارة الغربية؟ ويرى عدم إمكانية الإجابة إذا حصرت في مكان جغرافي معين منعزل أو جنس معين، ويرجح البحث عنها في المجال الحيوي مع توينبي أو مع ابن نبي على مستوى حضارة ضمن نظريته في النشاط المشترك. فالغرب فكرة أو منطقة فكر، أو هو - كما يقول جارودي - ليس تعريفاً جغرافياً، ولكنه مجموعة من القيم والقوى والثقافات والماديات التي تميزه كحضارة متقدمة في وقتنا الراهن

ويرى الباحث أنه إذا ما توفرت الشروط والظروف في مجتمع ما يكون ميلاد الحضارة، وتكون انبثاقاً من رحم ثقافة سابقة. والحضارات ليست دوائر مغلقة، وما لدى الغرب من أفكار ومبادئ ونظم وفنون وماديات، فله جذور في حضارات أخرى

ويدرس الروابط والتدخل بين الحضارات المختلفة وعلاقتها ببعضها، ويرى أن جوهر الحضارة واحد من حيث هي تفاعل الإنسان مع الزمن ومع الطبيعة. ويقراً الخصوصية في كل حضارة: طبيعة القيم، والفلسفة، والمعتقدات، والعادات، ولكي نحدد موقفاً من الحضارة لا بد أن نفهمها وفلسفتها على وجه أخص. ويرى أن الإنسان يبدع الحضارة؛ فالحضارة إرث إنساني مشترك تقوم على أساس التكامل

ويدرس الحالة التي وصلت إليها الحضارة الغربية، وما نجم عن الثورة البرجوازية والصناعية وحاجتها إلى المواد الأولية والأسواق، ونشأة ظاهرة الاستعمار وصولاً إلى

أعلى مراحل الرأسمالية وما صاحبها من تبرير للتفوق العرقي يحق له أن يستعمر، وأن يستعبد مستشهداً بمقولات رينان الاستعمارية والعنصرية

ويجزم أن الموقف ليس ضد الغرب، ولا ضد الحضارة الغربية؛ وإنما ضد الاستعمار وفلسفته المنحلة، ومبرراته اللاأخلاقية. وهو الموقف الذي أدركه باكراً ماركس وأنجلز ولينين، ولاحقاً جارودي وإدوارد سعيد وأمين معلوف وآخرون كُثُر

وتصفية الاستعمار - كروية الباحث - لا تعني الوجود العسكري ومؤسساته فقط، فالأهم تصفية ثقافته، وفلسفته، ومنطقه.

ويرى -محققاً- أن جمال الدين الأفغاني وتلاميذه قد قبلوا الحضارة، ورفضوا الاستعمار وهيمنة الغرب. ويقدم قراءة متميزة لفكر وفلسفة الاستعمار ومآسيه في البلدان المستعمرة

### كتاب حرث في حقول المعرفة

في محاضرة بعنوان: «مراجعات وتأملات فكرية في مفترق قرنين»، يتحدث عن العدوان الصهيوني البربري على غزة، والمواقف المخزية للأنظمة العربية طبعاً، وغيليان واحتجاجات الشعوب الأخرى

يدرس نشأة الإمبراطوريات في القرن السابع عشر، وسيطرة الإمبراطورية البريطانية ثم الفرنسية، وبداية المرحلة الاستعمارية. ثم يأتي على تناول الإمبراطورية العثمانية، وتبني الجامعة الإسلامية، والسعي الروسي القيصري للسيطرة على شعوب آسيا

الوسطى، واحتلال بريطانيا لمصر، واستعمار الهند، والقضاء على الدولة الإسلامية فيها، واحتلال فرنسا لمعظم الشمال الإفريقي، واستباحتها مع بريطانيا للقارة الإفريقية، وتطويقهما عقر دار الإمبراطورية العثمانية في الجزيرة والعراق وبلاد الشام. ويقراً ثورة الاتحاد والترقي، واعتمادها النهج الطوراني متمثلة النهج الأوروبي الاستعماري

ويتناول المهجمة الاستعمارية الأوروبية بأبعادها السياسية والاقتصادية والعسكرية والفكرية

يدرس عميقاً حركة الإصلاح كتجديد فكري وإصلاح ديني وتحديث علمي وسياسي واجتماعي، هزت المجتمعات الشرقية كلها، وليس العالم الإسلامي والعربي وحدها. ويتتبع الخط البياني لهذه الحركة بدءاً من عدو الاستعمار الأول جمال الدين الأفغاني، ويتناول فكرة الجامعة الإسلامية، ومحاولات الإصلاحات التي قام بها عبد الحميد

ويقرأ بالتفصيل جهود التجديد والإصلاح، ويحددها بإحياء العلم، والقطيعة مع عصور الانحطاط، وفتح باب الاجتهاد

ويتناول موقف القوى التقليدية في مناهضة التجديد الفكري، والتغيير السياسي، والإصلاح الديني والإحياء العلمي، والتمسك بالتقاليد الموروثة

ويأتي على ذكر التيار الثالث (تيار التغريب)، ويربط هذا التيار محققاً بهيمنة الاستعمار، وبسط نفوذه على الكره الأرضية

ويرى أن للتقليد معسكرين: ماضوي، وتقليد أوروبي. ويربط نشأة العروبة بسقوط عبد الحميد خان، وبروز تيار الاتحاد والترقي

وهذا الأمر بحاجة إلى مراجعة ونقاش؛ فالصراع بين العروبة، والاحتلال العثماني، يعود إلى مراحل مبكرة، وصراع المصريين والشوام والمغرب العربي أيضاً سابق، كما أن قيام الإمام القاسم بن محمد يعود إلى مطلع القرن التاسع الهجري

ويصنف الأفكار الرئيسية مطلع العام ١٩٠٩ في الآتي: فكرة الجامعة الإسلامية، فكرة التجديد والتحديث والإصلاح، فكرة التقليد والجمود، فكرة التغريب، فكرة العروبة. ويدرك المفكر والباحث أن قضية الدسترة كانت سائدة في تركيا وإيران، وقامت ثورة المشروطية في إيران عام ١٩٠٦، وفي تركيا ١٩١١، يشدد على العام ١٩٠٩ كبداية لمشروع النهضة

ويرى أن نهاية الحرب العالمية الثانية كانت سقوط الخلافة العثمانية، وغياب فكرة الجامعة الإسلامية، وسقوط مشروع الاستقلال العربي والدولة الواحدة، وانكشاف خديعة الثورة العربية الكبرى، وتقاسم الدولتين المنتصرتين: بريطانيا وفرنسا، العراق وبلاد الشام وفلسطين، وتحويل المنطقة العربية إلى دويلات مستعمرة، وتجزئته إلى أوصال. وقد استمرت فكرة التجديد والإصلاح في كل قطر تواجهها القوى التقليدية

ويرى -مخفًا- أن فكرة التجديد والإصلاح قد أنتجت حركات التحرر من الاستعمار، وانطلاق دعوات التغيير الاجتماعي، وارتفاع وتيرة الحريات السياسية.

وفي الجانب السياسي الديمقراطي تكونت مؤسسات المجتمع المدني من أحزاب وجمعيات ومؤسسات وهيئات ونقابات وحرية صحافة واسعة، وقيام حكومات منتخبة، ومجالس نيابية فاعلة على نواقصها، وانتشار الوعي والتعليم.

ويتناول الجانب الاقتصادي، وتنامي دعوة الوحدة العربية، وشهدت الثقافة نهضة حقيقية في مجالات متعددة

ويتناول باهتمام غرس إسرائيل في قلب الأمة العربية، و ١٩٤٨ التي شهدت على فساد الأنظمة، وسيطرة الاستعمار

وقد تتابعت الانقلابات العسكرية بدعوى القضاء على الفساد، وتحقيق التقدم، والقضاء على التجزئة، وتحرير الأرض المغتصبة

كان التحرر والوحدة والحرية والعدل والتقدم ملء القلوب والعقول؛ فإن رفع الحكام الجدد لراياتها قد دفع هذه الجماهير المشتعلة حماساً لها للتهليل لهم، والالتفاف حولهم

ضحت الأمة بحريتها وحقوقها على أمل التحرير، ولكن الحكام العسكريين صادروا الحريات المكفولة؛ فلا صوت يعلو فوق صوت المعركة، وأبقت الصناعات والمؤسسات الاقتصادية لتمويل الحكم، وضمن استمراره بالسيطرة

ويتدارك: صحيح أن التعليم قد ازداد، وخارطة التعليم اتسعت، ولكن العلم ذاته قد انكمش

اعتبر الانقلابات قطعاً للتطور الطبيعي. ويضيف: سواء صدقت نظرية المؤامرة أم كذبت؛ فإن النتيجة خدمت العدو، ولم تخدم الأمة.

ومع الاحترام لرأيه؛ فإن الأنظمة الملكية كانت متواطئة وعميلة، ولكن ذلك لا يعفي الأنظمة القومية من مسؤولية الهزيمة وتبعاتها القائمة حتى اليوم

وانتقد غياب الحرية والديمقراطية ومؤسسات المتجمع المدني وتغول أجهزة المخابرات وعسكرة الحياة، وإليها ينسب الباحث محققاً إفراغ المشروع الوحدوي من محتواه، وتغييب الإرادة الشعبية، وحصر الحكم في الحاكم، ويعتبر هزيمة ١٩٦٧ نتيجة متوقعة، بل لازمة لذلك

ثم يتناول -محققاً- إدانة القبول بالأمر الواقع، واتفاقيات كامب ديفيد حتى كارثة أوسلو التي حولت المقاوم إلى مفاوض يقدم التنازل بعد الآخر دون أن يكسب شيئاً؛ ليصل إلى استسلام النظام العربي، وسيادة روح القطرية، وغياب الحرية أيضاً؛ مما أدى إلى تغول الدكتاتورية في أبشع صورها، وزاد الاعتماد على أجهزة المخابرات، وقمع الحريات وإخماد العقول

ويرى -محققاً- أن الهزيمة أيقظت روح الأمة، واستنفرت قواها، وازدهرت ثقافة المقاومة ابتداءً من رفض نتائج الهزيمة، ورفع اللاءات الثلاث في الخرطوم، وانطلاق المقاومة الفلسطينية

ويوجه سهام النقد للانكسار الذي ساد عقب كامب ديفيد واتفاقات أوسلو؛ وهو ما يتفق فيه مع المفكر الكبير إدوارد سعيد في كتابيه: «أوسلو سلام بلا أرض»، و«غزة وأريحا سلام أمريكي

في مبحث بعنوان «أولويات للنهضة العربية»، يتناول المشكلات القائمة، ومخاطر التجاهل؛ داعياً إلى انتفاضة ثقافية حقيقية على الذات. ويشخص حالة التدهور في المجتمعات، وغياب مقومات الحضارة. ويقرأ مرحلة البناء الحضاري (النهضة)

ويرى أن العنف ليس شرطاً، ولا هو حتمي. وأنه يسوغ حين يكون ضرورةً تساوي ضرورة القوة لتنفيذ القانون من أجل العدل.

ويرى أن الهدم قد طال زمنياً، وألغت القوة دور العدل. ويرى أن الهدم منصب على الأشكال وإبدالها بأشكال أخرى، وأن العنف قد استخدم بإسرافٍ غير مبرر

ويقرأ أن الجهل أعتى مشاكل التخلف، ويرى الخطأ الأخطر في معالجة الجهل بوسائل الجهل نفسه

يلح الباحث كثيراً في مباحثه على الثقافة بالمعنى العام من حيث هي منظومة القيم والمعتقدات والمعارف، ويتوسع في أثر الثقافة وأهميتها في التنمية والإصلاح والبناء الحضاري، ويقسم العمل من أجل النهضة إلى مرحلتين:

الأولى: إيقاظ الإيجابية والكرامة في الإنسان بإعطائه الحرية الكاملة، وإطلاقها فكرياً، واجتماعياً، وسياسياً

وثانيهما: كما يرى إيجاد الإنسان القادر على استخدام مواهبه المنبثقة عن العقيدة، واستخدام طاقاته المنبثقة عن الحرية

ويدعو إلى الابتعاد عن التناقض في التوازن بين الحرية والتنمية وحقوق الإنسان والوحدة أو العدالة الاجتماعية والحريات السياسية. ويرى أن التوازن الجديد مرتبط بالثقافة

وفي ندوة بعنوان: «أفكار حول الإصلاح والتغيير في البلاد العربية»، يتساءل: هل نحن بحاجة إلى إصلاح؟ وأي إصلاح هذا الذي نريده؟ وما هي مجالاته من ناحية، وطبيعته من ناحية أخرى؟

ويواصل التساؤل عن الإصلاح: هل يمكن الإصلاح بدون تغيير؟ وما طبيعة هذا التغيير؟ وما هي مواقعه المنشودة؟ وما هي وسائله؟

ويرى أهمية وضرورة الإصلاح، ويلاحظ تفاوت الإجابات بين علماء الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة. ويرجح الباحث البدء بالثقافة؛ فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، وهي شرط لحركة المجتمع وتحرره من حالة الجمود، ويرى محققاً: إننا بحاجة إلى إصلاح شامل، ونهضة تتجدد بها قوانا، وتكفل بها حقوق إنسانيتنا، وتطلق بها قدراتنا وتزدهر إبداعاتنا

ويتناول الأولوية الحاسمة، ومن يقوم بذلك، ويضع ثلاث فرضيات:

الدول، ويستبعد هذا الافتراض لثلاثة أسباب:

الأول: قُطرية الدولة القائمة على التجزئة المفروضة بالقوة، وإرادة استعمارية؛ فلا علاقة لها بالمجتمع

الثاني: قوى المجتمع، ويستبعد هذا الفرض مستشهداً بثورات التسعينيات في غير بلد أما الثالث: فالفرض من الخارج. ويدلل على استبعاده بأنموذج العراق. ويقدم قراءة استثنائية لأنموذج اليابان؛ وهي التجربة التي لها وضعها وظروفها الخاصة

ويعود ليؤكد على المواطن ممثلاً في تنظيماته الاجتماعية ومؤسساته المدنية، باعتباره صاحب القرار، ومصدر القوة، وإخراجه من ضيق الانتماءات العشائرية والطائفية والأسرية والمناطقية، إلى القضية الجامعة، وتكوين رأي عام يتحرك مع التاريخ. ويدعو إلى مشروع نضوي تتفق عليه القوى والرواد

ويرى أن الحركات الكبرى في التاريخ قد تبدأ من شخص. ويدلل بالدعوة الإسلامية، والماركسية، والنازية، والفاشية، وبدعوة جمال الدين الأفغاني، ودعوة الاستقلال في الهند، والدسترة في إيران، والرابطة القلمية في المهجر، ودعوات الحركات السلمية. ويؤكد على أهمية المنطقة التي انطلقت منها الديانات والرسالات الكبرى، والفلسفات والحضارات، وتصطرح عليها وحوها القوى الكبرى؛ فدعوات الإصلاح والتغيير لا بد أن تأخذ الخلفية والإرث بعين الاعتبار

تحت عنوان «عوامل الانقسام والتجزئة في الأمة والمجتمع»، ألقى محاضرة بمركز الحوار العربي، يشير فيها إلى ملاحظتين:

الأولى: إن المجتمع قد استطاع الحفاظ على وحدة الأمة عبر تاريخها الطويل رغم التمزق، وتفرقتها ثقافيًا واجتماعيًا إلى فرق ومذاهب نتيجة التطورات المختلفة الثانية: إن الحال قد استمر على المنوال نفسه (وحدة الأمة) حتى الحرب الكونية الأولى وما تلاها، ونشأة الدولة القطرية على أسس جغرافية فرضها المستعمر. ويربط الأسباب بالنتائج في دراسة الانقسام

المشهد الأول حروب الردة، ويعتبرها ثورة مضادة في محاولة لنسف المجتمع الجديد بتقويض وحدته. فليست انقسامًا داخل المجتمع، وإنما ضد المجتمع. والواقع أن صاحب «الفصل في الملل والنحل» ابن حزم، يقسم أصحاب الردة إلى أقسام:

طائفة: بقيت كما عليه الحال، وهم الجمهور

وطائفة: بقيت على الإسلام، إلا أنهم امتنعوا عن الزكاة، وهم أكثر، ومنهم أهل اليمن الذين يطالبون بأخذ الزكاة من أغنيائهم وردها على فقرائهم

والثالثة: أعلنت الردة كأصحاب مسيلمة وطليحة وسجاح

فكان الخلاف بالأساس حول مورد الزكاة، ولم يكن ردة بحال، ورجح الدكتور أبو بكر السقاف موقف أبي بكر لعلاقة الأمر بمورد الدولة الجديدة، وحسنًا فعل الباحث في تسميتها ثورة مضادة، ولكن التمييز مهم

أما المشهد الثاني فنهاية الخلافة الراشدة، وبداية الملك العضوض، ويعتبره انقسامًا سياسيًا للاستيلاء على الحكم، وإلغاء مبدأ الشورى، وأصبحت القوة للعصية،

وليس للقانون ولا للشريعة، وامتدت القوة إلى كل مناحي الحياة السياسية والشرعية والاقتصادية والاجتماعية، وأفسدت الحياة الأدبية والثقافية والدينية

ويرى المشهد الثالث في استمرار الثورة العباسية بكل تلكم العوامل الموروثة عن الأمويين في استبدال عائلة بعائلة؛ فظهرت فرق جديدة، وبرزت الشعبية والعصبيات المذهبية، وانقسمت الدولة العظمى بقيام الدولة الأموية في الأندلس، وحصل الانقسام الثاني بانفصال الغرب، وقيام الدولة الفاطمية، وتتالي بروز الدويلات والإمارات حتى مجيء المغول

ومع ذلك كله، بقيت الأمة موحدة، والواقع أن التفكك والانقسام قد طال الجسم في تفاصيل تفاصيله، وامتد الانقسام إلى مجمل تفاصيل الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية، خصوصاً في الغزو الصليبي، ولكن تبقى روح الأمة العربية كامنة؛ وهو ما أراد الباحث وأكدته ما تحقق على يد صلاح الدين الأيوبي

ويبدأ الدور الرابع بظهور الإمبراطورية العثمانية، ويربط دورها بالإمبراطورية السابقة (يقصد الأموية والعباسية). والأستاذ هنا يغلب الرابطة الإسلامية. ويرى -محققاً- أنها حمت العالم الإسلامي والعربي من قوى الاستعمار، ويصل الباحث إلى نتيجة صائبة ومهمة؛ وهي العودة بالتمزق والصراعات إلى الاستبداد

ويتناول ما ترتب على الحرب العالمية الأولى من الاستيلاء على تركة الرجل المريض، وكانت أهم هذه التركة الأمة العربية؛ ليقوم المنتصرون الاستعماريون: فرنسا وبريطانيا، بتقاسم الأمة ويدرس عميقاً التفكيك والتمزيق في الوطن العربي

ويدرس أسباب العنف؛ وهو موضوع - كما أشار - يثير حساسية خاصة في هذه الفترة التعيسة. ويرى أن العنف أصبح ذا بعد واحد سياسي، ويعتبره - محققاً - مأساة إنسانية وأخلاقية مروعة. ويتناول العنف والصراع في أوروبا في القرن السابع عشر؛ ملاحظاً أن العنف أضرى وأشرس، وحتى العنف في منطقتنا، وفي العالم، ليس بعيداً عن أياديهم

ويشير إلى أن العنف لم يقتصر على مجتمع دون آخر أو أمة دون أخرى؛ فهو ظاهرة عامة مشتركة. ويقسم العنف إلى: مرفوض، ومقبول أو مبرر، أو مشروع، وعنق مفروض أو مطلوب

جرائر الدكتاتورية العراقية أمودجاً يرى صادقاً أن الإنسانية لم تُمتحن في تاريخها الطويل بشيء كما امتحنت بالدكتاتورية تصيب الفرد والمجتمع ومجمل تفاصيل الحياة صغيرها وكبيرها، وتسرق أشواق المجتمع حيث يستأثر فرد واحد بمصادر القوة، ويقوم بالتصنيفات للأفراد والجماعات؛ فيصبح مركز الحياة، أو بالأحرى الموت

يحتزل الأمة في شخصه، ويلغي إنسانية الإنسان، وتترتب على ذلك نتائج مدمرة، إذ يصبح الأمن هاجس الحاكم المستبد، ويصبح الخوف سمة المحكوم المستضام. تصيب الأفراد الأزمات النفسية، وتدفع المجتمع إلى التراجع، وتنحل القيم الأخلاقية، ويسود التزييف الشامل للوعي، ويصبح المجتمع بؤراً مغلقة على نفسها محقونة بالغضب والحرمان، ويدلل بالصومال في حكم زياد بري. والواقع أن العراق كان الأ نموذج للحالة السائدة في المنطقة كلها.

ويشير إلى وضع العراق قبل الثورة. والمأساة أن الحرب الثلاثينية التي قادتها أمريكا، وشاركت فيها دول عربية، دمرت العراق، ومزقت وحدته الوطنية ونسيجه المجتمعي

«الفقه في غفوة والعقل في إجازة علينا أن نوقظ الإنسان»، تحت هذا العنوان يربط بين الحرية والإبداع؛ محذراً من المس بالمقدسات والذات الإلهية، ولكنه يجزم بأن الرد هو الدحض بالحجة، وليس العقاب. ويتناول قصة سلمان رشدي، وإلحاد ابن الراوندي، كما يتناول في صفحة ٥٨ و ٥٩ الحوار بين إسماعيل أدهم في كتابه «أنا ملحد»، ورد محمد فريد وجدي عليه: «لماذا هو ملحد»، أو رد أحمد زكي أبو شادي: «لماذا أنا مؤمن». ويرى -صادقاً- أن الانتصار لا يكون إلا بالحجة

ويرى -محقاً- أن الانشغال بالقضايا الصغيرة والجزئية يصرف الأنظار عن القضايا الأهم والكبرى. ويشنع على دعاة التكفير والتفسيق؛ مؤكداً أن الإسلام قد جعل التكفير الباطل كفراً، مورداً الآية: “من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

ويأتي على العولمة، ويعتبرها مصطلحاً مطاطاً ومراوفاً؛ عارضاً وجهتي النظر حولها، ولكنه يميل إلى رؤية روجيه جارودي التي يراها أمركة العالم

ويفرق بين العالمية والعولمة. ويرى أن العولمة تنطلق من إرادة الهيمنة السياسية للسيطرة الاقتصادية على الأسواق، والاستحواذ على وسائل الإنتاج المتقدمة والمتطورة، والتحكم في قيمة المصادر الأولية، وتسيد ثقافة واحدة

ويرى أن الشعوب النامية، ومنها شعوبنا، أكثر عرضة وأقل مناعة في مواجهة الهيمنة المتعددة الاشكال

ويرى أن العالم يتجه إلى نوع من التوحد، وأن الخلاف على غايات العولمة ووسائلها وقيمها الأخلاقية، وأن المسلمين يمتلكون الكثير لتزويد العالم بتنويره في هذا السبيل؛ مدلاً بالقيم الإسلامية العظيمة، مشدداً على رابط العولمة بالهيمنة

وفي الختام

في الكتاب ملامح تاريخية سياسية واقتصادية وثقافية غاية في التنوع ووضوح الرؤية وعمقها، وبالأخص قراءته للدولة القطرية، وقيام كيانات شديدة الغنى بالثروات النفطية، ودول غاية في التعاسة والفقير

كما يدرس عميقاً مخاطر الاستبداد والتفكير وقمع الحريات ومخاطر الوجود الصهيوني في فلسطين؛ مديناً بشدة اتفاقات كامب ديفيد

هناك نقاش حول الموقف من الحضارة الغربية كتحية الفقيه والمفكر القاسم بن علي الوزير في نهاية الكتاب

## قاسم بن علي الوزير.. في ثنائية الشعر والفكر

### أ. قادري أحمد حيدر

لم أتعرف شخصياً على الأستاذ قاسم بن علي الوزير، كما أنه لم يسعدني الحظ بقراءته شعرياً وفكرياً قبل رحيله. كنت أسمع عن اسمه من بعيد دون معرفة وإلمام بحيثياته الشعرية والفكرية، أي كشاعر وباحث. ومن خلال رسالة معايدة من الأستاذ زيد بن علي الوزير إليّ، هذا نصها: “نبارك لكم أخي قادري بحلول عيد الفطر المبارك جعله خاتمة عهد حزين وفتحة عهد سعيد يسوده الإخاء ويتم الانتصار على معتدٍ أثيم. ولكم بالذات الصحة والنجاح الموصول. وأرجو دعاءكم لأخي قاسم

ومن هذه المعايدة بدأت بصورة ذاتية وشخصية أقترّب من الاسم، وعرفت مدى سوء الوضع الصحي لشقيقه الأستاذ قاسم، ومدى محبته لأخيه في توسل أو رجاء الدعاء له بالصحة والشفاء. وبعدها بعث إليّ برسالة تحية، هذا نصها: “أهديك كتاب أخي قاسم شفاه الله، لمزيد من المعرفة به، مع تحياته وتحياتي، وإذا تكرمت بالكتابة عنه أكون من الشاكرين. وللأسف، وصلت الرسالة متوافقة مع أيام وفاة خالد ياسين السقاف، الأخ الأكبر لزوجتي، وبعدها مباشرة فقدان أحبائ من الأسرة، ودخولي في متاهة الموت وتداعياته الذاتية. وإلا ما كنت تأخرت في استلام

أجمل هدية، وهي كتاب الأستاذ قاسم بن علي الوزير، ومن هنا القراءة المتأخرة للكتاب بعد أن سبقني الموت إليه، فالموت “نقاد يختار منا الجياد

ومن هنا، هذه التحية المتأخرة، فقد حرمني الموت من تقديم تحيتي له كشاعر ومثقف وباحث يستحق منا الكثير. وأسفي وحزني عظيم أنني لم أتمكن من الكتابة عنه وهو بيننا يصارع تعب الجسد، الذي يتضح من كلمات وعبارات أخيه الأستاذ زيد من أن حالة المرض كانت محنة ذاتية وإنسانية قاسية على جميع أفراد أسرته. وبعد الرحيل الفاجع واتصال الصديق الأستاذ حسن الدولة، بأن هناك عدداً من أعداد مجلة “المسار سيخصص للكتابة عن الفقيد، ومن هذه الخلفية سألت مكتبة مركز الدراسات والبحوث عن أعمال للفقيد، ولم أجد سوى مجموعة أعماله الشعرية مجموعة في ديوان اسمه “مجموعات شعرية، حتى وافاني الصديق الأستاذ الباحث حسن الدولة بالعمل البحثي والفكري الوحيد المجموع له رغباً عنه تحت عنوان حرث في حقول المعرفة. ومن هنا كانت بداية هذه القراءة والكتابة

لقد قضيت مع قاسم بن علي الوزير وقتاً مقتطعاً أو مختطفاً من الزمن، كان يمكن أن يكون زمناً ضائعاً أو مستهلكاً في اللامعنى من الوقت.. وقتاً أضاف إلى معرفتي معرفة بالشخص والإنسان، مع أنني لم ألتقه شخصياً.. وقتاً أثمر معرفة أعمق بالشاعر والناثر والإنسان، تلكم هي ألفة وصدقة المعرفة، فقد خرجت من رحلة البحث والقراءة راجحاً معرفياً وشخصياً وإنسانياً

## الذات والصفة

لن أتحدث عن خلفيته الأسرية بروحية المؤرخ أو المهتم بالتاريخ، فذلك حديث يطول وسينقلنا إلى مجال بحث مختلف عن مناسبة الرحيل وتكريم شخصية ثقافية وإنسانية، أسهم هو في جعل اسمه بعيداً عن الأضواء (عن الإعلام وعن النشر)، وعن حق المجتمع في معرفته عن قرب كشاعر وباحث من خلال شعره الذي يضعه في قامته شعراء كبار في اليمن والمنطقة العربية، وقامة بحثية وثقافية وفكرية لها إسهامها الطيب والمميز والنوعي على مستوى الإنتاج المعرفي والفكري والثقافي، وهو ما اطلعت عليه بعد رحيله من خلال كتابه الذي أجده قيمة معرفية وثقافية مضافة، والذي جمعه أخوه الأستاذ زيد رغم ممانعته لذلك، فكان بحق هدية ثمينة للمكتبة اليمنية والعربية، وإن بقي الكتاب - كذلك - حتى اللحظة محدود التداول إلا في وسط نخبة فكرية وثقافية محدودة. ومن هذه المناسبة التكريمية فإنني أدعو جميع المهتمين بالمعرفة؛ الشعر والفكر والثقافة، إلى اقتناء مجموعاته الشعرية وإلى الحصول على كتابه "حرف في حقول المعرفة، وهو كتاب ثمين جدير بالاقتناء ويستحق القراءة في زمن ساد فيه الغث من القول والفكر

قاسم بن علي الوزير شخصية تجمع في ذاتها واسمها بين صورة الشاعر، والمثقف والباحث والمفكر، هو في ذاته خلاصة لهذه المسميات والصفات ولن تجانب الصواب إذا تحدثت عنه بصفته الشاعر المهجوس بالشعر، والممتلك لأدواته الشعرية، أو بصفته المثقف، أو بصفته الباحث المجيد المقتدر، أو باسم المفكر. هو

هوية ذاتية إنسانية عالمة، حاضر وفاعل ومنتج في كل هذه المسميات والصفات. مرة سألت د. عبد العزيز المقالح أين تجد نفسك في الشاعر، أو الناقد؟ فأجاب دون تردد: في الشاعر، مع أنه الشاعر والمثقف والباحث والناقد، ومن يجوزون ويحملون هذه الصفات والمعاني بجدارة هم القلة القليلة، والأستاذ الفقيه قاسم الوزير هو من هذه الكوكبة القليلة

وواضح أن الأستاذ الفقيه، قاسم بن علي الوزير، بقدر ما كان معتزاً باسمه ومكانته وبكرامته الشخصية، والوطنية والإنسانية، كان - كذلك - شديد البساطة والتواضع، إلى جانب عقل إبداعي اجتهادي متقد، يكره أو لا يحب الأضواء، ولا النجومية الإعلامية، وهو ما سمعته عنه بعد وفاته من بعض القريبين منه وأصدقائه الذين كانوا على تواصل إنساني معه، ومنهم الصديق الأستاذ حسن الدولة، بعد أن أهداني نسخة مطبوعة من كتابه "حرث في حقول المعرفة الذي حزنتم كثيراً أنني لم أطلع عليه في حياته وفي حضوره، لأهديه تحية قرائية لكتابه، هي قطعاً تحية ناقصة تعجز عن سبر أغوار الأفكار المثيرة والمنيرة التي أثارها كتابه في صورة ذلك "الحرث المعرفي، والذي وجدته بعد القراءة، اسماً على مسمى، هو - حقاً - حرث في القضايا الإشكالية التي اقترب منها وتناولها بعمق الباحث المقتدر في صورة أبحاث ودراسات ومحاضرات، فيها بعض خلاصة فكره، وروحه الإبداعية النقدية، وهو ما ضاعف حزني من عدم الاطلاع على الكتاب وتقديم التحية له وهو حاضر بيننا

وهو كتاب - كما سبقت الإشارة- يستحق القراءة، وهي دعوة لأن يكون مكانه في رفوف المكتبات الجامعية والمكتبات العامة والخاصة للمهتمين بالفكر عمومًا، والفكر الإصلاحي والتنويري والنهضوي في اليمن، والمنطقة العربية خصوصاً، كتاب فكري نقدي بصياغات أدبية من شاعر متقد حيوية وإنسانية، وهو كما وصفه أحدهم "الشاعر الذي توارى وراء تواضعه المعتاد، على قدرته الخلاقة لأن يجمع ويجسد في ذاته حالة ثنائية الشاعر والناثر

### الشاعر والإنسان

يبدو أن ذات وروح الشاعر، عميقة الصلة بالشعر، وعلى درجة عالية من الحساسية الإنسانية بالوجود من حوله، وهو ما ترك ندوباً جارحة على نفسيته، بخاصة من رحلته الطويلة والقاسية مع السجن، الذي عرفه وعاش مراراته هو وإخوته، فقد وجد نفسه وهو في بداية عمر المراهقة ومطالع الشباب الأولى، سجيناً في واقع بئيس قروسطي ومكبل بالقيود المادية، والمعنوية التي لا صلة لها بأي معنى إنساني. رحلة قاسية عرفها وعاشها جميع إخوته، وأفراد أسرته بعد فشل حركة ١٩٤٨م الدستورية، وهي النكبة التي تركت آثارها الفكرية والسياسية والاجتماعية والنفسية على كل البلاد، على أن وقعها النفسي والفكري والاجتماعي على روح الشاعر المتطلع للحياة كانت هي - كما أتصور - الأقسى والأعنف

نكبة وكارثة، حمل قاسم بن علي الوزير مراراتها وتداعياتها السلبية على روحه الشاعرة حتى لحظة رحيله، وتعلم منها كيف يتمسك أكثر بالقيم الإنسانية، وهو ما نراه في

شعره “مجموعات شعرية، وفي كتابه الوحيد المجموع رغماً عنه” حرث في حقول المعرفة

أي أن حصيلة تعب السجن لم تكن مرارات ذاتية، بل كانت أيضاً قيماً إيجابية تعلمها، وأصر على التمسك بها والتعبير عنها معرفياً وفكرياً، فكتاب “حرث في حقول المعرفة يقول هذا المعنى بجدارة كما يقولها الشعر الرفيع والبلغ في عمقه الإنساني الذي تحتويه “مجموعات شعرية

إن طبيعته الذاتية المفتوحة على الآخر، وروحه الشعرية في طابعها الإنساني هي التي أهلتها ليكون بتلك الهيئة الذاتية الفكرية الصارمة، وبتلك الروح الشعرية المشحونة بكم هائل من الحزن ومن الحب ومن الوفاء لمن حوله، وهو ما نجده ماثلاً ومنشوراً في قصائد حزن عظيمة.. حزن على ما مر به من بعض متاعب الذات في رحلة طويلة مع الألم والأمل، في صورة حزن على الذات، وعلى الوطن وحزن على الأصدقاء الذين يرحلون مع تعبهم دون وداع

وحول هذا الشجن والهـم الإنساني الباكي والحزين، يقول:

حزين؟ نعم والحزن بعض مواهي      فلا تسألني عني سلي عني مصائي

تجرعتها طفلاً صغيراً ويافعاً      وكهلاً لقد أتعبت حتى متاعي

هو مقطع شعري يذكر ببلادة وجزالة وفنية عمود الشعر عند الشعراء العرب الكبار من المتنبي إلى الجواهري، إلى عبد الله البردوني، بقدر ما يذكر بروح التحدي

والمقاومة.. مقطع شعري يكتنز مرارة حزن غائر في أعماق الروح (حزن ذاتي وتاريخي)، على أنه مقدم ومسبوك في صياغة شعرية فيها من جمال البلاغة، ومن فنية الشعر، ومن عمق الرؤية والفكرية في تصوير متاعب الذات وهي تقول بعض تباريح النفس

وأتصور أننا مع رحلة قاسم الوزير مع الشعر نجد أنفسنا أمام ومع سردية حزن، أخذت بعداً ذاتياً وتاريخياً وإنسانياً بسبب التحولات الدراماتيكية للمسار السياسي اليميني الصعب والمعقد، المسار الذي ما يزال مستمراً حتى لحظة رحيله. وحول قاسم الوزير والحزن كتب راشد المبارك:

“لعل أول ما يستوقف القارئ لشعر الأستاذ قاسم هو طابع الحزن الذي يسرله لأنه إلى الحزن صار ومن الحزن انبعث

ويظهر وبتجلٍ شفاف أمامنا صورة ومعنى وجدانه الشعري العميق، في إحساسه بمن حوله، ووفائه لأصدقائه في العديد من قصائده العامرة بالحب والوفاء والثناء، وما أكثرها في قصائده التي وصلت إلينا عبر “مجموعات شعرية

حزن حمله من طفولة المراهقة، إلى يفاعه الشباب، إلى الكهولة.. حزن توحد بالحب، فكان جمال الشعر، وصرامة الفكر. وفي مقام الحديث عن الشعر والحزن، والوفاء من المهم التفريق بين حالتي الحزن والوفاء، فالحزن حالة إنسانية عامة تخص وتعم، أما الوفاء فهو كينونة ذاتية إنسانية خاصة، وهي حالة فردية مرتبطة بهذا الفرد

دون ذلك، بهذا الأخ دون الآخر، وقد جمع الفقيد والإنسان قاسم بن علي الوزير في ذاته الشعرية والحياتية بين حالتي الحزن والوفاء

وهو ما تحكيه سرديته الشعرية في طابعها الدراماتيكي والتراجيدي معاً. وهنا، هو - كذلك- يذكرني بالصديق النبيل د.عبد العزيز المقالح، الذي خصص ديواناً للأصدقاء “كتاب الأصدقاء، وإذا ما جمعت قصائد قاسم الوزير للأصدقاء والوفاء لهم فهي تعدل ديواناً شعرياً، فهما -أي المقالح وقاسم الوزير- من جيل وعمر واحد.. المقالح دخل السجن رهينة مع والده، وقاسم الوزير دخل السجن عقاباً وانتقاماً لاشترك والده وعمه في قيادة انقلاب أو حركة ١٩٤٨م الدستورية العظيمة كان من سوء حظي - كما سبقت الإشارة- أنني لم أتعرف شخصياً على الأستاذ قاسم الوزير، ولكن دلتي عليه وقادتي إليه قصائده في “مجموعات شعرية، وفكره الصارم والمستنير في إبداعه الفكري الذي حواه كتابه “حرث في حقول المعرفة، وبذلك عوضت المعرفة الحسية الحياتية بالشخص بالمعرفة الأعمق والأجمل، حينما وجدت نفسي منهمكاً في مطالعته ومعايشته ومرافقته والسهرة معه أياماً طويلة أحاوره وأتبادل معه أطراف الحديث حول جملة من المفاهيم والقضايا الحياتية والهجوم التي اشتغل عليها معرفياً، من خلال الشعر وعبر الفكر المستنير

قاسم الوزير المثقف والإنسان، شاعر مخلص للشعر، قصائده تدلنا على إنسان جميل ونبيل، والوفاء إحدى صفاته، ومن تنطبق عليه صفة الوفاء لا يمكن إلا أن يكون جميلاً وكبيراً

هو كبير، ليس لأنه شاعر وباحث ومفكر، بل لأنه قبل كل شيء إنسان، وأضاف الحزن الإنساني العميق والوفاء لمن حوله، عمقاً أشمل لمعنى إنسانيته، وهو ما يُرينا رحابة أفقه الروحي في تمثلاته الصوفية، وبعدهاً أشمل لمعنى إنسانية الحزن فيه فهو يكتب شعراً قائلاً:

دفت بنفسي بعض نفسي فأصبحت      لنفسي منها دافن ودفين

وهي مقاطع تجمع بين الحزن والوفاء والتضحية والفداء وهو القائل شعراً عن حزنه:

أخفي الجراح بنفسي وهي قاتلة      وأمنحُ الناس مني الوجه جدلانا

فليشرب الناس من كأسٍ مشعشة      وأحتسي دون خلق الله نيرانا

يا من يرى الوردة الحمراء باسمه      دمي جرى في عروق الورد ألوانا

وفي بعض قصائده التي أسمعه يردددها وهو في ذروة لحظات تعب الجسد الذي يقربه في كل لحظة من شهقة الموت، فتجده يحاور الموت، في صورة ذهنية شعرية رائعة ودون خوف، جملة شعرية تعكس روح العقل المستوعب جدلية الحياة والموت، فنراه يقول:

يجادل فيك الموت معنى حدوثه      وفيك رأى معنى الخلود المصاحب

حوار وجدال المؤمن الذي يعشق الحياة، ويرى في الموت لحظة خلود توحد به بقدر الله، ولا تخيفه منه، ما يجعله أبداً متوحداً بالمعنى الكلي والإنساني للموت والحياة.

إنه عقل المؤمن المحتسب

شاعر ممتلئ بالحزن وبالوفاء لمن حوله، حزن طافح بالحب تجده وتطالعه حتى في خطابه الثوري، نقرأ التحدي ممزوجاً ببعد الحزن، وكأنه الحزن الثائر والمتمرد، وليس حزن الاستكانة والصمت، وبذلك نرى الثورة، بل حتى فكرة التغيير عنده محاصرة بجزن أكبر من طاقة وقدرة الكلمات على تحويله إلى واقع. تبقى الثورة رغبة وأملا وحلما في حدود النستالوجيا، حيننا طاغيا وعاصفا، وشوقا بلا حدود للإصلاح والتغيير في واقع مايزال طعم مراراته البعيدة والقريبة تلاحقه، حتى وهو في الغربة عن الوطن، حيننا تختصره كلمات شاعرة مدججة بهم الإصلاح والتغيير للذات وللواقع، كما هي ممتلئة بالحزن النبيل، وكأننا أمام إصلاح أو تغيير “ثورة ممنوعة من الصرف على الصعيدين الوطني، والقومي العربي.. إصلاح وتغيير واقعين بين المتاح المنتظر، والممكن البعيد، حتى لا أقول المستحيل، ولذلك حضر الحزن بتلك الصورة الطاغية على “مجموعات شعرية، وغاب التغيير للواقع، كما حلم به الشاعر منذ سنوات طويلة، وقاده إلى السجن يافعاً ومراهقاً، حلم يتناسل ويتواصل في داخله شعراً وفكراً

قاسم بن علي الوزير إنسان شديد الإحساس بالناس، والحساسية المعرفية والإنسانية بالوجود، ولذلك هو عميق الارتباط بالواقع اليمني، رغم غربته الطويلة الجغرافية عنه، بقي الوطن همماً وقضية وحلماً يسكنه حيثما سكن وارتحل. إنسان نبيل وصادق مع نفسه ومع الآخرين، لم يتبق منه بعد قرابة أكثر من ستين عاماً من الحلم ومن الحزن، ومن الشعر، سوى سورة وسيرة التعب، وسوى الاعتصام برثاء الأصدقاء والوفاء لهم شعراً، بعد أن صار الموت عادةً وحالة ذاتية يومية، نطالعه مع كل قصيدة رثاء ووفاء

لرفيق عمر، كما في قصيدته لصديقه أمين محمد هاشم، وغيره كثر حتى كان أو كاد الموت يكون له عادةً. وهو القائل شعراً:

أنا لا أعيشُ بغير عاصفة      تُعربدُ في حياتي

لو كنت أعرف أن موت      إذا أجزبه مماتي

وأعلم الموتى جُنوني      ثورتي... قلق الرُفَاةِ

لقد صار الحزن أنيسه، والشعر رفيقه، وبلاغة القول عدته الوفية في حماية النفس من قهر سلطات الخارج الذي يحيط به، من جميع جهات الحصار جميع جهات الحزن، ومع ذلك لم يستسلم قاسم الوزير للحزن، ولم يبقَ أسيراً له، بل وظفه وتوسله أداة مقاومة، وهو ما تقوله قصائده الموزعة على "مجموعات شعرية

وفي تقديري أن أعماله الشعرية في عناوينها المختلفة، هي أداة مقاومة، ووسائل دفاع عن الذات وعن الأصدقاء وعن الوطن، كما حلم به هي أعمال شعرية لم تدرس من المهتمين والاختصاصيين بالنقد الأدبي بعد فكما كتب للأصدقاء والوفاء لهم، فقد غنى للثورة المصرية ١٩٥٢م شعراً، وعمره لم يتجاوز السابعة عشرة، وهو دليل انحياز واصطفاف لصف الثورة ولفكرة الثورة

وما يلفت الانتباه أكثر في هذا الاتجاه نحو الشعر وكتابة الشعر، أنه كتب ومبكرًا قصيدة التفعيلة، بل والقصيدة "المدورة حين كان عمود الشعر هو الطاعني والسائد في الكتابة الشعرية اليمنية والعربية، وهو القادم من اليمن الإمامي المغلق على نفسه،

في عزلة تاريخية، ودلالة الكتابة الشعرية في صورة القصيدة “المدورة إنما هي دليل حي على أن قاسم الوزير خرج من دائرة العصبية الأيديولوجية للشعر العربي القديم، وهو ما لا يمكن أن يكون دون أن يكون ابن الوزير تلمس طريقه إلى فكر الاستنارة والتنوير، والحداثة الشعرية العربية المعاصرة تحديداً في ذلك الزمن المبكر، من العمر، ومن التاريخ، حين كان الشعر هو “ديوان العرب الأول ومخزئهم الأدبي والثقافي واللغوي

والقصيدة المرسله عنوانها “عودة النَّائي، وفي مطلعها يقول:

صنعاء

ها أنذا أعودُ إليكِ

يا حلم الخيال

ويا صلاة الفنِّ

في محرابه السامي

في هذا الوجود

\*\*\*

هذا أنا

هل تسمعين نداء محرور الفؤاد

وقفت أمانيه ببابك وهو

ينوء بالسور القديم

قد أُبْتُ

لكن فانظري

هل تعرفين...؟

\*\*\*

هل تعرفين فتاك؟

أم أنكِرتِه؟

قُولي...

فقد بُعد الزمان بنا

وغيب في دُجى المجهول

أشباح اللقاء...

ونأيت عنك

وطال بي النأي المبرح

لا رضاك. ولا رضاي

فيه

وما لي من يدين

لو تعلمين

جميع من كتب عنه وعن شعره تحديداً، كما في الدراسات النقدية لنتاجه الشعري الذي جمعه الأخ الأكبر الأستاذ إبراهيم الوزير، يشيرون إلى بساطته وتواضعه الجم، واهتمامه بالأصدقاء، ويؤكدون على عدم اهتمامه بنشر أعماله، وعلى عدم جمع ما كتبه شعراً وفكراً، ومن أن مجموع أعماله الشعرية والفكرية تمت رغماً عنه من خلال أخويه الأستاذين إبراهيم، وزيد، وبدعوة من محبيه الذين يدركون القيمة الإبداعية لشعره، والمعرفية والفكرية لما كتب. ومع أن البساطة والتواضع أمران محمودان، ويعكسان عمقاً اجتماعياً إنسانياً راقياً، على أن غير المحمود وغير الطيب هو دفن ذلك التراث الأدبي/ الشعري، والنتاج المعرفي الفكري الرصين، عن أن يكون في متناول المهتمين والباحثين المختصين بقضايا الأدب والفكر، وحسناً فعل الأستاذان إبراهيم، وزيد أخواه، على إخراج تلك النتاجات لتكون في متناول الجميع، وإن كانت ماتزال محصورة في الحدود النخبوية الضيقة

باحثاً ومفكراً

"هو في كل من الشعر والنثر يهدف إلى إيقاظ الفكر من غفوته، وتصحيح السياسي من انحرافه، وإخراج المجتمع من جمود"

هكذا كتب عنه ورآه أخوه الأستاذ زيد، في تقديمه للكتاب الفكري الذي جمعه له من بعض مجموع أعماله الموزعة في الصحف، والمجلات المختلفة، وهو - في تقديري في الصياغة التي وردت - رأي أو حكم فيه الكثير من العاطفة، كما فيه قدر معقول من الواقع ومن الحقيقة الفكرية التي كانها الأستاذ قاسم، في كل ما كتبه من " حرث في اتجاهات المعرفة والفكر، بعد التخفف قليلاً من حالة الاطلاقية في الحكم، كما وردت في إشارة زيد السالفة

ما يهمني في هذه الفقرة هو محاولة التركيز لالتقاط بعد الاستقلالية الذاتية في التفكير، وفي الفكر، الذي كانه الباحث، والذي وجدته يتخلل ويحضر في الكثير من الفقرات والمعاني الواردة في كتابه أو في حرثه المعرفي، في صورة سعيه الحثيث لتأكيد استقلاليته في الفكر وفي التفكير عما هو سائد في الوسط الفكري والثقافي اليمني، والعربي خصوصاً، بل وفي تأكيده إظهار أو إعلان استقلاليته - حتى - عن بعض المفاهيم الفلسفية الكبرى للمدارس الفلسفية العالمية، في صورة المدرسة الفلسفية المثالية، والمدرسة الفلسفية المادية، اللتين قدم ملاحظاته الفكرية عنهما وحوههما، فهو يقول: " في إطار البحث عن الطريق تقدم الفلسفة بعض أجوبتها: الفلسفة المثالية تقوم على أن "الواقع الخارجي هو انعكاس للفكر وعليه؛ فإن الأفكار التي تشكل الوقائع أو صورتها في الخارج، أي في الواقع، فإذا ما أخذنا بهذا فإن التغيير يجب أن يبدأ من "الفكر أو العقل أو سمه ما شئت.. لكن الفلسفة المادية ترى العكس؛ فهي ترى الفكر انعكاساً للواقع. وعليه فإن مفردات هذا الواقع هي التي تشكل الأفكار والمعتقدات؛ فإذا ما أخذنا بهذا فإن التغيير يجب أن يتحتم

أن يبدأ من تغيير الواقع (بالتطور أو بالثورة مثلاً كما هي لدى الماركسية)، على أن كلا وجهتي الفلسفة هذه تفتقر إلى إدراك حقيقة العامل الذي يكمن وراء الفكر ووراء الواقع معاً، ويجعل من كليهما موضوعاً قابلاً للفعل والتأثر والتأثير. ونعني بذلك “روح الإنسان الذي يستخدم الفكر والعقل، ويشكل الواقع أياً كان، انعكاس أحدهما على الآخر.. فالإنسان كما هو جسد.. وعقل، هو روح أو نفس. وهذا هو الذي يصير به الإنسان إنساناً. وعليه فإن “التغيير يبدأ من تحرير “روح الإنسان من سيطرة الخرافة، في أي من أشكالها، وسيطرة الجهل بكل صنوفه، وسيطرة الخوف بكل أنواعه، وسيطرة الظلم والاستبداد بكل أشكالهما. وبهذا يصبح الإنسان الحر وسيلة التغيير، وهو هدفه

اضطرت لإيراد الفقرة/ الرؤية كاملة التي أوردها الأستاذ قاسم، على طولها، لأشير وأؤكد أولاً، على أمانته العلمية والفكرية في الاقتباس والنقل لمعاني النصوص التي يختلف معها، نقلها كما هي في أصولها أو معانيها الكلية، بل حتى دلالاتها المقصودة دون زيادة ولا نقصان، على عكس ما نطالعه في بعض الكتابات الفكرية والسياسية، تحديداً الكتابات من موقع الرؤية “الإسلامية التي نجدتها تشوه ما تنقل عنه، بخاصة في من تراهم كفاراً أو علمانيين، وتقديم حكمها مسبقاً، بالقفز على المعنى والفكر المطلوب بحثه ونقده، هذا أولاً، وثانياً كان إيراد الاقتباس كاملاً لأشير إلى أن الباحث قاسم الوزير قدم في معارضته صورة وروح وعقل الباحث المعرفي، على الأيديولوجي والسياسي، وثالثاً للقول إننا أمام باحث مطلع ومقتدر وأمين في عرضه لفكر الآخر، باحث يحاجج عن معرفة بأصول وفكر الآخر، بصرف النظر

عن رؤيته وتأويله الفكري، وقراءته الثقافية لفلسفة ورؤية الآخر، وكيف هو فهم وقرأ رؤية الآخر، والجميل هنا هو أنه يسعى للحوار مع الرؤى الأخرى من موقع رؤية يراها البديل، أو هي الأكثر واقعية وصدقية وموضوعية وعقلانية. ومع كل التقدير والإجلال للرؤية النقدية التي أوردها الباحث في متن رؤيته/ محاضرتة -وهي في جزء منها صحيحة- وهذا حق، كما يحسب له المحاججة على قاعدة المعرفة، والحق في الاختلاف والنقد، على أن الباحث قاسم، لا يرى أن الرؤى الفلسفية تناقش قضايا وإشكالات فلسفية ومعرفية حول علاقة الوعي، والوجود، علاقة الوعي/ الفكر، بالواقع، أي علاقة الوعي الاجتماعي، بالوجود الاجتماعي، وليس فحسب أيهما أسبق، أو الأكثر قدرة على التأثير، الوعي أم الوجود، فهذه إشكالية معرفية فلسفية ستظل قائمة وقيد البحث باستمرار من زوايا مختلفة، وفي أزمان معرفية مختلفة، وحين قدمت الماركسية -وهذا ليس دفاعاً عنها- الواقع أو الوجود الاجتماعي نسبياً على الوعي/ الفكر، فإنها لم تنكر العلاقة التفاعلية الإبداعية في ما بينهما، وليس الانعكاس الميكانيكي "الفوتوغرافي للفكر في الواقع، الفهم الانعكاسي غير الجدلي، والبعيد عن روح المادية الجدلية والتاريخية، الذي يجعل -عند البعض- من الفكر تابعاً وملحقاً أبداً بالواقع وصورة جامدة له، كما ذهبت إليه بعض اتجاهات القراءة الفكرية الماركسية السلطوية في طبعاتها التبسيطية السطحية، يجعل الفكر ملحقاً وتابعاً للواقع في كل الأحوال، انطلاقاً من النزعة "الاقتصادية وليس المادية الجدلية التاريخية، وهي قضية ومسألة نوقشت وبحثت في أصول الفلسفة الماركسية كثيراً، وقدمت حولها قراءات نقدية معمقة ليس مجال بحثها هذه التحية والتكريم

لاسم علم فكري بارز في الثقافة اليمنية المعاصرة. علماً أن الفلسفة المثالية، بشقيها “الذاتي، والموضوعي تحديداً كما هي عند” هيغل وتلاميذه، وكذا الفلسفة المادية الجدلية والتاريخية، وضعنا الإنسان في القراءة الفلسفية في مكانة الصدارة والفعل في التاريخ قياساً إلى ما كان في صورة الإنسان الذهنية والفكرية في الكتابات السابقة، علماً أن الماركسية في أصولها الفلسفية، ومن خلال بعض رموزها النقدية قد قدموا مساهمات نقدية للطابع الاستبدادي للسلطة الشمولية الكلية، “دولة البروليتاريا، وفي إهمال وتغيب أو تغريب لدور الإنسان، كما هو الحال مع البعض، ومنهم مساهمة المفكر “هربرت ماركيزوز - كمثل - في كتابه “الإنسان ذو البعد الواحد، والذي يتضمن نقداً عميقاً للتجربة الماركسية في صورة بعض التظاهرات السلبية/ الاستبدادية في دولة الاتحاد السوفيتي. وبهذا المعنى تصدق ملاحظة الأستاذ قاسم الوزير - جزئياً - حين يتصل الأمر بالجانب السياسي والتنفيذي، وتحديداً في جانب الموقف من الديمقراطية ومن الحريات التي رافقت التجربة الاشتراكية في أخطاء الممارسة القتالة، وليس في أصل البحث الفلسفي، حول علاقة الوعي الاجتماعي بالوجود الاجتماعي، أو علاقة الفكر بالواقع

مايعنني وبهمني من هذا الحوار الذي قدمه وخاض فيه الباحث ابن الوزير، هو التأكيد على النزوع المعرفي والفكري الواعي لتأكيد معنى استقلاليته الذاتية في التفكير عن المعطى المعرفي والفكري والسياسي السائد، ليس فقط للرؤيتين المثالية والمادية، الرأسمالية، والاشتراكية، ومحاججته لهما من موقع العارف والعالم، بل ونزوعته الاستقلالية في التفكير وفي التأسيس لرؤية فكرية خاصة به، ليست مفصولة بالمطلق

عما قبله، بل تطوير لها أو استمرار معاصر لما يراه يجب أن يكون، جرياً أو تطويراً لما كان عند رواد فكر النهضة العربية في منتصف القرن التاسع عشر، وتتجلى ظاهرة الاستقلالية في التفكير في جملة من الرؤى والطروحات التي حضرت في “حرثه المعرفي، ومنها على سبيل المثال: رؤيته للإصلاح والتغيير، فرواد النهضة العربية طرحوا فعلاً سؤال النهضة عبر فكرة الإصلاح، ولكنهم لم يشيروا إلى كيف يكون وبأية طرائق؟ وما هي الوسائل لذلك؟ بقي سؤال النهضة مجرداً ومعلقاً في سماء حدوده المعرفية الفكرية، “القولية، بعيداً عن سؤال السياسة والسلطة، اللتين بدوئهما لا يتم ولن يتحقق الإصلاح

ولذلك يؤكد قاسم بن علي الوزير محقّقاً على دور الإنسان، وعلى دور “الثقافة الفاعلة في التغيير، بعد تحريره من الجهل ومن الخوف ومن الاستبداد، وجعل المعرفة مرتبطة بالواقع المطلوب إصلاحه أو تغييره، وهو ما نجده منتشرًا ومبثوثًا في سطور “- حرث في حقول المعرفة-

إن المسألة أو القضية في رؤية قاسم الوزير “هي في فهم القوانين والعمل بمقتضى تلك السنن.. وهذا وحده هو طريق الخروج

أي أنه في ومن خلال ذلك الفهم والوعي والأدوات، يكون وصولنا إلى بر الأمان، في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، من تاريخ إلى تاريخ، والأهم والعملي في الانتقال من المشكلة/ الأزمة إلى الدخول إلى فضاءات واقع جديد، بعد تقديمنا الحلول العملية لتلك المشكلة/ المشاكل المتراكمة، ذلك وحده - كما يرى - هو طريق

الخروج، ومعه كل الحق، لأننا خلال المراحل الماضية بقينا ندور عند بحث المشكلة، ونعيد مراكمة إنتاجها، بدلاً من العودة إلى جذر سؤال الأزمة، أي إلى الأسباب المنتجة للمشكلة/ الأزمة، وهذا المعنى من الفهم والقراءة ستجده يغطي معظم صفحات كتابه/ محاضراته، وهو تفكير -مع الأسف- ما نزال قابعين داخله ونحن نفكر في الحاضر وفي المستقبل، ولذلك -كما يرى قاسم الوزير- لم نتجاوز أسئلة وإشكالات الماضي، وما نزال نجيب على أسئلة الراهن/ الحاضر بذات الإجابات القديمة، ولذلك لا يمكننا من خلال هكذا منطق من التفكير أن ننتقل إلى المستقبل فهو يكتب حول ذلك قائلاً: “إن بقاء أية مشكلة بدون حل لا يعني توقفها عند كونها مشكلة فحسب؛ بل إنها -من حيث الكم- تتوالد، وبذلك تزداد تعدداً، وهي -من حيث الكيف- تتعقد، وبذلك تزداد تنوعاً. إن المشكلة الواحدة إذا ما تركت تصبح مشاكل شتى متعددة الأشكال والألوان تتوغل في مختلف مجالات حياتنا، وتتحكم في أوجه نشاطنا، وكل استمرار في هذا الاتجاه يعني ابتعاداً متواصلاً عن مواجهة المشكلة الأم، أي ابتعاداً عن الرحم التي تتناسل منها جميع المشاكل. وبسبب ذلك تتجه جهودنا إلى متفرعات المشكلة، وتشتبك مع بنياتها في معركة خاسرة عوضاً عن مواجهة المشكلة ذاتها، إنها تظل “خميرة تفسد حتى” تفكيرنا، ومن ثم تحبط جميع جهودنا وأعمالنا

ومع مثل هذا المنطق من الفكر والتفكير والخطاب الموضوعي العقلاني النقدي، نجد أنفسنا أمام باحث يمتلك منهجا وبصيرة واقعية في فهم طرائقه للإصلاح والتغيير،

بعيداً عن العصبية، والفكر الاتكالي/ التواكلي، الذي يراكم المشاكل، ويعجز عن حلها إلا من خلال “التفكير بالتمني الذي قادنا إلى جحيم الفشل المتكرر، والعجز المستدام عن حل مشاكل الواقع، بعيداً عن الأوهام الذاتية الأيديولوجية، القومية الرومانسية، واليسارية الثورية، والإسلاموية، التي انفصلت -جميعاً- عن الواقع، ولم تتمكن سوى من مراكمة المشاكل، وبالنتيجة استقدام الخارج الاستعماري إلى داخلنا، “فالطغاة في التاريخ هم من يستقدمون الغزاة، وهو ما نعيش بعض تفاصيله الملموسة في أكثر من منطقة عربية اليوم

ومن هنا تأتي رؤية قاسم الوزير للإصلاح مرتبطة أو منوطة بالإصلاح الشامل، والإصلاح عنده غير ممكن بدون التغيير، من خلال تساؤله: “هل ممكن الإصلاح بدون تغيير؟، مع أن معنى وقيمة التغيير عنده، أي ضمن رؤيته الخاصة لمفهومى الإصلاح والتغيير، هو أن التغيير أدنى مرتبة ومكانة من الإصلاح، الإصلاح هو الأساس للتغيير، هكذا هي منظومة تفكيره في علاقة الإصلاح بالتغيير

على أن الجميل في رؤيته لسؤال النهضة، هو أنه وضع الحصان في مقدمة العربة، لتتمكن الفكرة من الحركة والمرور، وبذلك أعاد الاعتبار العملي/ السياسي للسؤال في صورته الناقصة كما تبدى عند رواد النهضة الذين بقوا وظلوا عند دائرة السؤال المعرفي، دون البحث في طرائق الخروج من المشكلة والأزمة، أي دون ربط المعرفة والفكر والثقافة بشرطه السياسي السلطوي. وعلى الرغم من أن قاسم الوزير يرى حالة الارتباط بين الإصلاح والتغيير على أنه - كما سبقت الإشارة- يعطي

للإصلاح مكانة أكبر وأعلى من التغيير الذي يعني هنا الثورة، فهو يرى أن “من الضرورة هنا، أن نميز بين مفهوم أو مدلول الإصلاح، ومفهوم أو مدلول التغيير. الإصلاح -من حيث الجوهر- ومن هنا رؤيته الذاتية الخاصة لمفهوم الإصلاح والتغيير، والفارق بينهما في واقع الممارسة العملية، عملية تصحيح لأخطاء وتقويم لمعوجّ هو تسديد وتشبيد، وهو تصويب وضع.. لمجتمع ما أو حالة ما (...). أما التغيير فيعني إزالة عوائق وتوفير وسائل وتهيئة مناخ. الإصلاح هدف يكون دائماً متجهاً إلى الأفضل.. إلى الأمام، والتغيير وسيلة قد تكون إلى الأحسن، وقد تكون إلى الأسوأ

فهو هنا يعطي للإصلاح مكانة أكبر وأعلى وأرفع من التغيير، فكأن التغيير وجد ليخدم فكرة وقضية الإصلاح، وحسب رأيه “فليس مطلوباً أي تغيير لا يحقق أو لا يمهّد للإصلاح

وكأن مهمة التغيير إزالة العوائق من أمام الإصلاح فقط، أي كأن عملية التغيير تابعة لعملية الإصلاح، بعيداً عن خطاب الثورة والتغيير، وكأنني أراه يربط التغيير بالثورة وبالعنف السياسي والاجتماعي، التي شهدتها المنطقة العربية وبعض دول العالم النامي المتحرر، ووقفت بالثورة أو بعملية التغيير في منتصف الطريق، فلا هي استكملت خلالها الثورة شروطها، ولا تحقق الحد المطلوب من الإصلاح المرغبي، وواضح هنا أن الباحث الأستاذ قاسم الوزير، له رؤية معرفية فكرية وثقافية وسياسية خاصة به، وليس عفواً واعتباطاً، بل هو تأكيد للمنزع الاستقلالي الذاتي في التفكير،

كما رسخ وتأسس في ذهنه وتفكيره، وليس نقد الرؤيتين الفلسفتين المثالية البرجوازية، والمادية الماركسية، سوى أحد ملامح وأبعاد هذا التفكير الاستقلالي الذي يضع أو يوضع قاسم الوزير على عكس من آخرين ضمن منظومة معرفية فكرية خاصة به، ومن يشابهونه ويلتقون معه في منطق التفكير، وهو موقف وتفكير شجاع وجريء يعكس روح ومنزع الاستقلالية الذاتية في منطق تفكيره، بصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف في مبنى ومعنى رؤيته التي لها كل التقدير، على الأقل أنه اجتهد معرفياً في تأكيد نزوعه الذاتي الاستقلالي في الرؤية والتفكير، وهذا يحسب له، وفي هذا المسعى والسياق نجده يقدم تعارضه ومفاهيمه ومصطلحاته الخاصة حول جملة من المفاهيم والقضايا على سبيل المثال:

فتعريفه للجهل: تعريف معرفي: “أنه مشكلة ترتبط بقضية التخلف والقضاء عليه، مشكلة ترتبط بقضية التقدم.. (...)، وإذن لكي تقضي -مثلاً- على الجهل، فلا بد أن تكون منطلقاً من “واقع فكري مختلف نوعاً عن ذلك الواقع الذي أنتجه الجهل أو أنتج هو الجهل، وإلا فهو العجز أو الانتقال من ضرب إلى آخر من ضروب الجهل دون تجاوزه، أي بمعنى آخر أن الجهل هو مشكلة تخلف، وبديله مشكلة تقدم

وكأنه ضمناً يقول إن الجهل صناعة سياسية اجتماعية، وتجاوزه لا يكون إلا بمشروع فكري سياسي بديل، أو حسب تعبيره “واقع فكري مختلف ينقض حالة التخلف المنتجة للجهل. وسواء اتفقت أو اختلفت مع رؤية الأستاذ قاسم الوزير، في

تفاصيل رؤيته وفي منهج بحثه “المستقل، فإنك تجد نفسك متفقاً معه كلية في تركيزه على دور الإنسان، وضرورة استعادته لمكانته وماهيته كفاعل إنساني، وبدونه -أي الإنسان- لا حرية ولا كرامة إنسانية للفرد وللمجتمع.. وبدونه لا إصلاح ولا تغيير ولا تنمية، فالإنسان وحده هو أداة التغيير وغايته، وهو ما تهدف إليه ضمناً ومباشرة وقولاً جميع الفلاسفات بصرف النظر عن تجليات ذلك في واقع الممارسة العملية السياسية، وهو ما يشير إليه ابن الوزير قاسم في ثنايا قراءاته/ محاضراته

فهو يكتب قائلاً: “إن التجربة البشرية المتنوعة تمدنا بأمثلة شتى على ذلك، في طليعتها الرسائل السماوية التي بدأت كلها بشخص أو كلمة.. ثم عم نورها الأرجاء.. وكذلك هي الحركات الكبرى في التاريخ، بصرف النظر عن بواعثها: الأفكار أو وسائل الإنتاج إنما تبدأ بفكرة من شخص.. ثم تنتشر فتصبح حركة في التاريخ. فمؤسس “الماركسية - كما يقول - شخص عبر عن فكرته ودعا إليها مع زميل له، فانتشرت وأوجدت لها مؤمنين حولها إلى دعوة وإلى حزب، ثم إلى حركة أثرت بشكل أو بآخر على العالم المعاصر.. وليس هنا ما هو أكثر خطأ وأبعد عن معايير الصواب والصحة وأوغل في الضلال البعيد من الصهيونية

إن ما أرغب في تأكيده في ختام هذه التناولة، أن الباحث الفقيه قاسم الوزير، وهو في سياق تأكيده لدور الإنسان، ومن أنه أداة فعل، وغاية في الوقت نفسه، فإننا نجد يعطي “الثقافة والفكر دوراً وتأثيراً أكبر وأهم من دور وتأثير ومكانة الوجود الاجتماعي في العلاقة بين الفكر والواقع. ويمكنكم العودة إلى متن البحث/

المحاضرات، وهو هنا يلتقي مع الرؤية المثالية الموضوعية ضمن الرؤية الفلسفية العامة لها، وهو حقه في الانحياز المعرفي والفلسفي، حيث لا يمكنك في القراءة/ الرؤية الفلسفية، للذات وللغير وللوجود وللحياة عامة، سوى أن تكون إما مع الفلسفة المثالية بتعبيراتها المختلفة (ذاتية/ موضوعية)، أو مع الفلسفة المادية (الاقتصادية/ أو المادية الجدلية التاريخية)، من أي موقف أو موقع فكري/ أيديولوجي، انطلقت: وطني، قومي إسلامي، ليبرالي، يساري

وهناك العديد من المفاهيم والأفكار التي بحثها قاسم الوزير، بعقل الباحث المستنير العقلاني النقدي، والتي تؤكد منزهه أو نزوعه المعرفي والفكري الاستقلالي في الرؤية للذات، وللواقع، وللآخر، لا يتسع لها هذا المقام والمقال. وفي ختام فقرة الاستقلالية في التفكير، من المهم التأكيد أن حالة الاستقلالية في الفكر وفي المعرفة عموماً هي استقلالية نسبية، فحركة وعملية التفاعل الذاتي، والإنساني للفرد والجماعة على مستوى المعرفة والفكر، والحضارة، هي حالة مستمرة في التفاعل والتلاحق والتكامل، وتبقى حدود الاستقلالية في حدود الظاهرة أو الحالة النسبية، ذلك أن قاسم الوزير نجد تفاعله المعرفي، والفكري مع رواد النهضة العربية المعاصرة، ومع غيرهم من التيارات والاتجاهات المعرفية والنظرية والفكرية، ما يزال قائماً ومستمراً وإن بصورة فكرية وإبداعية تعكس المرحلة التطورية والحضارية التي تعيشها اليمن والمنطقة العربية والعالم، فهو لم يقف عند أسئلة النهضة كقضايا معرفية، بل هو ربطها - كما سبقت الإشارة - بشروطها وقوانينها وسننها، كما سماها ابن الوزير، والتي أخذ بها ودعا للأخذ بها، وهذا بحد ذاته شكل من أشكال الاستقلالية في التفكير

## رؤيته للآخر المعرفي والفكري والسياسي

من يتمعن في الفقرة السالفة حول قاسم الوزير والاستقلالية في التفكير، سيجدها ملتحمة أو مرتبطة بفقرة الموقف من الآخر المعرفي والفكري والسياسي، فالاستقلالية في التفكير وفي الفكر، لا تعني القطيعة، أو العدمية والانفصال المطلق عن الآخر على أي مستوى كان ذلك الآخر.. الآخر الذات (الشخص) أو الآخر المجتمع (الواقع) أو الآخر الفكرة. وفي الحقيقة إن ما استدعاني لتقديم أو مقارنة هاتين الفقرتين أو العنوانين، إنما هو مطالعتي لشعر قاسم الوزير، وتحديد اطلاعي لفكره ورؤيته الموزعة على محاضراته التي قدم معظمها في "مركز الحوار العربي، وفي غيره من المنتديات الفكرية، وللباحث قاسم الوزير يعود الفضل في أنه فتح ذهني على مقارنته، وأن أبحاثه من خلال هذين العنوانين/ المبحثين، اللذين أجد معناهما حاضراً في متن وسطور كتاباته/ محاضراته

في تقديري أن قاسم الوزير ذو بصيرة نافذة تنظر للبعيد، له تجربة حياتية وتجربة معرفية عميقة وواسعة، هو -حقاً- باحث يمتلك أدوات البحث، إلى جانب لغة أدبية وفكرية رصينة وسلسلة، يطوعها في الإنتاج البحثي والفكري الذي يريد، دون إنكاره انخيازه وتوافقه مع رؤى بعينها يجد نفسه فيها، أو قريباً منها، ويسعى جاهداً لتقديمها وتعميم نشرها بصورة جديدة تستوعب قضايا العصر الراهن في صورة أعمال رموز النهضة العربية في صورة المفكر العربي الإسلامي/ القومي (القومية الإسلامية)، جمال الدين الأفغاني، والإمام المجتهد الإصلاحية محمد عبده، والمفكر

المعاصر/ التنويري بامتياز “مالك بن نبي، الذي نجده حاضراً في العديد من صفحات كتاب “حرث في حقول المعرفة، فقد استوعبه إبداعياً، وعرض أفكاره وتبناها بصورة خلاقة، مضيفاً إليها ما عنده وما يمتلكه من رؤى خاصة به، ولذلك أكرر القول: إننا مع قاسم الوزير، نجد أنفسنا أمام شخصية معرفية وفكرية وسياسية متميزة، قرأ واستوعب الرؤى الأخرى الفلسفية المثالية والمادية، وغيرها من الرؤى والنظريات، استوعبها وهضمها وتمثلها إبداعياً في معظم ما كتب، وهذا يعكس المنحى الإبداعي النقدي في عقله، الذي يستوعب ويتمثل ويفهم الآخر المعرفي والفكري والسياسي، بل ويفهمه، ولا يصطنع قطيعة عدمية مع كل ذلك الآخر، وبخاصة الآخر على المستوى الوطني اليمني والعربي، بل حتى من لا يتفق معهم فلسفياً وفكرياً ومذهبياً ودينياً

وقد مررنا في عرض سريع كيف تعاطى وفهم الفلسفات الأخرى، وقدم خلاصة اجتهاده وفهمه لها بعيداً عن الأفكار الحدية والقطعية، والأحكام الإطلاقية القاتلة. يختلف وينقد من موقع الاعتراف بالآخر، وبحقه في أن يكون ما يريد، بل وبحقه في الخطأ، وهو يجد ذاته موقف فلسفي، ومعرفي وحياتي متقدم إنسانياً على الكثيرين ممن يدعون الحداثة والتقدمية والثورية

والسبب في ذلك - كما أتصور - يعود لجملة عوامل ذاتية وفكرية واجتماعية وتاريخية

إن الموقف المفتوح والمتسامح مع الآخر، والقبول بالتعدد والتنوع والاختلاف، بدأ مبكراً في تفكير بيت الوزير (الأبناء) في صورة الأساتذة: إبراهيم الوزير، وزيد الوزير، وقاسم الوزير، وعباس الوزير، الذين برزوا وظهروا في المشهد الفكري والثقافي والسياسي، وجميعهم كانوا على صلة حية وعميقة بالفكر الزيدي الاجتهادي - بهذه الصورة أو تلك- وكان لتجربة حركة ١٩٤٨م الدستورية وما صاحبها من فشل ومن إعدامات وسجون ومرارات عاش الإخوة من أبناء الوزير - كما غيرهم- قسوتها وبشاعتها في سجون "قروسطية، هي الوجه العملي لمعنى الموت في الحياة

إن هذه التجربة على عنفها ومراراتها، أكسبتهم خبرة معرفية وحياتية بالناس، وبالأفكار.. تعلموا منها الكثير، ولم يأت تشكيلهم لحزب "اتحاد القوى الشعبية، ١٩٦١م، في صيغته الوسطية، والذي جمع في داخل بناء التنظيمية، أطياً متعددة من القوى الاجتماعية والسياسية والطبقية، ومن الاتجاهات الفكرية المختلفة من الوسط المعتدل، ومن وسط اليمين الفكري والسياسي، ومن الأسماء القومية، ومن اليسار -دون ذكر أسماء- وكان ذلك بعد خروجهم من السجن ووصولهم إلى عدن وإلى مصر، وبعد ذلك إلى أمريكا وبريطانيا، ووقوفهم كتنظيم "اتحاد القوى الشعبية في حالة وسط بين الجمهورية والملكية (الدولة الإسلامية)، فلا هم مع الجمهورية القائمة إلى النهاية بسبب ملاحظاتهم على عنف الثورة كما يقول البعض، ولا هم مع عودة الإمامة التي فقدت صلاحيتها وشرعيتها التاريخية على الصعد كافة

ويمكنني القول إن قاسم الوزير، عليه رحمة الله، هو الأكثر اشتغالاً بالفكر التنويري الحدائثي المعاصر في اليمن، وفي المنطقة العربية، وكذلك الأستاذ زيد الوزير، كما يمكنني رد تلك الحالة من القبول بالآخر والمغاير بين أبناء الوزير - كذلك - إلى أنهم كأسرة وأبناء جاؤوا من خليط اجتماعي أسري يعكس المشترك الوطني والاجتماعي اليمني، من أب من أسرة علوية "هاشمية لها مقامها الاجتماعي والسياسي الكبير في هذا الوسط، ومن أم قحطانية ومن أسرة قبلية (آل أبو رأس) لها مكانتها، ودورها في الوسط القبلي والاجتماعي والوطني العام، وهذه الخلطة الاجتماعية الوطنية قطعاً تركت أثرها فيهم، وشكلت عاملاً مساعداً إضافياً في تحررهم من ضغوط أيديولوجية "الهاشمية السياسية، وهو ما يقوله كل مسار حركتهم الفكرية والسياسية - اللاحق - حتى تأسيسهم لصحيفة "الشورى التي يمكنني القول إنها شكلت علامة فكرية وسياسية وإعلامية مضيئة في الحياة الصحافية اليمنية المعاصرة، صحيفة، وحزب استوعبا في إطارهما الرموز الفكرية والسياسية والإعلامية من كل اتجاهات الوطن، وهو أمر وتوجه نبيل يحسب لهم (الأسرة/ الأبناء)، والأهم أنه يؤكد بالفعل وليس بالقول انخيازهم الفكري والسياسي والعملية لخيار التعددية والقبول بالآخر في واقع الممارسة، والوقوف مع وفي صف المدنية والمواطنة والحدائث والتحديث، وهو المنحى أو البعد الذي أجده عندهم جميعاً بدون استثناء، ويمكن أن تكون اشتغالات الفقيه قاسم الوزير بقضايا وإشكالات الفكر المعاصر، والنهوض العربي خصوصاً، هي التي قد تعطي انطباعاً غير دقيق من أنه الأكثر قبولاً

بالآخر، وبالحدائثة، على أن الشيء الأكيد أنه الأكثر تماساً وتمثلاً لفكر الحدائثة على الأقل في نتاجه البسيط أو المحدود الذي وصل إلينا مما تم جمعه ونشره

تقديري أن حالة القبول بالآخر، والتسامح هي حالة يتوحد ويلتقي عندها الجميع؛ أقصد الإخوة/ الأبناء، وما يؤكد هذا المعنى هو اشتغالهم جميعاً بالإنتاج المعرفي والفكري والثقافي والسياسي الإصلاحي والتنويري، الذي يؤكد هذا المعنى الذي نذهب إليه، وقاسم الوزير في طليعتهم. وجدت نفسي مضطراً أو أمام طريق إجباري وأنا أكتب عن موقف الأستاذ قاسم بن علي الوزير من الآخر، في الفكر، وفي السياسة، أن أبسط هذه المقدمة أو الخلفية الذاتية والتاريخية لإجلاء الصورة أكثر حول الموقف المفتوح والتعددي في موقف قاسم الوزير -وجميع إخوته- من الآخر ومن المغاير في الوطن وفي خارجه، أي الآخر في الذات وفي الواقع وفي الفكر

وقد وجدت هذا الموقف جلياً وواضحاً في صفحات كتاب "حرث في حقول المعرفة، وكنت أتمنى لو يتم جمع كل مساهمات الأستاذ قاسم الوزير في هذا المضمار؛ حتى يتمكن المهتمون والاختصاصيون من الاطلاع عليها، وتقديم ملاحظاتهم أو قراءاتهم حولها، على أنني أجد في الكتاب المشار إليه ما يفني بالغرض، ويقدم صورة واضحة عن منطق ومنهج تفكيره حول موقفه المتميز والمستنير من الآخر في الفكر، والآخر في الواقع وفي الحضارة التي يسهم الجميع في بنائها كل من موقعه وموقفه، حيث هو يقف ويفكر

وهنا أجد لزاماً عليّ لتوضيح موقف قاسم الوزير من الآخر في الفكر وفي السياسة وفي الواقع، أن أعود إلى ما دَوَّنه من محاورات ومحاضرات حول ذلك، وكلها مرتبطة ومنطلقة من سؤال النهضة العربية في تجلياتها المعاصرة

إن تتبع أو متابعة كل تفاصيل موقف الباحث قاسم الوزير من الآخر بمستويات هذا الآخر المتعددة والمختلفة، كما وردت أو كما احتواها كتابه “حرث في حقول المعرفة، قد لا يكون متاحاً أو ممكناً في مثل هذه القراءة الاستعراضية، لأن ذلك قد يستغرق كتاباً موازياً، على أنني سأحاول أن أركز وأقف عند بعض ما يشير ويدل على ذلك في رؤيته وفي منطق تفكيره، باختيار بعض القضايا المعرفية، والفكرية ذات الطابع الإشكالي التي تناولها بعقل إبداعي نقدي مفتوح، والتي تقول لنا فصل الخطاب في موقفه من الآخر المعرفي والديني والحضاري

وما أثار انتباهي وإعجابي معاً في معالجاته النظرية وفي منهج تفكيره، هو موقفه من الحضارة الغربية، وهو المثقف والباحث الذي وجدته أو رأيت فيه أنه يجمع بين الوطني اليمني، والإسلامي النهضوي المستنير، والقومي العربي التحرري، القريب في الفكر العام من اليساري التقدمي - بهذه

الصورة أو تلك- وذلك حقيقة هو ما خرجت به من اطلاعي على كل ما كتبه في الشعر والنثر (الفكر)، وهذه الخلطة السحرية الجامعة بين الوطني والقومي اليساري والإسلامي المتنور والأُممي الإنساني، هي - في تصوري - ما يفسر ويشرح سعة أفقه المعرفي والفكري في النظرة للذات وللآخر وللواقع

وأتصور أن قاسم الوزير اليوم، في ما أنتجه من معرفة وفكر، هو من الأسماء النادرة  
 بمنياً وعربياً في هذا الاتجاه، بعد أن أصبح التعصب والانحيازات الأيديولوجية الحدية،  
 في الفكر والسياسة، عنواناً للمرحلة، وواقعاً قائماً في بلادنا، بخاصة بعد عودة  
 المذهبية والطائفية والإمامية، والقبلية والجهوية والمناطقية في صيغتها المتسيدة  
 والمهيمنة على المشهد الفكري والثقافي والسياسي، ليس في بلادنا فحسب، بل وفي  
 كل المنطقة العربية - بدرجات متفاوتة- وهنا في تقديري تكمن قيمة موقف قاسم  
 الوزير من الآخر، الذي سنأتي على بعض معانيه المعرفية، ذلك أن البحث عن  
 الآخر، في الموقف المعرفي والفكري والثقافي والسياسي، هو خلاصة الخلاصة لقراءة  
 الذاتية الإنسانية في رحلة بحثها عن نفسها، وفي موقفها من الآخر، عند هذا  
 الباحث أو ذاك، ومن هذا المنظور والخلفية سأحاول تقديم مقارنة -موجزة ومكثفة-  
 معرفية/ فكرية للأستاذ قاسم الوزير في موقفه المعرفي والفكري من الآخر - كما  
 سبقت الإشارة- من خلال بعض المفاهيم والأفكار والقضايا الإشكالية التي تناولها  
 في كتابه

قاسم بن علي الوزير، لحظة متحولة ومتطورة، جامعة - كما سبقت الإشارة- بين  
 الوطني والقومي والإسلامي المتنور، يرى الإسلام في خلفيته الثقافية والحضارية ضمن  
 رؤية ومنطق لكل مسلم، ولكل إنسان (دينه الخاص)، والقومية "العروبة، في  
 خلفيتها الحضارية الإسلامية، تجمع كل العرب، في نطاقها/ نطاقهم الوطني/ القومي  
 الحضاري الشامل (الحضارة الإسلامية)، وهو منطق تفكير نقدي وتقدمي في حركته  
 التاريخية، نجد تظهره الأكمل مع مالك بن نبي، كما نجدده عند غيره من رموز

النهضة القومية العربية الأوائل، من المسيحيين العرب - وهم كُثُر - الذين حملوا لواء  
نشر فكرة وقضية النهضة القومية العربية بعيداً عن العصبوية الإسلامية (الإخوانية/  
والسلفية الدينية)

وبهذا المعنى أجد الباحث قاسم بن علي الوزير، يدخل ويندرج ضمن هذه الأسماء  
وهذا الرعيل من الباحثين - بهذه الدرجة أو تلك - ومن هنا رفضه وكرهته للتعصب  
المذهبي والديني والقومي والقبلي من باب أولى، بقي يفكر ويتحرك ضمن منطقة  
جامعة من الفكر ومن الحركة

وفي هذا السياق نجده يكرم ويعظم دور "مكرم عبيد القبطي المسيحي، أحد أهم  
أقطاب (حزب الوفد) في مصر، الذي دعا رئيسه، ورئيس وزراء مصر، في حينه،  
مصطفى النحاس، إلى ضرورة تأسيس "الجامعة العربية، من الدول المستقلة في ذلك  
الحين، وقبل إعلان قيام الجامعة العربية بعام من ذلك التاريخ، أي في عام ١٩٤٤م،  
وهو الحزب المصري، الذي جمع بين الوطنية المصرية "البرجوازية، والقومية العربية،  
والذي أكد على أن "الدين لله والوطن للجميع، ضمن شعار "الهلال مع  
الصليب، في قلب الثورة المصرية التحررية ١٩١٩م

وفي هذا السياق، يورد الأستاذ قاسم الوزير، بعض ما قاله مكرم عبيد: "أنا قبطي  
-مسيحي - حضارتي - حضارته- الإسلام، أي أنه احتفظ بهويته الدينية الخاصة،  
في إطار خلفيته الثقافية والحضارية الإسلامية

وفي هذا السياق يرى قاسم الوزير أن سقوط أو فشل قضية الوحدة العربية، أنها ارتبطت بالأوهام الأيديولوجية، وبدون مشروع ملموس لبناء الدولة، وبهذا المعنى هو لا يدين الوحدة العربية في ذاتها ولذاتها، بل المدعين بالوحدة بدون رؤية ولا مشروع لقيام دولة الوحدة، ودليله على ذلك تجربة دولة الاستقلال الوطنية والقومية، التي تحولت إلى استبداد، ولم تقطع علاقات التبعية بالغرب الاستعماري وحضارته الاستبدادية التي تقاطع معها في أكثر من مكان طيلة القرون الستة الماضية وحتى اللحظة

ومن هنا قراءته النقدية المعرفية للحضارة الغربية، ورؤيته الخاصة للحضارة العالمية الإنسانية الواحدة المنشودة، ونظرته لها ليس باعتبارها آخر ونقيضاً لنا كعرب وإسلام، كما نطالع ذلك في بعض كتابات الإسلام السياسي المعاصر باتجاهاته المختلفة (الإخوانية، والسلفية، والجهادية التكفيرية)، وكما نجد ذلك في نظرة بعض القوميين العصبويين (الشوفيين) أو نظرة الأيديولوجية اليسارية المتطرفة

فهو لا يقيم في قراءته المعرفية/ الفكرية سوراً لا إنسانياً (جغرافياً أو عرقياً أو أيديولوجياً) بين الشرق والغرب، بين الإسلام والمسيحية تحديداً، ولا مع أي دين، ومن أنهما -أي الشرق والغرب- لا يلتقيان كما هي عند بعض الفلاسفة والمفكرين العنصريين الغربيين، المعادين جملة للآخر بما فيه الآخر الإسلامي، وإنتاج البعض لأيديولوجية "الإسلاموفوبيا"

ومن خلال قراءتي المعرفية والفكرية أراه يقف منفتحاً ومتسامحاً مع الآخر، الآخر في الداخل الوطني اليمني، والآخر القومي، والديني (الأجنبي)، دون تعصب ولا انحيازات أيديولوجية مسبقة، ومن هنا رؤيته المتميزة لمفهوم الآخر في صورة المسيحية واليهودية كأديان، وكذا موقفه المتفتح من الغرب، وتحديدًا من الحضارة الغربية، فرؤيته المعرفية والفكرية والسياسية تفرق بين الحضارة الغربية كحضارة، وبين “المركزية الغربية الاستعمارية، فهو كما يكتب ويعلن ذلك، من أنه ضد الاستعمار، وليس ضد الحضارة الغربية، ولكم أن تعودوا حول ذلك إلى كتاباته/ محاضراته التي ألقاها في “مركز الحوار العربي في واشنطن/ أمريكا

بالنسبة لابن الوزير، من المهم، عنده، بل يجب التفريق بين النظام الرأسمالي، وبين الحضارة الغربية

فعلى سبيل المثال، هو يتساءل: “عن أي غرب نتحدث؟، أن أوروبا شرق بالنسبة لأمريكا واليابان غرب بالنسبة لأمريكا، ولكنها شرق بالنسبة لأوروبا، والعالم الإسلامي شرق هنا وغرب هناك. ومادامت الأرض كروية فإن الغرب والشرق جغرافياً هما أمر نسبي تبعاً لمطلع الشمس ومغربها فهناك إذن في الواقع أكثر من شرق وأكثر من غرب، ويتساءل ما هو المقصود بالحضارة الغربية؟ ويقول: لا يمكن أن نعثر على إجابة صحيحة إذا حصرنا البحث في مكان جغرافي منعزل، أيًا كانت تسميته، أو جنس معين أيًا كانت دعواه.. وإنما تصدق الإجابة حين نبحث عنها، إما في “المجال الحيوي مع” توينبي، أو ما نسميه “حقل الدراسة، أو مع “بن نبي

على مستوى حضارة، ضمن نظريته في “النشاط المشترك المولد للحضارة في إطار مفهوم الدورة التاريخية لها عنده أو في منطقة “فكر كما عند “ماسيس الذي نختار هنا تعريفه للغرب، إذ يقول: “إنَّ الغرب فكرة تعني شيئاً تشير إليه

ويوضح ذلك أكثر من تقديمه لتعريف روجيه جارودي حول مفهومه للغرب: “الغرب إذن ليس تعريفاً جغرافياً، ولكنه بتلك المجموعة من القيم والقوى والثقافات والماديات التي تميزه كحضارة متقدمة في الوقت الراهن ، أي أن صفة التقدم في الحضارة -أية حضارة- مرتبطة بالدور وبالقيم، أي بالإنجاز الحضاري الإنساني، وليس صفة مطلقة بهذه الحضارة أو تلك، اليوم البعد والعمق الاستعماري في الغرب الرأسمالي -النيوليبرالي- يحاول أن يوظف منجزات الحضارة/ العلم لصالح إعادة إنتاج وتنمية الظاهرة الاستعمارية، في صورة فرض استمرار هيمنة النظام الأحادي القطبية أي أن الحضارة الغربية في عقل وفكر قاسم الوزير، ليست هي جغرافية ولا عرقاً ولا هي دينا “المسيحية.. الحضارة الغربية عنده بقدر ما هي موضوعياً واقتصادياً نتاج بنية رأسمالية متطورة، فإنه من الصعب اختصارها أو اختزالها في الصيغة المسيحية، كما هي عند بعض المفكرين، هي باختصار -كذلك- خلاصة إنسانية للحضارات العالمية وللإنتاج المعرفي والمادي الإنساني المشترك للبشرية جمعاء على طريق إنتاج وصناعة حضارة عالمية إنسانية واحدة، وهو ما ألمح إليه بوضوح معرفي وفكري قاسم الوزير، قائلاً: “علينا أن ندرك أن هذا الميلاد -أي للحضارة- ليس انبثاقاً من العدم، وإنما هو سلالة من رحم حضارة سابقة أدركتها الشيخوخة

فأسلمت ميراثها -ويمكن القول بعض جيناتها أيضاً- إلى حضارة جديدة عبر أطراد تاريخي يتضمن جملة الشروط والظروف في مجتمع معين هو بحكم ذلك -على وجه الدقة- حاضنة هذه الحضارة الوليدة التي تنتسب إليه

إن الحضارة ليست دوائر مغلقة، ولا كل حضارة جزيرة مستقلة بذاتها عن الحضارات الأخرى السابقة أو اللاحقة، إن الحضارة تفاعل مستمر وتواصل متداخل “تأثراً وتأثيراً وامتداد من سابق للاحق على أكثر من وجه، وليست الحضارة الغربية بدءاً بين الحضارات، بل هي واحدة من هذه السلالة التاريخية التي أبدعها الإنسان

إن هذا الوعي والإدراك والفهم المعرفي والفكري الحضاري في عقل قاسم بن الوزير، هو الذي يقول لنا بوضوح مدى سعة، وعمق رؤيته وتفكيره المفتوح على الآخر: الآخر الذات (الإنسان)، الآخر الواقع (المجتمع)، والآخر الفكرة

لم تتشكل هذه الرؤية المعرفية والفكرية والواقعية المتقدمة من الآخر عند قاسم الوزير صدفة أو فجأة، بل من خلال اطلاع واسع وعميق، أولاً بالتراث الفكري والفقهي، وبالتاريخ السياسي والاجتماعي العربي الإسلامي، وصولاً إلى استيعابه فكر رواد النهضة العربية وأسئلتهم الحائرة، فضلاً عن اطلاعه على نتاج رواد الفكر التنويري العالمي، حول قضية وقصة الحضارة كما هي عند “ويل ديورانت وتوينبي واشبنجلر، وقبلهم جميعاً بقرون طويلة رؤية ابن خلدون الاجتماعية والتاريخية حول فلسفة التاريخ

إن قاسم الوزير يدعونا في كل ما كتبه وفي محاضراته، على قلة ما وصل إلينا من نتاجه، إلى أهمية وضرورة الاقتراب من الآخر، معرفته وفهمه وتمثله واستيعابه نقدياً، كذات وواقع وحضارة، بعيداً عن الذوبان فيه، وبعيداً كذلك عن إنكار وجوده من خلال رفضه العدمي (السليبي) دون معرفته، وهو ما أنتج عند البعض حالة أو ظاهرة “الخصوصية الفارغة من المعنى

أو ما يسميه البعض “الأصالة والمعاصرة ضمن منطق تفكير تابع وملحق بالآخر الاستعماري، لم ينتج في الواقع “أصالة ولا “معاصرة، بل تكريس التبعية أكثر فأكثر، وهو ما نعيشه حتى اللحظة. ولذلك نجد أنفسنا نكرر لوك كلام عن “الخصوصية والأصالة والمعاصرة في واقع قبول بالاستعمار وتبعية اقتصادية وسياسية له، وهو ما يسميه قاسم الوزير “عقدة الخوف وعقدة النقص، داعياً العرب إلى “المشاركة الإيجابية في إنجازات الحضارة العالمية العامة القائمة. وهذا المعنى ذاته هو ما يطلق عليه مالك بن نبي “القابلية للاستعمار، وضرورة الانتقال للمشاركة الفاعلة في صناعة الإنجاز الحضاري العالمي، من موقع الند، وليس التابع

وفي هذا السياق، يرى قاسم الوزير أن سقوط الوحدة العربية كسياسة ونظام حكم ودولة، يرتبط بتلك التبعية والتقليد للآخر، ومن أننا لم نمتلك رؤية ولا مشروعاً، وبالنتيجة لم نمتلك الأدوات العملية لإنجاز الوحدة. وحدة ارتبطت بالأوهام، والأسوأ العمل ضدها، أي ضد الوحدة، في واقع الممارسة. وبهذا المعنى، فإن قاسم الوزير في رؤيته ومحاضراته لا يدين الوحدة، بل المدعين زوراً بالوحدة. ولذلك كان يكتب حتى

لحظة رحيله أن مشكلتنا ليست مع الغرب ولا مع الحضارة الغربية (كحضارة)، بل  
 “ضد الاستعمار وفلسفته المنحلة اللاأخلاقية

ومن هنا تأكيده على القطيعة مع الاستعمار، ورفض هيمنته في واقع الممارسة. نقبل  
 بالحضارة نعم، على أن الأهم أن نتحول إلى مشاركين فاعلين في إنجازاتها، وذلك لن  
 يكون إلا بالعودة الواعية للذات، والاندماج بمصالح مجتمعاتنا على طريق بناء الدولة  
 المدنية الديمقراطية التي تتسع للجميع على قاعدة المواطنة، من خلال مشروع  
 نهضوي وطني/ قومي بأفاق تقدمية إنسانية

ذلك أن رؤيته “لتصفية الاستعمار” لا تعني تصفية وجوده العسكري ومؤسساته  
 فقط، ولكن بشكل أهم تصفية ثقافته وفلسفته ومنطقه، ليس في البلدان التي  
 نكبت به فحسب، وإنما في عقر داره أيضاً، تصفية الفكر الاستعماري (الاستعماري  
 العدواني) لدى المستعمر، وتصفية الشعور الانهزامي (الدوني الاستسلامي)  
 والانتقامي لدى المستعمر، ولكل من الأمرين شروطه وأسلوبه بحيث ينشأ عالم  
 جديد

وهي دعوة فكرية وسياسية وعملية لميلاد نظام عالمي جديد متعدد القطبية، وهو ما  
 نراه ونطالعه أمامنا اليوم في صورة الطوفان الفلسطيني/ غزة، وحرب الإبادة، وفي  
 صورة الحراك الطلابي العالمي، واصطفاف العالم كله مع غزة، باعتبارها مقاومة  
 للاحتلال والاستعمار. وقاسم الوزير بموقفه ذلك يؤكد أنه لا يرفض الحضارة، بل  
 يرفض الاستعمار وهيمنته

ومن هنا تأكيد في أكثر من موضع على أن الفقيه قاسم الوزير لحظة متطورة جامعة بين الإسلامي التنويري النهضوي والقومي التحرري واليساري التقدمي، على طريق ميلاد حضارة عالمية إنسانية واحدة، تجمع الشرق والغرب، الشمال والجنوب، على كل التناقضات الموضوعية والاقتصادية والطبقية التي تبرز في سياق صناعة وإنتاج هذه الحضارة في طابعها الإنساني الواحد، على قاعدة التعدد والتنوع، والقبول بالآخر المغاير، الوحدة في إطار المغايرة، أي القبول بالآخر المختلف كما هو

ولا أجد الشاعر والمثقف والباحث، قاسم الوزير، إلا داعياً لهذا التوجه بعيداً عن التعصب المذهبي/ الديني والطائفي وبعيداً عن الشوفينية القومية والقبلية والجهوية والمناطقية

ويبقى موقفه المقاوم ضد الصهيونية وضد التطبيع واضحاً ومعلناً بعيداً عن شعار "الموت للغرب ولأمريكا وإسرائيل، مؤكداً على معنى المقاومة، ورفضاً للمساومة والاستسلام باسم "السلام، بعد وضع البعض "المفاوضات ضد" المقاومة وفي مواجهتها

هذه باختصار هي تحيتي وقراءتي للفقيه قاسم بن علي الوزير، شاعراً وناثراً (مفكراً)، وهي لا تصل إلى مستوى القراءة البحثية المعمقة لما كتبه، ولما يستحقه، شعراً ونثراً، على أنها جهد المحب للمعرفة والفكر، ولمن ساهموا في إثراء حياتنا بالجديد والمثمر والمفيد

هي قراءة أكدت على معنى الاتفاق مع الكثير مما كتبه الفقيد، وتبقى هناك بعض التفاصيل الصغيرة المختلف حول معناها ومبناها، وهذا أمر طبيعي في الحوار بين الأفكار، وإلا تحولنا إلى نسخة وطبعة “دوجما، مكررة من بعضنا البعض تتوقف معها المعرفة الإبداعية عن الإنتاج

كان قاسم الوزير ينتظر شروق الشمس من عتمة طال ليلها، على أنني أتصور أنه ودع اللحظات الأخيرة من تعب الجسد بفرح العظمة الأسطورية الصاعدة من غزة/ فلسطين، باتجاه صناعة وصياغة ميلاد عالم جديد متعدد القطبية، يوسع من نطاق مساحة الاعتراف بالآخر، على قاعدة حضارة عالمية إنسانية واحدة يشترك الجميع في صناعتها



## بين يدي كتاب حرث في حقول المعرفة

أحمد ناجي أحمد النبهاني

في وداع الشاعر والمثقف النبيل القاسم بن علي الوزير يهمني أن أتوقف عند آخر إصداراته والتي تحمل عنوان حرث في حقول المعرفة وهو كتاب حصلت عليه من الصديق العزيز المثقف والناقد والمفكر النبيل الأستاذ حسن الدولة

حرث في حقول المعرفة هذا الكتاب من إصدارات مركز التراث والبحوث اليمني صنعاء الطبعة الأولى ٢٠٢٢م

كتب مقدمة الكتاب رئيس مركز التراث والبحوث اليمني الأستاذ والمفكر زيد بن علي الوزير

وهناك توطئة كتبها الأستاذ القاسم بن علي الوزير. وفي هذه التوطئة إشارة إلى أن هذا الكتاب على الرغم من تعدد عناوينه إلا أن كل تلك العناوين تدور حول موضوع واحد وقضية واحدة هي عصر النهضة تلك القضية التي شغلت المفكرين في القرن التاسع عشر الميلادي

يتكون الكتاب من ١٦٧ صفحة من القطع الكبير وتناقش عناوين الكتاب المفردات الآتية

- الموقف من الحضارة العربية
- مراجعات وتأملات فكرية مفترق فريقين
- أولويات للنهضة العربية
- أفكار حول الإصلاح والتغيير في البلاد العربية
- عوامل الانقسام والتجزئة في الأمة والمجتمع
- أسباب العنف في المجتمع
- جرائر الديكتاتورية... العراق نموذجا
- الفقه في غفوة والعقل في إجازة
- نقاش حول الموقف من الحضارة العربية

الكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات ألقى المؤلف معظم تلك المحاضرات في مركز الحوار العربي في منطقة واشنطن الكبرى

ومن ضمن هذه المحاضرات الموقف من الغرب والحضارة الغربية

الكتابة بالنسبة للمؤلف كما هو واضح من عنوان الكتاب هي حث في حقول المعرفة حيث يستعرض المؤلف مفهوم الحضارة والغرب من حيث أن الحضارة حسب تعريف مالك بن نبي هي: مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادها في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه فالمدرسة والمعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات والأمن في جميع صورته عبر سائر تراب

القطر، واحترام شخصية الفرد. تمثل جميعها أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه (١)

وأصبح الشرق يعني المنطقة المستعمرة بفتح الميم والراء بينما يعني الغرب المنطقة المستعمرة (٢) بضم الميم وتسكين السين وفتح التاء وتسكين العين وكسر الميم والراء ويشير المؤلف إلى أن مفهوم الشرق والغرب مفهوم نسبي

ولذلك فإن اليابان وإن كانت محسوبة على الشرق ثقافياً فإنها محسوبة على الغرب حضارياً

ويمكن أن نضيف إلى هذا المفهوم أن كوريا الجنوبية محسوبة على الغرب حضارياً بينما كوريا الشمالية محسوبة على الغرب

ولذلك يرى القاسم الوزير أن: أوروبا شرق بالنسبة لأمريكا ولكنها شرق بالنسبة لأوروبا، والعالم الإسلامي شرق هنا وغرب هناك

ومادامت الأرض كروية فإن الشرق والغرب جغرافياً أمر نسبي تبعاً لمطلع الشمس ومغربها (٣)

ولذلك نستطيع القول أن المؤلف يميل إلى القول أن مصطلح الشرق والغرب مصطلح نسبي وان مصطلح الشمال والجنوب يحل مكان مصطلح الشرق والغرب للدلالة ذاتها على عالم متقدم وآخر متخلف

وفي كل الأحوال ينطلق المؤلف من رؤية مفادها أن الحضارة هي إرث إنساني مشترك تقوم العلاقة بين دوراتها المختلفة على أساس التكامل حتى تراث كل حضارة جديدة عوامل البقاء من سابقتها وتضيف إليها من إبداعها ثم تسلمها إلى أخرى وهكذا

ويخلص المؤلف إلى نتيجة مفادها أن الموقف من الحضارة الغربية يبدأ بفهمها أولاً (٤) ثم أن الموقف من الحضارة الغربية يمر عبر المشاركة الإيجابية في إنجازاتها العامة ثم التقييم والتقييم الذي يعالج أمراضها ويصحح انحرافاتهما (٥)

ويقول لا ينبغي أن يكون الموقف ضد الغرب ولا ضد ما نسميه الحضارة الغربية وإنما ضد الاستعمار (٦) وفلسفته المنحلة ومبرراته وينفذ المؤلف إلى مظاهر أزمة الحضارة الغربية والمتمثلة بالماركسية كأحد مخرجات الحضارة الغربية في موقفها غير الودي تجاه الدين (٧)

في حين يتناول الرأسمالية كمظهر من مظاهر أزمة الحضارة الغربية ويستشهد بتوصيف للمفكر الإسلامي مالك بن نبي عن مادية البرجوازية حيث يقول مالك بن نبي

عن مادية البرجوازية فإن الشيوعية تعبر عن مادية البرولوتاريا، وقد تميزت الأولى. بترك الدين قضية شخصية مكفولة في هذه الحدود أي ضمن الحريات الخاصة المرتبطة بجوهر. النظام الرأسمالي نفسه دون أن يكون لها دخل في الحياة بأنشطتها وقوانينها وأنظمتها المختلفة

في حين تميزت الثانية بنفي تلك القضية من المجالين الشخصي والاجتماعي وإعلان الحرب عليها وتحريمها على الفرد. في نطاق حرياته الخاصة ومعتقداته وعلى المجتمع في مجال علاقاته وأفكاره ومحال نشاطاته ولكن الموقف يبقى واحدا وهو الأساس المادي البحت الذي أدى إلى أن يصبح غاية الوجود هي الحصول على أكبر قدر من المتعة أو الرفاهية ووسائلها

وأصبحت المصلحة ومن ثم هي المقياس والمعيار الذي تقوم على أساسه القوانين وترسم السياسة ويتحرك في إطاره نشاط الفرد وتتم دورة المجتمع (٨)

ويخلص المؤلف في بحثه حول الحضارة الغربية إلى أن التاريخ على مفترق طريقين:

إما عولمة: وتقوم على حق القوة وتستهدف السيطرة على العالم على أساس الاستغلال الاقتصادي والاستعلاء العنصري والهيمنة السياسية وهو اتجاه سيقود العالم إلى الفوضى ويدمر منجزات هذه الحضارة نفسها

وأما عالمية: توفرت لها كل الأسباب والوسائل والإرادة تقوم على مبدأ القوة للحق والكرامة للإنسان من حيث هو إنسان والمساواة بين البشر والعدل في العلاقات المختلفة داخل كل مجتمع وبين جميع المجتمعات (٩)

في كل الأحوال فإن أزمة الرأسمالية تكمن في طابعها الكولونيالي القائم على الهيمنة والتوسع ونهب خيرات الشعوب

وان الماركسية ليست إلا محاولة نقدية في تصويب مسار الرأسمالية ولكن الخطأ الجوهري من وجهة نظري يكمن في تدمير الطبقة الرأسمالية كطبقة منتجة للتقدم فإسقاط هذه الطبقة وإحلال الدولة مكانها هو الذي أدى إلى انتكاس البلدان التي تبنت المسار الماركسي للتقدم

وكان يمكن للرأسمالية أن تحقق إنجازا إنسانيا بالتفاتها إلى عوامل النقص ولكنها لم تفعل

وقد ساهم التنظير في صدام الحضارات وشيطة الإسلام والموقف العدواني من حق الشعب الفلسطيني في بناء دولته المستقلة والتدخل في كسر إرادة الشعوب ومصادرة حق الشعوب في اختيار طريقها للتطور ونهب ثروات الشعوب وتدمير العراق وسوريا وليبيا كل تلك الممارسات الإجرامية قد أدت إلى الوصول إلى نتيجة مفادها أن الرأسمالية ليست الطريق الآمن للتطور الإنساني وأنها على حد تصور الماركسية نتجه بسرعة إلى الإمبريالية باعتبارها أعلى مراحل الرأسمالية

ويهمنا هنا القول أن المؤلف يقدم قراءة نقدية للقرنين التاسع عشر والعشرين في سياق مراجعات وتأملات فكرية لقرن مضى وقرن اطل (١٠)

يتحدث المؤلف عن انهيار الإمبراطورية العثمانية. وعن محاولات ترميمها من خلال فكرة الجامعة الإسلامية التي تعني الحفاظ على الوحدة في إطار التنوع ويتحدث عن عصر النهضة وجهود جمال الأفغاني ومحمد عبده في التأسيس لفكر النهضة

ويتناول المرتكزات الأساسية لحركة التجديد من خلال التأكيد على الاجتهاد كقيمة حضارية

وللتأكيد على مقاومة الاستبداد وحق الأمة في اختيار حكامها على أساس العدل والحرية والشورى، ويتحدث عن التحرر من الاستعمار وإعادة الوحدة بين علوم الدين وعلوم الدنيا

والاهتمام بالعقل. وفتح باب الاجتهاد، ومن اجل تأصيل ذلك فقد أرسى الأفغاني ومحمد عبده مصادر المعرفة على النحو الآتي:

العقل

الحواس

العلم

الوحي (١١)

ويتناول المؤلف ملامح مشروع التجديد الذي أنتج

١. حركات التحرر من الاستعمار (ومن هذه النماذج الخطابي، المختار،

السنوسي ثورة ١٩١٩ في مصر، المهدي في السودان، واليمن الذي سجل

أول ثورة دستورية داخلية ضد التخلف عام ١٩٤٨م

٢. انطلاق الدعوات من اجل التغيير الاجتماعي على نسب مختلفة \_نشداننا

للعدالة الاجتماعية

٣. ارتفاع وتيرة الحريات السياسية والفكرية واتساع مساحتها في تطور مستمر

قد يتعثر لكنه ينهض متواصلا سيره على المستوى الفكري

وعلى المستوى السياسي تكونت مؤسسات المجتمع المدني من أحزاب وجمعيات ومؤسسات وهيئات ونقابات وحرية صحافة وقيام حكومات منتخبة ومجالس نيابية على ما فيها من نواقض كان يفترض أن تستكمل بالاستمرار والتجارب وانتشار الوعي والتعليم (١٢)

ويتحدث المؤلف عن دور الاستعمار في احتلال فلسطين وغرس إسرائيل في الخاصرة العربية

وتناول الانقلابات وأثرها السلبي على مستوى الأمة ويتحدث عن الديكتاتورية ويتحدث عن هزيمة ٥ يونية عام ١٩٦٧ وتوسع إسرائيل في احتلال أجزاء من مصر والأردن وسوريا

وخصص المؤلف فصلا كاملا حول أولويات للنهضة العربية والدعوة إلى تحرير العقول وتحرير الإرادة ويقاض الوعي وقدم فصلا كاملا تحت عنوان أفكار حول الإصلاح والتغيير في البلاد العربية

ثم خصص فصلا كاملا من اجل تجاوز عوامل الانقسام والتجزئة في الأمة والمجتمع وخصص فصلا كاملا حدد فيه أسباب العنف وسبل تجاوز تلك الأسباب في المجتمع

وتحدث في فصل كامل حول جرائر الديكتاتورية في المنطقة العربية

ثم خصص فصلا كاملا تناول فيه الفقه في غفوة والعقل في أجازة علينا ان نوظ  
الإنسان

وبالخلاصة بين يدي كتاب حرث في حقول المعرفة، وفعلا نحن أمام حرث في حقول  
المعرفة

والحرث ضرورة حضارية من اجل تهيئة الواقع لعملية نهوض حضاري واسع وكبير

وبالخلاصة نحن أمام كتاب يناقش قضايا جديرة بالاهتمام والمتابعة والحوار الهادف  
والبناء

الهوامش

١. قاسم بن علي الوزير حرث في حقول المعرفة مركز التراث والبحوث اليمني صنعاء الطبعة الأولى

١٤٤٣ هجرية / ٢٠٢٢ ميلادية صفحة ٢٠

٢. قاسم بن علي الوزير المصدر نفسه ص ٢١

٣. قاسم بن علي الوزير المصدر نفسه ص ٢٢

٤. قاسم بن علي الوزير المصدر نفسه ص ٢٦

٥. قاسم بن علي الوزير المصدر نفسه ص ٢٨

٦. قاسم بن علي الوزير المصدر نفسه ص ٢٩

٧. قاسم بن علي الوزير المصدر نفسه ص ٣١

٨. قاسم بن علي الوزير المرجع نفسه ص ٣١ و ٣٢

٩. قاسم بن علي الوزير المصدر نفسه ص ٣٦ و ٣٧

١٠. قاسم بن علي الوزير المصدر نفسه ص ٣٩

١١. قاسم بن علي الوزير المصدر نفسه من ص ٤٠ إلى ص ٤٨

١٢. قاسم بن علي الوزير المرجع نفسه ص ٥٨ و ٥٩

## المفكرون الأفاضل يولدون بعد رحيلهم..

### قراءة في فكر القاسم بن علي الوزير

#### حسن حمود الدولة

في يوم الاثنين ١٢/١١/١٤٤٥ هجرية/٢٠ مايو ٢٠٢٤م، انطفأ نور جسد القاسم، ورحل عنا جسداً، ليبقى ضياء ونور فكره حياً مثقداً متألقاً في سماء الفكر المتجدد. فقد توارى شكلاً وهيئةً وجسداً، معلناً استمرار القاسم: الفكر والروح والسمعة العطرة، فكره الحي الإبداعي الخلاق، ذلك الفكر الذي جسده ومثله في حياته قولاً وعملاً. فقد كان الراحل من أولئك المفكرين الذين يولدون بعد رحيلهم، فقد كان الفقيه بحق مفكراً إسلامياً كبيراً، بذل حياته في خدمة الفكر والتجديد وفق النظرية الحديثة للفكر الحضاري "الأبستمولوجي" والدعوة إلى الفكر الإسلامي المستنير منظراً ومجادلاً ومحاضراً ومرشداً

لقد رحل عن دنيانا القاسم بصمت الزهاد، وورع الأولياء، وصبر المتقين، وهدوء الحكماء، وعظمة المجاهدين الجسورين. مات في بلاد هو غريب عنها، ودفن في تربة غير تربة وطنه الذي أفنى جل حياته من أجل أن ينشئ لأمته الخير، والسعادة والرفاهية والعيش الكريم، والتقدم والتطور، وتحقيق العدل والمساواة والحرية في ظل

حكم شوروي ديمقراطي. جاهد مع إخوانه ورفاقهم ممن سار على درب الرعيل الأول

فالقاسم-طيب الله ثراه- كان بحق واحداً من عظماء التاريخ الذين وهبوا أنفسهم لخدمة أمتهم، ورسّموا الدرب أمام الأجيال القادمة. كما أن كتاباته تتسم بالسلاسة واليسر، إذ ينطلق من محيطه الإنساني الخاص ليخاطب الجميع بلغة بسيطة وعميقة في آن. فهو مختلف وجامح في نصوصه، مدافع بشغف عن الحقيقة والوطنية، فهو بحق من الشخصيات البارزة والمؤثرة في الساحة الثقافية والفكرية على المستويين اليمني والعربي. وكلماته ستظل خالدة، تستلهم منها الأجيال المتعاقبة الفكر والمعرفة وكان سلوكه -رحمة الله تغشاه- سلوك العباقرة الأفاضل الذين لا يريدون أن يتركوا إلا سلوكهم وفكرهم الحي. وقد اعتبر أستاذنا العلامة شقيق فقيدنا، مد الله بعمره، أن عزوف القاسم عن الظهور، وحرصه على عدم طبع إنتاجه الفكري، آفة الفقيد. ونحن هنا لا نوافق على هذا الوصف، بل نعتبر أن ذلك الهروب من الأضواء سمة من سمات المفكرين الأفاضل. ألم يطلب المهاتما غاندي من أتباعه حرق كتبه وخطبه، وكذلك فعل أبو حيان التوحيدي الذي أحرق كتبه، وفعل مثلهما العشرات من عباقرة التاريخ، ومع ذلك فقد خلدتهم التاريخ. فلنشمر سواعدنا لتتبع منهج هذا المفكر الذي حرص أن يكون بعيداً عن الأضواء، عازفاً عن طباعة أعماله، مقتدياً بغاندي وأبي حيان التوحيدي

قال القاسم في مرثاته التي رثى بها أستاذه أحمد الشامي، تحت عنوان “الإطار العام للصورة”: (وذلك لأن الإطار يفنى ليقى المعنى الذي كان يمثله ذلك الإطار): “فرغ من دنياه، ولكنها لن تفرغ منه، ونفض يديه من غبار الحياة وتبرها، ولكنها لن تنفض منه يداً، ولا فكراً ولا أثراً. لقد خرج من الدنيا ليلج البقاء، وطواه القبر لينشره الخلود”. وهي فقرة تنطبق على القاسم نفسه

وبذلك، فإن فقيدنا القاسم قد حجز لنفسه مكانة رفيعة كفيلة بأن يضاف اسمه في سجل الخالدين، فسجله حافل بالكثير من النقاط المضيئة، ففي النضال مكتوب اسمه مع تلك الكوكبة المضيئة من شهداء الثورة الدستورية الذين ظل وفاقاً لتراثهم النضالي منذ مطلع خمسينيات القرن العشرين وحتى تاريخ وفاته. في الأدب كان شاعراً كبيراً يقف جنباً إلى جنب مع أبي القاسم الشابي في عدوبة شعره الوطني، وبدوي الجبل في رقة معانيه - حسب شقيقه علامتنا المجتهد زيد، مد الله بعمره - مضيفاً: إن النقاد العرب الذين تناولوا شعره نقداً وتحليلاً، يشهدون له بذلك. فهو شاعر هذا البيت (آل الوزير) بشهادة الأستاذ زيد، كما أنه في الفكر العربي الحديث مجدد لفكر صديقه مالك بن نبي. وتأثر بمفكري عصر النهضة الإمام المجدد جمال الدين الأفغاني، والأستاذ الإمام محمد عبده، وطه حسين، وزكي نجيب محمود

## صلته الفكرية بالمفكر الجزائري مالك بن نبي

إلا أن تأثيره بفكر صديقه المفكر الجزائري مالك بن نبي كان له الأثر الأبرز في فكره، فصار بذلك أحد أبناء رواد النهضة العربية بجدارة. فقد لازم المفكر الجزائري مالك بن نبي سنوات، وربطتهما علاقة صداقة قوية. كان يحرص الفقيد أن يحضر كل محاضرات بن نبي ولقاءاته التي كان يعقدها في منزله بالقاهرة، وهي أخصب فترة تطور فيها فكر مالك بن نبي. ويتجلى لنا ذلك التأثير بكل وضوح في كتاب الفقيد موضوع هذه الإطالة، الموسوم بـ: "حرث في حقول المعرفة". والمفكران القاسم ومالك بن نبي تقاربا دون أن يتوحدا، وتماهيا دون أن ينصهرا. سعى كل منهما إلى تأصيل شروط النهضة، وطبق كل منهما نظرية الفيلسوف البريطاني توينبي، الخاصة بالاستجابة للتحدي. كل ملح في مجتمعه الخلل، وأن التخلف يعود برأيهما إلى سببين: داخلي، وخارجي.. الأول الاستبداد وتخلف الحكام الذين فرضوا أنفسهم حكاماً على الشعوب، والثاني القابلية للاستعمار حسب مالك بن نبي. ولن يجانبني الصواب إذا ما قلت إن القاسم بن علي الوزير يقف جنباً إلى جنب مالك بن نبي كمفكرين يتكاملان، وأنهما بمثابة ابن خلدون العصر الحديث، وأنهما من أبرز المفكرين العرب الذين عنوا بالفكر الحضاري. ومع أنهما قد تمثلا فلسفات الحضارة الحديثة تمثلاً عميقاً، واستلهما في أحيان كثيرة أعمال بعض الفلاسفة الغربيين، فإن ابن خلدون بالذات يظل أستاذهما الأول، وملهمهما الأكبر في علم العمران

هكذا كان الفقيه، بالإضافة إلى تنوع مصادر معرفته، قد اطلع على الفكر الفلسفي بشتى مشاربه الوضعية والتحليلية والمادية، مطلعاً على الفكر الإسلامي والتراث العربي المعاصر وقضاياها. يضيف الأستاذ زيد -حفظه الله- أن مفكرنا القاسم كان له اطلاع واسع على فكر عمالقة الفكر والأدب قديماً وحديثاً، كفكر المعتزلة وفلاسفة الإسلام، بالإضافة إلى أنه كان موسوعياً في مجال الأدب. وهو من الذين تأثروا برواد الإصلاح ك: الإمام محمد أبو زهرة والرافعي وعباس العقاد وأحمد الزيات، إلى درجة لو جمع الأربعة لكان القاسم بن علي الوزير خير تمثيل لهم

### القاسم وإخوته على خطى الأحرار ورواد النهضة العربية

إن القاسم من أولئك المفكرين الذين يولدون بعد موتهم، تخلدهم أعمالهم، وتظل نبراساً تسترشد بها الأجيال. فحياته النضالية والفكرية في هذا المنحى المتشكك من علامات الخلق والإبداع والتواضع والعلم والرزانة، كما أن حياته الغنية بالعطاء والنضال والمثابرة في ظل ظروف رافقتها عواصف هائجة، بدلت حياته وحياته إخوته من حياة الرفاهية إلى حياة الغربة والشقاء والتعب وشظف العيش. تبدلت حياتهم من اليسر إلى العسر، ومن الرخاء إلى الشدة، ومن حياة القصور إلى الغرف المظلمة والسجون. يصف لنا المناضل الراحل الأستاذ محمد عبد الله الفسيل عند زيارته لأخي الفقيه الراحل الأستاذ إبراهيم -رحمه الله- في القاهرة، فيقول: "لقيت إبراهيم في القاهرة يأكل الجوع، ويقتات الظماً فعلاً بدون مبالغة. كان يقضي اليوم كاملاً بدون أن يذوق لقمة واحدة، حتى إذا دجى الليل قام واهناً ضعيفاً إلى سلة براميل

الزبالات يفتش لعله يجد كسرة خبز أو كسرة عظم يقيم بها أوده". فإذا كانت هذه هي حياة الراعي لإخوته، فعلينا أن نتخيل كيف كان حال بقية إخوته

لقد قضى الراحل مع أشقائه حياتهم في نضال مستمر دونما كلل أو ملل أو من أو ادعاء، منذ سقوط الثورة الدستورية عام ١٤٦٧ هـ/ ١٩٤٨ م. وقد وصف بعضاً من هذا الجهاد علامتنا الأستاذ زيد، إذ يقول: "فلم تتوقف خطانا مع من سبقنا من الأحبة، ولم نغير من اتجاهنا الدستوري قط، حاملين إرث الثورة العظيم بلا كلل ولا ملل، رغم الترغيب والترهيب، ورغم التهديدات، والمنافي، والسجون، إلا أننا لم نهدأ ولم نساير، بل سرنا في درب واحد لم تلتو فيه أقدامنا، ولم نغير اتجاهنا، وكان ذلك كله من أجل أن ننشد لأمتنا الخير والتطور، والحكم الرشيد [تقديم كتاب حرث في حقول المعرفة]

لقد كان القاسم مناضلاً استثنائياً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، إنه من ذلك الرعيل الذين حفروا بصماتهم في حقول المعرفة الحديثة في مجالات الفكر السياسي والاجتماعي والأدبي. كما سيتبين ذلك فيما بعد من هذه الإطلاقة التي سنثبت فيها تميز القاسم، وأنه كان مبرزاً في كل تلك المجالات وحقول معرفية شتى، كواحد من المفكرين الكبار الذين حملوا على عاتقهم مواصلة رسالة الآباء. فقد كان ومعه أشقاؤه العباس وإبراهيم ومحمد، ومن قبلهم المجاهد عبد الله، رضوان الله عليهم، ولا يزال علامتنا المفكر الكبير زيد، مد الله بعمره، يسير على نفس الدرب الذي سار عليه أشقاؤه، درب طلائع أحرار اليمنيين يحرث كأخيه القاسم في حقول المعرفة

وفي هذا الصدد، فإننا نعتبر أولاد الشهيد علي بن عبد الله الوزير، من أعظم النعم التي أنعم الله بها على بلدنا. فهم أكثر المفكرين اليمنيين المعاصرين إيماناً بالحرية والعدالة والمساواة، تطلعوا لبناء دولة تكفل تحقيق تلك المبادئ إلى أقصى مدى، فقد استطاعوا أن يحفروا أسماءهم في ذاكرة التاريخ اليمني، ويشهد بذلك تراث المفكر الراحل الأستاذ إبراهيم، طيب الله ثراه، وكذلك علامتنا المجتهد الأستاذ زيد الذي رقد المكتبة اليمنية بعشرات الكتب في التاريخ والفكر الزيدي والدولة المدنية والفكر السياسي

نعم، إن مفكرنا القاسم وإخوته من أولئك الأفاضل الذين يولدون بعد موتهم، الذين يغادرون مكانهم، فما يلبثون في غيابهم إلا قليلاً ليعودوا يملؤونه في زمن لاحق بحضور أكثر سطوعاً وبهاء. ذلك لأنهم، حسب الفقيه - في مراثيه الثرية لأخيه إبراهيم - "يبقون أفكاراً لا تغيب، ونماذج لا يتصل لها لون، وقدوة للعمل الصالح، ومصدرراً للإلهام المستمر، وأمثلة حية للقيم الأخلاقية التي لا تبلى؛ فهي بهم دائماً تتجدد، وهم بما أبداً حاضرون

فالقاسم وإخوته قد وهبوا حياتهم للنضال من أجل أن تنعم أمتهم بالرفاهية والحرية والعدل والمساواة والحق والخير والجمال، من أجل وطن تفوح في أرجائه نسمات الحرية. فقد ظل يدعو إلى كل ما يحرر الإنسان من كل قدر أسر، ومن قيود وأغلال الماضي بكل أشكالها، وما يطلق طاقاته للاكتشاف والخلق والإبداع، وإلى خلق جيل متحرر رسم له الطريق التي سيسير على خطاها. فقد ترك لنا فكراً يعنى ببناء

دولة مدنية تضمن وحدة اليمن أرضاً وإنساناً، وليس فكراً سياسياً لموقف سياسي سرعان ما ينقضي بانقضاء ذاك الموقف، حسب مفكرنا القاسم في توطئته لكتابه الموسوم “حرث في حقول المعرفة”. فهو يقول عن تلك المحاضرات والأبحاث رغم مرور أكثر من عقد من الزمان على كتابتها، إنه لم يجد حاجة إلى تعديل في رأي أو تغيير في موقف، وإنه لواقف منها نفس الموقف يوم ميلادها، لأنها وجهة فكرية قائمة على منهج مستفاد من مصادر علوم معاصرة ضاربة أطنابها في أعماق الفكر الحي، فلا جرم ستظل صالحة للنظر ما احتاج الواقع للتغيير

### قراءة في “حرث في حقول المعرفة”

من يطلع على ما محتوى كتاب المفكر وعالم الاجتماع القاسم، سيقف أمام مفكر ملم بالفكر الإسلامي المستنير، والتراث العربي المعاصر، مستوعباً فكر عصر النهضة الأوروبي ومساره، ومطلعاً على مضمون الفكر الماركسي والعولمة والعالمية. كما يتبين أنه كان مجدداً ومطوراً لفكر مالك بن نبي، مستوعباً لفكر رائدي النهضة الإسلامية المعاصرة جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام محمد عبده. يلاحظ القارئ ذلك في محتويات هذا الأثر العظيم قليل الصفحات، جم الفائدة، وهي:

١. الموقف من الحضارة العربية
٢. مراجعات وتأملات فكرية في مفترق قرنين
٣. أولويات للنهضة العربية
٤. أفكار حول الإصلاح والتغيير في البلاد العربية

٥. عوامل الانقسام والتجزئة في الأمة والمجتمع
٦. أسباب العنف في المجتمع
٧. جرائم الديكتاتورية.. العراق نموذجا
٨. الفقه في غفوة والعقل في إجازة
٩. نقاش حول الموقف من الحضارة العربية
١٠. تنوع الملامح الفكرية والرؤى وواحدة المنهج

وما يُميّز هذه الأبحاث والمحاضرات هو تنوع الرؤى والمقاربات التي تناولت جوانب عديدة في حقول المعرفة، سواء من الناحية الفكرية أو الاجتماعية أو التاريخية أو الاقتصادية. فقد كان الأستاذ القاسم ينظر إلى هذه القضايا بمنظور شمولي، مستفيداً من المعارف والمناهج المختلفة كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم السياسة وعلم التاريخ

مضمون أي موضوع من المواضيع أعلاه يشهد للقاسم بأنه من تلاميذ رواد علم الاجتماع، تناول قضايا فكرية واجتماعية حيوية في كل موضوع، وكل منها مرتبط بواقع المجتمع وقضايا النهضة وشروط تحقيقها، تناول فيها جوانبها المختلفة، وقد وحد بين أطرافها - حسب القاسم طيب الله ثراه - المضمون من ناحية، ومن ناحية أخرى المنهج الذي توخى فيه الأصول المعرفية، والتركيز على معطيات علم الاجتماع وعلم النفس وعلم السياسة وعلم التاريخ، ابتغاء امتلاك أداة تحليل وتقويم، توحد المختلف في مؤتلف يحمي جوهرها الواحد. نعم، كما أسلفنا القول، تعتبر أبحاثاً

مرتبطة بشكل وثيق بقضية النهضة التي كانت محط اهتمام الراحل طيب الله ثراه، وتفكيره منذ أكثر من نصف قرن وحتى وقتنا الحاضر

وهذا التكامل والترابط بين مختلف جوانب المواضيع التي تناولها القاسم في “حرث في حقول المعرفة”، يجعل من هذه الأبحاث والمحاضرات بمثابة فصول من كتاب موحد حول قضية النهضة والتطور المجتمعي. وهذا ما يجعلها ذات أهمية كبيرة في الحقل الثقافي والفكري؛ لما قدمته وتقدمه من رؤى وتحليلات معمقة لقضايا جوهرية تؤثر في حياتنا اليومية

### تفكيك عتبة الأثر: “حرث في حقول المعرفة”

ومن خلال تفكيك العتبة، ابتداءً من مادة “حرث”: الحارث والحراثة: العمل في الأرض رعيًا أو غرسًا كان، وحرث يحرث حرثًا فهو حارث، والحرث قذفك للنواة لتنتب، والحرث هو الزرع، والحراث هو الزارع. فيذن، نحن أمام عمل فكري جديد يتم استنباته في حقول المعرفة الخصبة القابلة للإنبات، ولسنا بصدد تقليد أو استيراد فكر من الخارج. فيتبين لنا أن القاسم قصد أن الفكر لا ينبت إلا بالحرث في الحقول الخصبة القابلة للفلاحة والحرث لجني محصول الزراعة المعرفية في العقول. كما لا بد من أن نشحذ العقول بالذكاء والتطبيق. فالقوة ليست في القراءة فقط، إنما في إحسان توظيفها ضمن الجهاز الفكري حالياً. وليس شرطاً أن نقرأ ما قرأ القاسم بن علي الوزير من نصوص تراثية أم غربية، بل يجب أن نأخذ منه المنهج الذي اختطه لنا، بأن نستوعب الفكر الوافد، ونعمل على تبيئته من جديد، كما عمل المعتزلة مع

فلسفة اليونان والمنطق الصوري، والمطرفة مع علوم الطبيعة التي استلهموها من علوم الأوائل، فطوروا بها الفكر الإسلامي. فالقاسم يفتح لنا دروباً أخرى في القراءة، وإنتاج المعارف. كما يدعوننا أن نقرأ التراث الحي، ويحثنا على الاجتهاد، وأن نقرأ من عمق الفلسفة والعلوم الاجتماعية والرموز الأدبية في شتى حقول المعرفة، ثم نقوم بفحصها وتبئناً صلاحيتها للحرث والفلاحة، انطلاقاً من الإشكالات التي يمر بها واقعنا. وهذا هو سر الحرث في تلك الحقول المعرفية، فعندما يكون الحرث في أرض خصبة، تكون الثمرة جديدة ومفيدة تأتي نتيجة تطبيق معنى الحرث - كما هي في عنوان الأثر موضوع هذا التناول- من وجهة نظرنا فإننا أمام نظرية متكاملة قائمة بجد ذاتها

وغني عن البيان أننا في نفلح في زراعة المعرفة في حقولها، أن تلك الحقول كامنة في العقول. ولا بد من أن نشحذ العقول بالذكاء والتطبيق. فالقوة ليست في القراءة فقط، إنما في إحسان توظيفها ضمن الجهاز الفكري حالياً

وبالتالي فإن مفكرنا القاسم لا يدعوننا إلى التهام وجبات جاهزة من المعارف، فنصاب بغربة الزمان بالنسبة للتراث، أو غربة المكان بالنسبة للفكر الغربي المعاصر، بل يدعوننا أن نعمل على تبيئة الفكرين -التراث وثقافة العصر- لنمتلك زمام الأصالة والمعاصرة معاً، وذلك من خلال الحرث في حقول معارف السلف والفكر المعاصر الذي أثبت العلم من خلال التجريب نجاحها. ولهذا فالحضارة عند القاسم لا يمكن استيرادها من بلد إلى آخر رغم استيراد كل منتجاتها ومصنوعاتها؛ لأن

الحضارة إبداع، وليست تقليداً أو استسلاماً وتبعية كما يظن الذين يكتفون باستيراد الأشياء التي أنتجتها حضارات أخرى. وبما أن الحضارة إنجاز لا يمكن أن يوهب أو يشتري أو يستورد؛ فإن القاسم أولى كل اهتمامه لتحريك الإنسان المسلم الذي يمثل بالنسبة له جوهر الحضارة وعمودها الرئيسي نحو مواقع الفاعلية والعطاء والإنتاج. لأن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف والسخرية حتماً أن نعكس هذه القاعدة، حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها

فمفكرنا القاسم يدعونا في جل محاضراته وكتاباته إلى ضرورة إبداع بدائل فكرية ومناهج علمية مستقلة تتناسب مع البيئة الإسلامية بدل استيرادها كما هي من الغرب الأوروبي. ويلح على ضرورة الاستقلال الفكري في دراسة مشكلاتنا الحضارية والاجتماعية؛ لأنه يعتقد أن هناك خصوصيات كثيرة تتميز بها كل حضارة عن غيرها

### مفهوم الحضارة عند قاسم الوزير

ينبني مفهوم الحضارة عند القاسم على اعتقاده الراسخ بأن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تدمرها. وانطلاقاً من هذا الاعتقاد الراسخ بأهمية الحضارة وضرورة فقه حركتها منذ انطلاقتها الأولى إلى أفولها، حاول القاسم إعطاء تعريف واسع للحضارة،

يتحدد عنده في ضرورة توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفرادها في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه

ويتبين من خلال هذا أن مفهوم الحضارة عند القاسم شديد الارتباط بحركة المجتمع وفاعلية أبنائه؛ سواء في صعوده في مدارج الرقي والازدهار، أو في انحطاطه وتخلفه. وبالتالي فلا بد من فهم عميق، وفقه حضاري نافذ لكل من يريد دراسة المجتمعات دراسة واعية وشاملة؛ لأن حركة المجتمعات الحضارية ظاهرة تخضع كغيرها من الظواهر الإنسانية لسنن وقوانين اجتماعية وتاريخية ثابتة، لا بد من الإحاطة بها، وإدراك كنهها لكل من يريد أن يعيد لأمتها مجدها الحضاري، ويحقق لها ازدهارها المنشود. وهذا ما أكده بقوله: “إن الإنسان هو البداية، وهو كذلك الوسيلة لأي تغيير. إنه وسيلة الحضارة وهدفها معاً، كما أنه أداة التحليل وموضوعه. والثقافة - بذلك المعنى - هي الأساس أو الوسيلة لتفجير طاقة هذا الإنسان، وإطلاق ملكاته، وقدرته، وتحديد وجهته، وليس من حيث هو فرد فحسب، ولكن من حيث هو مجتمع”. أي أن الثقافة عند القاسم هي أداة الحضارة والتغيير

### إطلالة على موضوعات “حرث في حقول المعرفة”

فالفكر الحي هو ذلك القابل لبعث الحياة، وهو القابل للتوليد عن طريق الحراثة. فكما أن الحقول تنتج لنا الورود، فإن العواصف والثلوج تطيح بالورود وتدفعها، ولكنها لا تستطيع انتزاع ما في قلب الأرض وقلب البذور من عشق أصيل متبادل

يؤدي إلى التفتح والعطاء. وهكذا تلبس الأرض حلتها السندسية بالحرث والفلاحة، وتنضج بذور الأرض من قبور الشتاء في بعث الربيع البديع والحركة النامية. وهكذا هي بذور المعرفة كالوردة التي ترمز إلى الفكر الحي، والعاصفة ترمز إلى الجذب أو التقاليد التي تعوق الفكر من التطور والنمو، والجليد يرمز إلى القيود والأغلال والأسر التي تعرقل موكب الإنسانية من الوصول إلى التقدم والنهوض

ومفكرنا القاسم قد نبه النخبة السياسية إلى أن تعتمد في معالجة قضايا الأمة على فهم الواقع، وأي إصلاح أو تغيير يجب أن ينطلق من الأرض التي يعيشون فيها. وهو يرى أن معوقات بناء الحضارة تكمن في استكانة الشعوب العربية للحكم الفرد المستبد، ويدعو إلى استقلال الفكر وعدم استيراد الفكر، لأن ذلك يعني التفكير بعقلية الآخر، والذوبان فيه دون التفريق بين هويتنا وهويته. أو بلغة مفكرنا القاسم بن علي الوزير أن نقوم بأنفسنا باستنبات المعرفة عن طريق الحرث في حقولها الخصبة ومن أهم ما دعا إليه الفقيه القاسم بن علي المسلمين، أن يعيشوا بعقلية الزمن الحاضر لا بعقلية الماضي، وهو أحد شروط النهضة كما جاء في كتاب "حرث في حقول المعرفة": "وهي بناء الإنسان، والمحافظة على المكان، وإعطاء قيمة للزمن". وفقيدنا القاسم ينطلق من موقفه تجاه الحضارة المعاصرة "من موقف المشاركة الإيجابية في إنجازاتها العامة، وموقف الاستفادة والإفادة، ثم موقف التقييم والتقويم الذي يعالج أمراضها، ويصحح انحرافها، ويرد إليها الجانب المفقود لإنقاذها إن استطاع

وقد انطلق مفكرنا القاسم بن علي الوزير في الاسترشاد بالتراث والانطلاق منه للاستفادة والإفادة من الفكر المعاصر، من فكرة محورية وردت في كتاب شروط النهضة لمالك بن نبي، مفادها أن نهضة أي مجتمع تتم في نفس الظروف التي شهدت ميلاده. وعلى هذا فإن إعادة بناء المجتمع المسلم الحديث لا بد أن تنطلق من الفكرة الدينية كأساس لأي تغيير اجتماعي. لهذا كانت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، نقطة ارتكاز مهمة في منظومته الفكرية

ومفكرنا القاسم قد ركز فكره على حاجة الأمة إلى الإصلاح لمنظومة البناء الفكري الشامل في كل الحقول المعرفية، مشيراً إلى تباين وجهات نظر علماء كل حقل، فيقول: “لو سألنا عالم الاجتماع عن أولية البدء، لقال: الإصلاح الاجتماعي.. إصلاح حال المجتمع، لأنه لو صلح لصلحت الجوانب الأخرى. ولكن عالم الاقتصاد سيقول: الإصلاح الاقتصادي أولاً هو الأساس، لأن على أساسه تقوم الحياة الاجتماعية. أما عالم السياسة فسيؤكد أن إصلاح الوضع السياسي هو المدخل العملي لأي إصلاح، لأنها هي التي تنظم العلاقات بالقانون، بين القوى المختلفة، وتحقق النظام للحرية التي يتمكن بها المجتمع من إصلاح جوانبه المختلفة... إلخ”. ويضيف قائلاً: “على أن صوتاً آخر عميق المصدر - والكلام لا يزال للفقيه القاسم - سيردد: الثقافة هي البداية الطبيعية، لأن مجتمعاً لا ثقافة له لا وجهة له”

إذن، فنحن - حسب القاسم - بحاجة إلى إصلاح شامل "أي بحاجة إلى نهضة تتجدد بها قوانا، وتكفل بها حقوق إنسانيتنا، وتنطلق بها قدراتنا، وتزدهر بها إبداعاتنا، وتتم بها إسهاماتنا الحضارية والمسيرة الإنسانية، نستأنف بها دورتنا الحضارية، ونبلع رسالتنا في العالم". ومن هذا المنطلق يؤكد أن لا إصلاح يتم بدون تغيير. فمفكرنا القاسم يرى الحضارة عبارة عن صيرورة متواصلة، ذات دورة طبيعية كغيرها من الظواهر الطبيعية. إذا غربت من أفق أشرق من أفق آخر. فالإنسان يبدع الحضارة، ولكن الحضارة هي التي تكيف حياة الإنسان والمجتمع، وفلسفة كل حضارة هي التي تعطي وجهتها أو رسالتها في التاريخ، وثقافتها هي التي تمنحها وسطها الذي تنشأ فيه، وطابعها الذي تتميز به"

إذن، فهذا هو الموقف الإيجابي من الحضارة الغربية، كما أنه يوجز كل أسباب الانقسام في المجتمعات العربية، إلى سبب رئيسي تفرعت عنه الأسباب والعوامل كلها، أو بحسب شقيقه العلامة الأستاذ زيد مؤلف الفردية: الفردية. ويزيد القاسم ذلك وضوحاً، فينبه طغاة العصر إلى أن الاستبداد يصادر الحريات.. فيستثير المقاومة ويلغي العدل، فيستثير المظلومين ويقضي على المساواة، فيثأر المهضومون ويثير الفرقة، فتشب الصراعات ويضيق العقل، فتتشب الصراعات ويحارب العلم، فتسود الجهالة. ومع الجهالة، تتمزق عرى المجتمع، وتتهوى قيم الحضارة، وتستيقظ الفتن التي هي وقود الانقسام داخل أي مجتمع

## شخصية وذهنية مفكرنا القاسم

وبعد أن تناول في دراسته القسم الموسوم بـ: "مراجعات تأملية فكرية"، أسباب تخلف الأمة العربية والإسلامية بسبب القابلية للاستعمار، أو بتعبير علي شريعتي القابلية للاستحمار، بدلاً من النهضة والتحرر، وسيادة روح القطرية وغياب الحرية أيضاً، وتغول الديكتاتوريات والأنظمة الشمولية، والاعتماد على أجهزة الاستخبارات وقوى القمع التي تسعى إلى تصفية الفكر وإخماد العقل، وانحسار تيار التجديد والتحديث والاجتهاد، بل وتيار التغريب -على نحو ما- بحيث لم يبقَ منه إلا دعوى العلمانية المفترى عليها. ونضع المفترى عليها بين معكوفتين للدلالة على مدى عمق تفكير القاسم بن علي الوزير وفهمه لمعنى نظام الحكم المدني، حيث يقول في حوار مع صحيفة "الشورى" اليمنية العدد (٣٣٨)، استل منه شقيقه العلامة الأستاذ زيد الموضوع المتعلق بموضوع: "الفقه في غفوة والعقل في إجازة."

إن شخصية وذهنية المفكر الإسلامي القاسم بن علي الوزير: شخصية وذهنية إسلامية صافية، لا علاقة لها بما حدث بعد معركة صفين، كما أكد مالك في مشروعه الإسلامي لفلسفة التاريخ. وهو على هذا الأساس مفكر لكل المسلمين، احتفل به الجميع، واستلهم منهجه وتفكيره عدد ملحوظ من علماء ومفكري المسلمين في القرن العشرين، ومن أطراف إسلامية مختلفة. وهذا شاهد إجماع إسلامي على منهج وفكر مالك بن نبي طيب الله ثراه

القاسم من وجهة نظر تلامذته: ومما سبق يعتقد كاتب هذه السطور بأن القاسم بن علي الوزير لم يكن قارئاً يحمل توجيهاً قليلاً إلى أركان أو زوايا معينة، بل إنه، فضلاً عن انفتاحه المزدوج على الفكر العربي والفكر الغربي، قام في تلك الأبحاث والدراسات والمحاضرات التي احتوى عليها "حرث في حقول المعرفة"، بتنزيل الأفكار ضمن جهازه التحليلي وسياقه الإصلاحي. فليست الحروف هي التي تقوده إلى قضاياها، بل إنه هو من يأتي بالحروف أو النصوص إلى طبيعة مشكلاته التي يعانها ويرغب في الخروج من مضائقها. وبهذا، كانت النصوص تعرف مكانتها وموقعها في مشروعه

إذن، فإن القارئ يجد نفسه أمام عمل راقٍ ومثمر يستحق القراءة والتمعن، لعلو هامة القاسم الذي تناول تلك المواضيع بالدراسة والتحليل، وهو من لم يعط حقه في حياته. ونتطلع من الدارسين والنخب المثقفة أن تعيد قراءة فكر هذا المفكر الجبار، والسير على درب رواد النهضة الذين هو أحد نتاجاتهم، لكي يقوموا باستنبات الفكر الحي الذي يخرج أمتنا من غيابة الجب والفكر المتحجر الذي أعاق مسيرتنا نحو مشاركة العالم المتقدم في خدمة البشرية، يقول الأستاذ عبد الرحمن مطهر في مقالته الموسومة بـ: "الأستاذ القاسم بن علي الوزير.. عرفته بأفكاره ومبادئه"، ما نصه: "استمر المفكر الكبير الأستاذ القاسم بن علي الوزير في الانشغال في قضايا الأمة ومستقبلها. وفي هذا الصدد ألقى الأستاذ الكبير محاضرة قيمة بعنوان "الطريق إلى المستقبل"، في العام ٢٠١٧، أكد خلالها أهمية مغادرة الماضي الذي نعيشه، ونشتبك مع وقائعه وأحداثه في معارك حقٍّ أو باطل لن تغير منها -على كل حال-

في قليل أو كثير.. ولكنها تحبسنا في مجالها، فنظل ندور فيه دوران جمل المعصرة، مع أهمية النظر إلى الماضي بعين فاحصة، نقرأه لا أن نعيشه، وندرسه بشكل علمي وعميق لا أن نستعيده، فذلك شرط لفهم الحاضر وبناء المستقبل”، وفي مقالته الرائعة، كتب الأستاذ “لطف بن لطف قشاشة” عن الراحل تحت عنوان: “القاسم بن علي الوزير.. الرحيل المروع”، وصفاً الفقيه: “وهو المفكر المثقف صاحب الأطروحات والمشاركات الفكرية والثقافية المتفردة والتميزة بسعة الأفق وحصافة الرؤى التي تعالج ما استفحل من معضلات وإخفاقات الأمة والبشرية. فهو الحاضر البارز في المنتديات والمؤتمرات العالمية، ناهيك عن العربية والإقليمية. وحين يُذكر اسمه هناك، يدرك المجتمعون أنهم أمام صاحب القول السديد”

### موقف القاسم من الأنظمة المستبدة

كما أن الفقيه قد إخوته قد قضوا جل حياتهم في محاربة الأنظمة الاستبدادية المتعاقبة في اليمن والبلدان العربية. وما أدق من وصف الفقيه لهذا النوع من الجهاد ضد الطغاة والمستبدين، فهو لم يكتفِ بجلد الطغاة بسوط كلماته المحرقة، بل نجده يشخص حالة الديكتاتور المرضية، فيقول إن: “الديكتاتور يحتزل الأمة في شخصه، ويلغي إنسانية الإنسان لتأكيد سيادته، ويصادر حرية الفرد والمجتمع كله إطلاقاً لحرته هو من كل كابح، ويجعل من المجتمع كله مرتعاً لأهوائه، ومجتنى لشهواته، ومجالاً لتزواته، يعيث فيه فساداً، ويظن ذلك حقاً من حقوقه إن لم يعده من فضله على الناس.”

ثم يتكلم عن الآثار السلبية التي تترتب على حكم الديكتاتور وانعكاساته عليه نفسه وعلى المحكومين، فيقول: “ونتيجة لذلك يصبح الأمن هو هاجس الحاكم المستبد، ويصبح الخوف هو سمة المحكوم المستضام، وتتولد من ذلك حالة نفسية تدفع الفرد إلى الانطواء على نفسه، فتقطع الوشائج في المجتمع، وتتلاشى الثقة بين الناس... وتسود حالة تزييف شامل: للوعي والقيم، وللماضي وللحاضر، وتقوم مناهج التعليم بتزوير ذلك كله.. لخلق جيل مزور -بتشديد وفتح الواو- هو نفسه لا يعرف غير الصنم المستبد وأمجاد الصنم وآلاء الصنم”...

مضيفاً أن من جرائر الديكتاتورية الموبقة: “أن مآسيها لا تنتهي بنهايتها، وإنما تبدأ فصولاً جديدة من المآسي والكوارث على كل صعيد من الأصعدة”، والتي نشهد ضروباً منها على المسرح العربي اليوم، في اليمن وليبيا ومصر والعراق. وذلك لأن مخلفات الديكتاتور لا تقل فداحة عن وجودها، لأنها استمرار لهذا الوجود ونتيجة له

### القاسم بن علي الوزير وفكره الموسوعي

فنحن، إذن، أمام شخصية استثنائية غير عادية موسوعية متعددة المواهب. فهو عالم اجتماع كبير، وفقهه، وشاعر، وناثر، وسياسي استطاع أن يقود اتحاد القوى الشعبية -الحزب الذي يعتبر أول حزب طالب بالنظام الجمهوري. كما أن الفقيه مع إخوته قد ظلوا محافظين وأوفياء لتراث آبائهم من مناضلي الثورة الدستورية العظام. ولن أكون مبالغاً إذا ما قلت بأن للفقيه القاسم، طيب الله ثراه، اليد الطولى في صياغة

“الميثاق الوطني” الوثيقة الفكرية لـ “المؤتمر الشعبي العام”، حين عمل بمثابة مستشار للرئيس الراحل علي عبدالله صالح، في بداية حكمه. وأكد أن أجزم بأن تسمية تلك الوثيقة كان تيمناً من القاسم بـ “ميثاق الثورة الدستورية”. وقد يقول قائل: فما دور اللجنة التي كلفت بصياغة الميثاق برئاسة القاضي عبدالكريم العرشي، طيب الله ثراه، وعضوية أعضاء من أحزاب كثيرة؟ أذكر منهم الأستاذ عبد السلام العنسي وسعيد الحكيمي ويحيى الشامي وعبد الحميد الحدي. فأقول إن تلك اللجنة قد قامت بالاسترشاد بتلك الخطوط العريضة التي صاغها القاسم، وقاموا بالإضافة والحذف والتعديل. وبذلت اللجنة جهوداً، لكن تظل بصمات مفكرنا القاسم واضحة من خلال بصمات فكر مالك بن نبي الذي تأثر به القاسم حد التماهي. وهكذا استطاع الفقيد، طيب الله ثراه، إحياء فكرة الميثاق المقدس للثورة الدستورية من حيث الفكر والمفهوم، كما أنه استطاع أن يجعله بمثابة ميثاق شرف لجميع المكونات السياسية اليمنية، وليس لحزب واحد، بل منبر لكل الأحزاب السياسية البراجمية التنافسية. وفي هذا الصدد، وطالما قد صار الميثاق الوطني المرتكز الرئيس لحزب المؤتمر الشعبي العام، فيتوجب على المؤتمر الشعبي العام الذي أصبح حزباً مستقلاً، أن يعيد صياغة الميثاق بما يجعله وثيقة تخص المؤتمر الشعبي العام فحسب

### المفكر القاسم وواقع الأمتين العربية والإسلامية

كما أن القاسم تتبع واقع الأمة الإسلامية، ورصده لمختلف ظواهره، لم يجعل فكره يتيه في طلب حلول جزئية أو ترقيعية لمعالجة هذا الواقع؛ بل نفذ ببصيرته ليكشف

الخيوط الرابطة لتلك الظواهر، وليضع الحلول المناسبة لمشكلات الأمة، على شكل معادلات رياضية وقوانين دقيقة.

وعليه، فإن أهمية القاسم وسمو اجتهاداته تحتاج إلى دراسة متخصصة قادرة على النفاذ إلى مقاصدها، وهذا ما يدعو إلى ضرورة بذل المزيد من العناية بهذا الفكر. فشخصية هذه هي بعض صفاته، فإنه قد حدد مكانه في سجل الخالدين، وسوف يعود حياً بفكره الذي سبق فيه أهل زمنه، وستخلده الأجيال. وأقول له نم، أيها الغائب الحاضر، قرير العين. نم، أيها المفكر التنويري. نم، أيها المبدع التقني النقي والإنسان الأنقى. نم قرير العين، فهناك من سيذكر الأجيال بك وبآبائك الصيد الكرام في "رحلة الألف والمائة والستين عاماً" التي أنجز منها هذه السلسلة المضيئة سفرين، وسيواصل تلك السلسلة الذهبية وبيان مآثر من تلى من الآباء من العفيف محمد بن المفضل الذي حمى أعظم فرق الزيدية الهادوية، وهم المطرفية الذين ما إن مات حتى قضى عليهم عبدالله بن حمزة، مروراً بمن تلاه من أئمة الفكر وحتى أخويه إبراهيم وزيد

### لمحات من شعر القاسم بن علي الوزير الثوري

فمفكرنا القاسم، طيب الله ثراه، حسب شهادة النقاد الذين تناولوا شعره، وتضمنها ديوانه "مجموعات شعرية"، كان نسيج وحده، شاعراً وناثراً ومفكراً قل نظيره، مختلفاً وعميقاً في بساطته، ومبدعاً في سهولته، وجامحاً في نضاله، مدافعاً عن الحريات، متحدياً للطغاة:

قل للطغاة: لئن خسرنا جولةً      فلکم بقية يومكم ولنا الغدُ

مروا عليها فجرح غير منطمس      على الجبين، وفي العينين أكداؤُ

وقوله:

جاوز الظالم المدى فارتقبوا      لا يعيش الظلم في الأرض طويلاً

فالقاسم قد وضع يده على الجرح الغائر لأمته، فحدد الداء وقرر الدواء، فعل ذلك

شعراً ونثراً، فقال شعراً:

ينمحي العدل عندما يحكم ال      فرد وتملي قانونها الأوثانُ

وعندما وقفت على قصيدته التي كتبها مواسياً أخاه إبراهيم الذي فقد زوجته،

وجدته كأنه يخاطب أخاه زيد الذي غادره وتركه وحيداً بعد أن فقد كل إخوته

السبعة:

أخي فديتك، هذا الحزن تعرفه      وليس يعرفك الإذعان والخورُ

على المآسي ربتنا مبادئنا      نما الشباب عليها، وارتوى الكبرُ

قوم إذا ما ابتلاهم ربهم صبروا      وإن أفاء عليهم نعمة شكروا

وما أروع ما جاء في إحدى مراثي الفقيد -التي تضمنتها أعماله الشعرية الكاملة

“مجموعات شعرية” عن الشباب الذين ساروا على خطى الرواد من قادة الأحرار

في اليمن، وهو وإخوته بالطبع منهم، إذ وصفهم بقوله:

شباب أراقوا في الجهاد شباهمُ وأوفوا على الشيخوخة العهد والجهدُ

على أثر الرواد شقوا طريقهمُ وشدوا على تلك العزائم واشتدوا

وقد جاء في مريثة أخرى رثى بها أحد أصدقائه، وصف ينطبق عليه وعلى شقيقه إبراهيم وزيد تماماً من حيث المثابرة على الجهاد من سن الشباب وحتى الشيخوخة. وإذا كان من مأخذ على الفقيد، فهو أنه كان من أولئك الأشخاص الذين لا يجنون الظهور والبهرجة، ولا يحب الأضواء، أو الشهرة. وما حرصه -رحمه الله- على عدم نشر وطباعة أعماله الشعرية والفكرية إلا دليل على ذلك. فقد كان يتعمد أن ينكر ذاته، ويكتفي بما قاله في محاضراته أو في دراساته وأبحاثه. وبالفعل، لولا ما جمعه أخوه الراحل الأستاذ إبراهيم، أسبل الله عليهما شآبيب رحمته، من أعمال الفقيد الشعرية، ودفع بها للطباعة بعنوان: "مجموعات شعرية"، لما عرفناه شاعراً مجيداً يقف في الصفوف الأولى بين الشعراء العرب. وكذلك لولا قيام أخيه الأستاذ زيد الذي جمع ما تمكن من جمعه من دراسات ومحاضرات الفقيد الفكرية، وقدمها في كتابه الموسوم: "حرث في حقول المعرفة"، لما عرفنا أنه كان عالماً من علماء الاجتماع، ومن المنظرين في الفكر السياسي الحديث. ولو حاولت البحث عن أبيات شعرية تصف رسالة الفقيد لما وجدت أبلغ من قوله في قصيدة رثى بها أحد أصدقائه، وهي تنطبق على صفات الفقيد تماماً:

أدى رسالته وأنكر ذاته      بضمير محتسب وروح فدائي

ملاً الحياة ولا تكاد تحسه      في زحمة الأطماع والأهواء

إلى قوله:

ومجاهد أبلى الجهاد شبابه وأتى على الشيخوخة السمحاء

حمل أعباء ويؤثر أن يُرى وكأنه خالٍ من الأعباء

يمشي بأطراف الحياة ويتقي وهج الضحى بالسير في الأفياء

متباعداً عن كل بهرج شهرة مترفعاً عن وزر كل رياء

**خاتمة وصف عام لفكر القاسم وتوصيات**

وإذ نحتتم تلك الإنجازات والسمات الفكرية التي كانت تميز فكر مفكرنا القاسم، فإننا نؤكد أن كل كتاباته السياسية تؤكد على القيم الإسلامية ذات التوجه المعتدل، ويسعى لخلق جيل قادر على تحقيق الحياة الكريمة والمواطنة المتساوية. كان هناك تركيز لدى الإصلاحيين على الجمع بين الهوية الإسلامية والمواطنة

وغني عن البيان ذلك الدور الهام الذي لعبه الراحل مع أشقائه في سبيل اعتناق أمته من سلطة الطغاة، ونير الاستعمار في جنوب الوطن. كما أن للأستاذ القاسم بشكل خاص دوراً في تشكيل الخطاب السياسي لاتحاد القوى الشعبية؛ وأنه شارك بدور فعال في صياغة أدبيات الاتحاد، فهو أحد صانعيه، وأحد قياداته حتى تم انتخابه رئيساً للمجلس الأعلى للاتحاد. وقد انعكس ذلك على الخطاب السياسي للاتحاد، ويتجلى ذلك من خلال:

- التأكيد على البعد القومي والوحدوي في المطالب السياسية للاتحاد، وربط ذلك بالنضال التحرري من الرجعية والتحرر من القابلية للاستعمار حسب تعبير مالك بن نبي
- التركيز على البرامج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتعليمية والثقافية الهادفة إلى النهوض باليمن وتحقيق الرفاهية لأبنائه
- الدعوة لتطبيق الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان، وربطها بضرورة إصلاح النظام السياسي في اليمن
- الدعوة إلى التصدي للقوى المحافظة والرجعية في المجتمع اليمني

وبذلك شكل الفقيه بصماته الفكرية والسياسية على الخطاب السياسي لاتحاد القوى الشعبية قبل وبعد فترة رئاسته له. وهذا ما مكنه من لعب دور محوري في توجيه المشهد السياسي في اليمن، وذلك من عدة جوانب

ومن يقرأ "حرث في حقول المعرفة" يجد أن للفقيه القاسم إضافات هامة على المستوى الفكري والمنهجي للخطاب السياسي اليمني. فقد استفاد من اطلاعه الواسع على الفلسفة والنظريات السياسية المعاصرة، لتطوير المقاربات التحليلية والتفسيرية للواقع السياسي

إن الفقيه طرح قضايا جوهرية يشهد بها "حرث في حقول المعرفة". وغني عن البيان أنه كان ناقداً موضوعياً للواقع السياسي، يركز على طرح القضايا الجوهرية المتعلقة بالنهضة الوطنية والتحرر والديمقراطية والعدالة الاجتماعية

لقد اتسم خطاب فقيدنا بالطابع الوطني الشامل، بعيداً عن الانتماءات الحزبية الضيقة. وهذا عزز من قبول وتأثير أفكاره على مختلف القوى السياسية. كما أن الفقيد قد امتاز بقدرة عالية على التعبير والإقناع، إذ كان يمتلك موهبة جذب أنظار الحضور بحضوره الهادئ، وكان يمتلك أسلوباً بلاغياً رصيناً وقادراً على التأثير في الجماهير. وهذا ساعد على انتشار أفكاره وخطابه

أسهم أيضاً في ترجمة أفكاره إلى برامج وممارسات سياسية عملية. وهذا أعطى لخطابه بعداً تطبيقياً ملموساً. بشكل عام، أثرى الأستاذ القاسم الوزير الخطاب السياسي اليمني من خلال إضافاته المتنوعة على المستويات الفكرية والمنهجية والأسلوبية والتطبيقية

كما اتسمت كتاباته وآراؤه بالوسطية والاعتدال، ونبذ الكراهية والعصبيات العرقية والمذهبية والجهوية. هذا يظهر توجهه الفكري المعتدل والمتوازن

كان يحمل رسالة ذات بعد إسلامي تنويري إيقاظي، مما يشير إلى أنه كان يسعى لإحياء وإصلاح الفكر الإسلامي

طور أفكار المفكر الإسلامي مالك بن نبي، وسخرها لخدمة وطنه اليمن، ووظفها في الواقع اليمني

كما أن القاسم لعب دوراً مهماً في صياغة أدبيات حزبه "اتحاد القوى الشعبية"، الذي وصفه شقيقه بأنه حزب صناعة يمنية، على عكس الأحزاب الأخرى التي

تأثرت بأفكار من خارج اليمن. سعى لخلق جيل مستنير قادر على تحقيق الحياة الكريمة والمواطنة المتساوية، وحرص على البحث العلمي والمعرفي لتحقيق هذا الهدف ومما سبق، فإنه على الرغم من اهتمام القاسم بقضايا الحضارة ومشكلاتها، فإن ذلك لم يجعله ينحو بتحليلاته منحى التجريد والنظر البعيدين عن هموم الأمة الإسلامية وقضاياها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية؛ بل ظل على الدوام ملتصقاً بواقع أمته، فيتحدث عن تطوير النظام القبلي منطلقاً من الانتقال من فكر الشعارات ذات المضمون السلبي، إلى فكر المحتوى ذي البعد الرسالي النهضوي، راصداً لمختلف التحولات التي تطرأ على الفكر المستنير، كما يتضح ذلك جلياً في كل محاضراته ودراساته سالفة الذكر

وفي الختام، أسأل الله أن يمد بعمر علامتنا المجتهد المؤرخ والفقير والمحقق الأستاذ زيد، وأن يمن عليه بدوام الصحة والعافية، وألا يريه بعد القاسم مكروهاً، وأن يعصم قلبه بالصبر والسلوان، وأن يعصم قلوب أهله وذويه وبنيه وأبناء إخوته وكافة آل الوزير، فالمصاب جليل، والفقد عظيم

## في وداع الشخصية الاستثنائية

### المفكر والأديب الكبير القاسم بن علي الوزير

#### د. طارق محمد الاكوع

الكتابة أو الحديث عن أحد المفكرين والعلماء بالتأكيد ليس أمراً سهلاً، فما بالناس عندما نتحدث أو نكتب عن شخصية استثنائية بحجم المفكر والشاعر القاسم بن علي الوزير، هذه الشخصية الاستثنائية التي لا يشبهها أحد، والتي تعتبر حالة مميزة بحد ذاتها، شخصية وهبت كل حياتها للنضال والجهاد في سبيل الحق، والحرية والاستقلال، والعلم والعطاء والقبول بالآخر، نعم هي شخصية استثنائية بكل مقاييس الحسابات والجغرافيا والتاريخ والعلم والإبداع

شخصية لم نتحدث عن نفسها وإنما تركت الكثير يتحدثون عنها، شخصية صاحبة سيرة عطرة وحياة حافلة بالبذل والعطاء، ومواصلة الرحم وعمل الخير، وحب الناس، بكل الناس حتى مع من يختلف معهم

هذه الشخصية التي نحن في صدد الحديث عنها خلال هذه الأسطر المتواضعة، هي شخصية المفكر السياسي الكبير الشاعر والأديب، القاسم بن علي الوزير، الذي رحل عنا وترك لنا ذكراه الطيبة، وروحه النقية، وعبق أريج يفوح في كل من

تعرف عليه، وميراثاً كبيراً من القيم والمثل النبيلة، إضافةً إلى كونه عالماً ومفكراً وشاعراً قلّ نظيره؛

تميزا الراحل العظيم بسعة اطلاعه وقدرته الفائقة على تسلسل الأفكار وربطها بالأحداث

ينفرد المفكر القاسم بن علي الوزير بباقةٍ من الخصال والثّوابت، التي قلّما تلتقي أو تنصهر أو تذوب في شخصٍ واحد، فهو مفكر وشاعر، ومحاور وكاتب وسياسي في أن واحد

المفكر والأديب والشاعر قاسم بن علي الوزير يمتلك مواصفات العالم والمفكر الواصل المتواضع، الذي يغرف من تاريخه وتراثه وحضارته، ويخترن أحلام شعبه وأمتّه وآمالهما الواعدة، التّوّاقة إلى مستقبل العدل والسّلام

تميّز أستاذنا الجليل بشخصيّةٍ قويّةٍ واعية، استمدّها من ثقافة الأسرة الكريمة المجاهدة، التي نشأ فيها فهو ابن الأمير الشهيد علي بن عبدالله الوزير وحفيد الإمام الأعظم محمد بن عبدالله الوزير، ووالدته هي السيدة الفاضلة فاطمة أبو راس ابنه زعيم قبيلة بكيل وكبيرها

عاش أستاذنا الجليل، حياة صعبة بعد ثورة الدستور في عام ٤٨ فلم يستسلم لقساوة الظروف وغياهب السجون، بل مثل ذلك له حافزا ومنطلقا ليكون واحداً من كبار الشعراء والمفكرين، ليس على مستوى اليمن، بل على المستوى العربي والعالمي بشكل عام .

وها نحن اليوم نفتقده أيّما فقد، في ظلّ المتغيّرات المتسارعة التي يشهدها العالم أجمع، وفي ظلّ ما نواجهه في بلدنا العزيز اليمن الذي يعيش مرحلةً من أسوأ المراحل، وأصعب الظروف، وأشدّ الأوقات محنةً، ومع تكالب الأمم علينا، وحصار الأعداء لنا...

اشتغل الراحل على مشاريع فكرية كبيرة يستحيل التحدّث عنها في هذا المقام، واهتمّ بقضايا الفكر والثراث والنهضة والديمقراطية واشتهر بعملية التحليل والتدقيق في قضايا الأمة. وكما هو الحال بالنسبة إلى مجموعة من المفكرين، انكبّ المفكر الكبير القاسم بن علي الوزير، على البحث في السؤال ما هو الموقف من الحضارة الغربية

الذي يهمننا من فكر القاسم بن علي الوزير، هو الجانب العملي من هذا الفكر، وما ينبغي أن يبنى عليه لكي نتمكن من تغيير نمط حياتنا وتفكيرنا وتعاملنا مع الوجود والعناصر المشكلة لهذا الوجود الإنساني، وحول تغيير تفكيرنا ونمط حياتنا يؤكد الأستاذ القاسم في أكثر من محاضرة له، ”إن البلدان العربية بحاجة إلى “الإصلاح” ولا أقول: “إصلاح”. ففي حسابي أن البناء كله بحاجة إلى إصلاح شامل ينتظم الجوانب كله

فالمفكر الكبير القاسم بن علي الوزير عندما درس الحضارة إنما درسها انطلاقاً من ألمه وهو يرى أمته متخلفة مهانة مُستعبدة تعيش في فوضى وتخلف وتفتقر إلى الذوق الجمالي، فبحث بعقله الجبار في أسباب نشوء الحضارات، وعندما عاين

وعايش الحضارة الغربية، رأى فيها الكثير من العوامل التي هي حقاً سبب نشوء الحضارة، ومن الصفات والمقومات التي ينبغي أن يتأثر بها المسلم وأن يحاول احتوائها، الحضارة الغربية ليست ركام من السلبيات وحسب، ولكنها أصلاً بناءً من الإيجابيات ولأسباب تخص الخصوصية الحضارية والتاريخية للحضارة الغربية

يرى المفكر القاسم بن علي الوزير أن قضية النهضة مازال سؤال قائماً منذ قرن أو يزيد وان أسباب الفشل في الرد على هذا السؤال هو الانطلاق من ذات الواقع الذي أدت إفرزاته إلى الخروج أصلاً من الحضارة والوقوع في بؤرة التخلف ولا يمكن ذلك إلا بتصفية ينابيع تلك الإفرازات في الفكر والنفس والثقافة، وذلك بتصفية المفاهيم على المستويات التاريخية النفسية والاجتماعية انطلاقاً من العقيدة التي أرست الدفعة الأولى الرائعة

العبرة الكبرى التي يمكن أن نستفيد منها من فكر القاسم بن علي الوزير لا سيما في موقفه من الحضارة الغربية هي أن: نتحلى بقدر عال من الموضوعية في التعامل مع ذواتنا ومع غيرنا

و ينبغي أن نتحرر من الكثير من العقده التي تصورنا عظماء ونحن لسنا كذلك، أو تصور غيرنا عظماء وهم ليسوا بذلك المستوى من العظمة، هذا أمر في غاية الأهمية، علينا أن نستفيد من فكر الراحل قاسم الوزير والذي كان موضوعياً جداً في التقاطه عوامل القوة وقيم الفضيلة والنهوض في الحضارة الغربية، وذكرها وعبر عن إعجابه بها وفي الوقت ذاته لم يقع ما وقع فيه الكثير من المفكرين على امتداد القرن الماضي

وإلى الآن، الذين ما إن رأوا الحضارة الغربية فقدوا قدرتهم على التفكير الموضوعي وعلى ملاحظة ما فيها من علامات التخبط والاضطراب، وما فيها من منافاة القيم الإنسانية الناهضة بروح الإنسان والمتمدفة بالقيم الضامنة للاستمرار

يرى المفكر القاسم بن علي الوزير أنَّ الخروج إلى موكب الحضارة يحتاج إلى إيجاد تيار عقلائي عربي متنور يبذل التضحيات اللازمة لتشكيل فلسفة حضارة عربية جديدة يكون لها مقدمات البقاء بعيداً عن أدبيات البكاء على الماضي

فقدم الراحل العظيم مشروعاً كبيراً ناقش فيه قضية النهضة من جوانبها المختلفة عبر مجموعته من المحاضرات والأحاديث جمعها في كتاب هو حرث في حقول المعرفة، هذا الكتاب الذي يجب أن يدرس في المعاهد والجامعات، والذي عالج الكثير من القضايا، لعل أهمها، الموقف من الحضارة الغربية— وأولويات النهضة العربية، وأفكار في غاية الأهمية للإصلاح والتغيير في البلاد العربية، وكذلك عوامل الانقسام والتجزئة في الأمة والمجتمع، إلى جانب أسباب العنف في المجتمع

فقد أهتم هذا الكتاب الهام بدراسة مشاريع النهضة ومكوّناتها، واهتم بالبحث والتحليل والنقد في الفكر العربي، وتناول بالتحليل الموقف من الحضارة الغربية وأولويات النهضة العربية وقدم أفكاراً حول الإصلاح والتغيير في البلاد العربية والكثير من المراجعات والتأملات الفكرية محاولاً الإجابة بإسهاب عن السؤال الآخر نحن بحاجة إلى اصلاح؟

## القاسم بن علي الوزير الشاعر

يتميز شعر القاسم بن علي الوزير بصدق النبرة وتوهج الالتئاع وبقدرة ظاهرة على توظيف المفردات توظيفها فريدا لتؤدي وظيفتها أقوى أداء كما يتميز بابتكار المعاني والتأمل الفلسفي ويبقى القاسم بن علي الوزير شاعر المعنى المعجب والسبك المطرب ويعده الكثير من الأدباء والشعراء والنقاد بأنه واحد من عمالقة الشعر في العصر الحديث وله ديوان مجموعات شعرية جمعت فيه معظم قصائده التي نشرت وقدم له وتناوله بالدراسة والنقد العديد من الشخصيات الأدبية في علمنا العربي.

ولعل من ابرز قصائده، هي قصيدة صوت المناحة، التي تم نشرها عند الاقتحام الإسرائيلي البربري الوحشي لبيروت في عام ١٩٨٢ م ، والتي يقول فيها:

أمة عانت من الموت طويلا	فادفونها لم تعد تجدي فتىلا
أمعنت من زمن في موتها عبثا	من ميت ترجوا مقيلا
لا تقولوا عرب قد ذهب نخوة	كانت هي الأصل النبىلا
ذهبت غير بقايا لم تزل	في ربي بيروت تأبى أن تزولا
جثمت في مريض الموت على	شرف، يأبى على الذل نزولا
أمة في فتية قد غسلت	لعنة الذل وأولتها الدخيلا
ثبتت حتى إذا ما استبسلت	كتب الله لها نصر جميلا

## القاسم والممارسة السياسية

انخرط أستاذنا الجليل المفكر والسياسي الكبير القاسم بن علي الوزير، في الحقل السياسي في سنٍّ مُبكرة، وعاش أحداثاً سياسية كبيرة، أكبر بكثير من سنة، وجاور كبار الساسة، والعلماء والفقهاء والشعراء، خاصة في معتقله في سجن حجه، وتمرس في رحاب رفقتهم العمل السياسي والفكري

وكان أحد أبرز المؤسسين الأوائل لحزب اتحاد القوى الشعبية، اليمينية إلى جوار شقيقه الزعيم المؤسس المفكر الإسلامي الكبير إبراهيم بن علي الوزير رحمه الله، وكذا المفكر الكبير والكاتب والمحقق الأستاذ القدير زيد بن علي الوزير، متعه الله بالصحة والعافية، وعلى خطى من مضوا من الرعيل الأول أخويه عبدالله والعباس حيث ظلّ الانتماء والوجدان، واستمر في العطاء، سواء على مستوى صحيفة الشورى أو في عضوية المجلس السياسي للحزب ثم رئاسة المجلس السياسي للحزب

كان حاملاً لمشروع أفكار، ومؤمناً بقناعات ومبادئ، والمتمثلة في الشورى في الأمر والعدل في المال والخير في الأرض، وخصوصاً أن ولادة الحزب انبثقت عن الرغبة الملحة في مساندة طموحات الشعب في التقدم والرفاهية ونبت التعصب بكل أشكاله وصوره

عندما تكون في حضرة المفكر الكبير، القاسم بن علي الوزير، فأنت في حضرة الفكر والإبداع والمبادئ القيمة، في حضرة مفكر استثنائي، لن نستطيع أن نفيه حقه

عندما نكتب عنه نكتب عن فكره المتجدد ومبادئه وجهاده ونضاله، الذي يعتبر نبراسا للأجيال، فهو صاحب اطلاع واسع ومدهش، وتكوين موسوعي متعدد الحقول والتخصصات، وذاكرة حادة جدا تحتفظ بأدق التفاصيل في حياتنا الفكرية والثقافية، وإمام دقيق بالثقافة العربية والإسلامية، وبتيارات الفكر الإسلامي قديما وحديثا. وقد اكتسب هذه الخاصية، بنظرنا، من مسار حياته العلمية والفكرية والسياسية؛ مسار غني ومتنوع، عرف تحولات وانعطافات في الفكر والمنهج والموقف أن تفرغه الفكري جعله على صلات وثيقة بالتراث الثقافي والفكر العربي الإسلامي، وبكل التيارات والمدارس والسياسية والاجتماعية والثقافية. فقد عاش متفرغا للجهاد وقول كلمة الحق، عاش للفكر والمبادئ والبحث والشعر والأدب، مطالعة وتأليف. وكان يعتبر الوظيفة العمومية شكلا من أشكال الجمود تجعل الباحث محصورا في مكان ضيق، لذلك رفض الكثير والكثير من المغريات والعروض والمناصب الكبيرة، ولم يقبل إلا المهام البحثية المندرجة في مشاريعه الفكرية وفي أجنده البحثية؛ مثل عضوية مركز الحوار العربي، الذي لاقى فيه الكثير والكثير من المحاضرات القيمة في شتى المجالات، وكذا عضويته في مركز التراث والبحوث اليمن

أشتغل على القضايا المعاصرة في فترته في موضوعات: التراث، والحرية، والنهضة، واليقظة، والعلمانية، والتعددية، والسياسة، فعندما تكون في حضرته، ستكتشف أنك أمام رجل قمة في التواضع والبساطة، يكلمك بحميمية وكأنك صديقه الحميم حتى لو كان أول لقاء بينكما، يقبل عليك بكل أريحية وبساطة، ويستمتع إليك

ويوليك جل اهتمامه، حتى يراودك الشك: أهذا هو المفكر والشاعر الكبير القاسم بن علي الوزير؟ تواضع جم إلى حدود الخجل، وعمق إنساني، ورحابة صدر. عندما يتكلم، فكأنه شلال متدفق من المعارف والأفكار، باتساق وانسجام، ومن دون رطانة أو تكرار. فقد وهبه الله بلاغة القلم وبلاغة اللسان، تشرفت شخصيا بمرافقته وحضرت معه أكثر من محاضرة وكان لي نعم المرابي ونعم الأستاذ، ونعم العالم، ونعم الإنسان سلام الله عليه في يوم مولده، وفي يوم لقائه لربه ورحمه الله، تغشاه، وجعله مع الأنبياء والمرسلين والصالحين والصادقين في جنات النعيم

إن فكره النير، ومواقفه السياسية وآرائه وأطروحاته وكتاباتاته هي أصدق برهان على بصيرة فذة وإيمان قوي وعزيمة صلبة

لقد كان لي شخصيا القلب الحنون والصديق الوفي والصاحب السند والمعلم القدوة. ترك برحيله فراغا كبيرا، ليس فحسب، بل لليمن وللأمة العربية والإسلامية، وعزائنا برحيله أن روحه ستظل معنا دائما، سنتذكر مواقفه، وكلماته وتعاليمه فكان لي ولجميع من عرفه، نعم الناصح الأمين والأب والمرشد والسند في كل المراحل. هكذا كان لنا القاسم

كان لنا الأستاذ والمعلم والعلم والنبراس الذي نتهدي به في كل أمور حياتنا واليوم نفتقده إذ يفارقنا بجسده الطاهر، إلا أن روحه وفكره وكلماته وابتسامته وسيرته العطرة ومواقفه الراسخة ستبقى خالدة، وسيبقى فينا الدافع القوي لمواصلة المشوار والنهج الذي سار عليه الراحل العظيم

إنني أتقدم بأحر التعازي وعظيم المواساة إلى ألامه العربية والإسلامية عموماً واليمنيين خصوصاً، وبالأخص إلى أسرته أسرة العلم والفضل والجهاد والشرف وفي مقدمتهم عميد الأسرة سيدي المفكر والأديب والكاتب الأستاذ زيد بن علي الوزير وسيدتي والدتي خالتي الحبيبة حوريه بنت علي الوزير ولأولاده أخوتي وأخواتي البراء وعمر ورقيه ونجيه وعليه والعممة فاطمة وجميع أفراد الأسرة الكريمة، أعزيهم واعزي نفسي بهذا المصاب الجلل الذي أصابنا وأصاب امتنا. ونعاهد روح سيدنا الجليل الراحل العظيم أننا سنبقى الأوفياء للأهداف والمبادئ التي عاش من أجلها وعمل لها وضحي في سبيلها ليل نهار، وان نبذل في سبيلها كل غالٍ ونفيس إن شاء الله نسأل الله تعالى أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته ويسكنه فسيح جناته، وان يتقبله في الصالحين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

((يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي  
وَادْخُلِي جَنَّتِي)) صدق الله العظيم

## القاسم بن علي الوزير

### منارة تهدي للخروج من غياهب مفاهيم منحرفة

محمد عبد السلام منصور

في العام الماضي، عزيت الصديق العزيز، المثقف الموسوعي زيد بن علي الوزير في وفاة أخيه، الشاعر المفكر قاسم، رحمه الله فعبرت له عن مشاركتي حزنه البالغ بمصابه الجلل جراء وفاة أخيه؛ فغص بعبرته وهو يقول بصوت متهدج: “بل إنه رفيق عمري وتوأم روحي”؛ فأكدت له أن كل من عرف أخاه الفقيه قاسم رحمه الله؛ لا بد أن يجزن، لفقده رحمه الله، بكونه — كما عرفته النخبة اليمنية — شاعرا ومفكرا وصاحب رؤية وموقف؛ فضلا عن كونه صاحب أخلاق رفيعة، وبكونه داعيا إلى رؤيته السياسية بمنهج سلمي قويم، كما عبرت له، عن أسفي لأني لم أتعرف على شخص المرحوم ولم أحظ أيضا بالاطلاع على إنتاجه الأدبي والفكري، فبادر وأخبرني أنه سيرسل إليّ، كتابين من إنتاج المرحوم هما (حرث في حقول المعرفة)، و (مجموعات شعرية)؛ فما إن وصل إليّ الكتابان اتجهت إليهما بشغف، فبدأت بتصفح الكتاب الفكري، وثبتت بـ ”مجموعات شعرية” ثم اخترت بعضا مما تضمنه كتابه الفكري فقرأتها قراءة أولى متمنيا حينها أن يتاح لي وقت لكتابة

لمحات عما استخلصته من قراءتي الأولى لما اخترته، مما أسماها في توطئة الكتاب “محاضرات وأحاديث”، لتكون مساهمتي، بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته

غير أنني بعد أن فرغت من قراءة ما اخترته أدركت مدى الأهمية الفكرية للمواضيع التي اخترتها، وبالرجوع إلى ما أبانه المؤلف في مضمون توطئته لكتابه الهام، أدركت أنها ليست أحاديث كما أسماها؛ بل مجموعة من المقالات الفكرية منقولة عن المحاضرات التي ألقى معظمها على “مركز الحوار العربي” في منطقة واشنطن، المركز الذي أوضح الفقيه رحمه الله، أنه “صار ملتقى للصفوة من رجال الفكر والعلم من العرب.. ومن أساتذة الجامعات ومن محامين بارعين ومثقفين كبار ورجال أعمال ومن كل مفكر نابِه من الزائرين”.

إنها بحق مقالات ذات أهمية كبيرة، بما تثيره من قضايا لها أبعاد متعددة: فكرية، سياسية، اقتصادية، اجتماعية، تاريخية، سياسية، وهي كما أوضحت التوطئة، مراجعات للعديد من القضايا المعاصرة التي تشغل حيزاً كبيراً من حياتنا الثقافية، بكل أبعادها، كما أنها ليست محاضرات متفرقات على مواضيع شتى بل إن قضية واحدةً جمعتها واستغرقت كل اهتماماتها، هي قضية (النهضة) الشاغلة للفكر العربي، منذ القرن الثالث عشر الهجري، والتاسع عشر الميلادي، وأنها ما زالت سؤالاً قائماً حتى اليوم

بعد قراءتي الأولى، أدركت أن الكتابة، عما اخترته من عناوين الكتاب، ستكون كتابة فاصرة، عن إعطاء الكتاب ما يستحقه من الأهمية بالنظر إلى أن محاضراته هي بنية متكاملة تتنوع مواضيعها حول قضية (النهضة)

لذلك فلا بد من إعادة قراءة الكتاب قراءة متأنية أتمكن من خلالها لفت نظر القراء إلى أهمية الكتاب وضرورة قراءته، فأنا على ثقة أن المواضيع التي أثارها الكتاب ستدفع كثيرا من قرائه، بخاصة منهم المهتمين بتجاوز تخلف البلدان العربية، ستدفعهم إلى الانخراط في حوارات بين — مختلف الفئات الاجتماعية، والاتجاهات السياسية والرؤى الفكرية والمذاهب الاقتصادية — حول قضية النهضة العربية، بكونها ضرورة ملحة، يجب التعرف على ماهية الأسس التي تنطلق منها، والأهداف التي تسعى لتحقيقها والمسارات المتعددة لتكامل بنية النهضة العربية المأمولة لكل البلدان العربية، فجميعها مازالت سادرة في تخلفها، ولو بدرجات متفاوتة، فيما بينها، فبالنهضة، تتجاوز الأمة العربية واقعها الراكد، الذي استطال أمده منذ سقوط حضارة أسلافنا

إن الكتاب يحتوي على مقدمة ضافية بقلم وإمضاء المثقف الموسوعي والسياسي المحنك/ زيد بن علي الوزير رئيس مركز التراث والبحوث اليمني، تزخر المقدمة، في مبتدئها بالعاطفة الجياشة نحو أخيه مؤلف الكتاب، فقال عنه: ”هو شقيقي ورفيق دربي سرنا معا منذ سقوط الثورة الدستورية عام ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م حتى الآن في ظروف سادتها العواصف الهائجة فبدلت من يسرنا عسرا وأذاقتنا مرا” موضحا أن

سيرتهما بعد من سبقهما لم تغير اتجاههما الدستوري رغم كل الخطوب والإغراءات، ثم عبر عن هذه العاطفة النبيلة تعبيراً صادقاً، حتى امتلأ ضميره رضاء عما فاض به وجدانه من محبة خاصة لشقيقه ورفيق حياته في السراء والضراء، بهذا أسكت العاطفة حيناً من الكتابة؛ حتى أزهرت كلماتها في المقدمة بالأحكام الموضوعية المنصفة المجردة عن هذه العاطفة الصامتة الآن في أعماقه، سعيدة بموضوعيته التي عرفتْها عنه، والتزمها قلمه، فأكد ذلك بقوله: إن “هذا هو حالي عندما أقدم شقيقي ورفيق طريقي فلن تغلبي عاطفة ولن أقول فيما أراه إلا حقا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً”.

فكتب المثقف الحصيف زيد عن أخيه الفقيه، في مقدمة الكتاب، عن تعدد شخصية أخيه بكونه شاعراً كبيراً وأديباً بليغاً، وعن مدى معرفته بتاريخ الفكر الإسلامي، والتراث العربي المعاصر وتاريخ الفكر الغربي، ومضمون الفكر الماركسي، وعلى إنتاج عمالقة الفكر القديم، كالمعتزلة، والفكر الحديث كالإمام أبي زهرة، ومصطفى الرافعي، وعباس العقاد، وأحمد حسن الزيات، وأنه — فيما يخص الفكر الحضاري — تأثر بالفيلسوف مالك بن نبي، واللافت قوله “لقد تأثر بهم إلى درجة أنه لو جُمع الأربعة لمثلهم القاسم بن علي الوزير خير تمثيل”، وأضاف الأستاذ زيد، وحقاً ما أضاف، في المقدمة: أن قلم القاسم يسيل “بالممتع من الفكر، والجميل من النثر، والبليغ من الشعر، وهو في كل من الشعر والنثر، يهدف إلى إيقاظ الفكر من غفوته، وتصحيح السياسي من انحرافه، وإخراج المجتمع من جموده”.

وبكل تلك المواهب أضاء القاسم الوزير في كتابه هذا زوايا بحاجة إلى تنوير وأشهد أنه أحسن التحليل، وأثار الطريق لمجتمع يضطرب في أكفان بالية، ولكي نفهم ما قدمته هذه المحاضرات من منافع فلا بد من الاطلاع على مجتمع (ما بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية) ”وبعد أن بين عدم شكه في أن الدولة العثمانية رغم ما بها من أخطاء كانت بمثابة السور الحامي للشرق المسلم من الاحتلال الغربي الذي حمل معه كثيرا من المفاهيم الخاطئة الغامضة التي أغرت كثيرا ممن هم ضحايا أنفسهم من هذا الشرق ليمارس بها غوايتهم، ومحو هويتهم وقد حاول “السيد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده ومدرستهما التنويرية مقاومة تلك المفاهيم بإحياء المفاهيم الإسلامية البناءة، وشكل موقفهما وموقف مدرستهما خط دفاع أضعف الهجمة الغربية نوعا ما، لكنه لم يتغلب عليها لا بسبب من الغرب ولكن بسبب من العرب ” وبعد أن بين المفكر زيد الوزير انقسام العرب بعد شتات الرؤية إلى “قسمين قسم استمر في التغريب بمفاهيمه الغامضة ولم يستفيدوا من التجربة العثمانية، فظلوا يعزفون بقياتهم مكررة نفس اللحن ونفس الكلام، ومضى آخرون يلجون في نهجهم المتخلف ويرتلونها في معابد مذاهبهم.”

وأحث المقدمة إلى ما مضمونه: أن تحكّم المفاهيم المبهمة، الكيدية، يشيع الثقافة الاستهلاكية غير القادرة على إيضاح مظاهر هذه المفاهيم المبهمة، وكشف بواطن كيديتها، وتجعل محاولات (النهضة) واهنة القواعد مخلخلة البناء، بما يسوق دائما إلى فساد السلطات الحاكمة، وموظفيها، وانتشار الفقر والجهل بين أفراد المجتمع، واختلافهم شيئا وأحزابا، وخلص كاتبها إلى القول “إن إدراك هذه الأمور ضرورة

لفهم شروط النهضة ولفهم الخروج من سرايب الماضي لمقاومة الكيد الوافد؛ لهذا قام ( القاسم بن علي الوزير) في كتابه هذا ليوضح المخرج من الغموض إلى الوضوح ومن الخلل إلى الثبات ومن الأعماق إلى السطوح، ومن ثنيات الطريق إلى الصراط المستقيم: سبيل المعرفة”.

وفي رأيي أنه لامس لب الحقيقة، إذ نبه بإشارة سريعة إلى أن وضوح المضامين شرط لمعرفة جلاء الطريق وأسفه من أن المضامين الإسلامية تغيرت وتبدلت والمضامين الغربية شابتها المكاييد،” ولو كانتا واضحتين بدقة لما احتاج أحدٌ إلى عناء التوضيح... ومن هنا فيني واثق أن ما قدمه (القاسم بن علي الوزير) في كتابه هذا وفيما كتب من فهم دقيق للمفاهيم وعمق الأفكار سيجد فيه الناس منارة تهدي للخروج من غياهب مفاهيمٍ منحرفةٍ تعتقت، ومفاهيم أخرى أضرت”

نعم إن وضوح المضامين للإفهام سواء أكانت تعاليم دينية أو نظريات بشرية، وصحة تطابقها مع خيرية الفطرة الإنسانية، ومتطلبات العصر الحديث وأخذها بوسائله العلمية، هي الشرط الأساس في معرفة الأسس التي يجب أن تنطلق منها الأمة بكل فئات مجتمعاتها، لامتلاك وسائل (نهضتها)، وتؤكد بها قدرتها على تحديد السبل القويمة التي يجب السير عليها للبدء في بناء قواعد ثابتة للبناء الحضاري الذي تتجاوز به الأمة أسباب تخلفها والاستفادة من علوم العصر بهدف بناء حضارتها المعاصرة، المحافظة على القيم الأخلاقية الرفيعة، التي أكدت عليها تعاليم دين الفطرة الإنسانية السليمة

توقفتُ طويلا، عند عتبات الكتاب المتمثلة في هذه المقدمة الضافية، للمثقف الموسوعي زيد بن علي الوزير، لأسباب أهمها أنها تضمنت تقييما، للكتاب، ولكتابه، استطاع . بعد أن جاهد النفس على إسكات العاطفة في أعماقه . أن يجعله بحق تقييما موضوعيا، ولأني بعد قراءتي المتأنية للمقدمة والكتاب اقتنعت أن أحدا لا يستطيع أن يضيف إلى هذا التقييم شيئا آخر، وأما السبب الأكثر أهمية، أن المقدمة والكتاب، قدما للقراء علمين من أعلام الفكر والثقافة، يتميزان، بموسوعيتهما الثقافية التي نخلت من مصادر قديم وحديث الفكر العالمي، العربي، اليمني، فضلا عن تنوع قدراتهما، الأدبية والشعرية والبحثية، ونشاطاتهما السياسية، النظرية منها والعملية، الداعية إلى إقامة الدولة الدستورية التي دعت إلى إقامتها الثورة اليمنية الدستورية لعام ١٩٤٨ ولم يكتب لها النجاح، وهما مع أخيها المفكر الإسلامي إبراهيم ينتمون إلى أحد أهم قادة الثورة الدستورية وشهادتها البارزين، هو علي بن عبد الله الوزير

لقد هيأت لي هذه الخلفية مدخلا؛ لما أرغب في الإشارة إليه، إشارة موجزة؛ فأقول: إن العوامل الأكثر تأثيرا في تكوين شخصية الإنسان الفكرية والسلوكية، وتحديد اتجاهات اهتماماته، وأهداف حياته، هي طبيعة البيئة الاجتماعية التي ولد فيها وتفاعل مع كل مكوناتها المادية، والفكرية المتمثلتين في (منظومة العلاقات الاقتصادية، والاجتماعية)، وفي (منظومة الثقافة القيميّة) المتجسدتين، في السلوك العملي، بين أفراد الفئات الاجتماعية المختلفة؛ فيرضعها الفرد طفلا، ويتفاعل معها صيبا؛ فتتنامي في سلوكه العملي شابا؛ وبها، وبتراكم معارفه راشدا، تتبلور رؤاه

ومواقفه، وحين يبلغ النضج العقلي، يختار من الثقافات والأفكار ما يوافق رؤيته ويبرر مواقفه، سعيا إلى تحقيق مصالحه ومصالح مجتمعه الأقرب إليه فالأقرب، ابتداء من الأسرة وحتى الوطن، بل يبلغ الأمر، بالمفكر الأوسع إدراكا، أن يختار من الفكر، ما يدعو إلى ضرورة العدالة التامة، في تمتع أفراد ودول المجتمعات البشرية قاطبة، بكل الحقوق الإنسانية، بل ويعمل على إثراء هذه الدعوة فكرا وسلوكا

فإذا ما أعملنا هذه الرؤية على حياة المفكر الشاعر القاسم بن علي الوزير، وأشقائه، وموقع أسرتهم العلمي والسياسي الرفيع في المجتمع اليمني، عبر التاريخ، وما حدث لأفراد أسرته إثر ثورة ٤٨م الإصلاحية الدستورية، التي تمت هزيمتها، على يد أحمد حميد الدين، وحاضنته البيئة القبلية المتراكمة: فقرا وجهلا وعصبية عمياء، ثم إعدام قادتها، ومنهم والدهم، والزج بهم في السجن، وهم ما زالوا في مرحلة الصبا المشبوبة فرحا وسعادة بجياهم المتطلعة إلى ما هو أسعد وأجمل مما هم فيه، وما خلفه كل ذلك من جروح غائرة في نفوسهم وأحزان عميقة بهضت أرواحهم، زد على ذلك، إصرار الاستبداد تحريض المجتمع على السخرية منهم، واتهاماتهم بأقويل كاذبة، وأقل ما وُصِفَتْ به حالتهم الإنسانية الأليمة ما قاله كاتب المقدمة: أنها جاءت “ في ظروف سادتها العواصف الهائجة فبدلت من يسرنا عسرا وأذاقتنا مرا” إن تفصيليات هذه الحالات المتقلبة ما بين السعادة والشقاء، الانكسار النفسي، والصبر المرير، فالنهوض، ثم الانتصار المعنوي والنضال السياسي، نظريا وعمليا، من أجل الهدف ذاته الذي ضحى من أجله الآباء الشهداء بأرواحهم

نعم إن هذه الحالات المتقلبة، فضلا عن الحاضنة الاجتماعية بكل أبعادها: التاريخية، الفكرية، السياسية، هي التي حفزت القاسم بن علي الوزير، وأشقائه، إلى تحصيل المعارف والعلوم متعددة الحقول، كما رأينا، حتى صار قادرا على إنتاج مثل هذا الكتاب المهم الذي بين أيدي القراء (حرثٌ في حقول المعرفة) لما له من أهمية في معرفة كلما يتعلق بقضية (النهضة) فما زالت هي قضيتنا المركزية التي كلما حاولنا إنجازها تعثرنا بموانع كثيرة تكمن في واقعنا المتخلف ماديا وفكريا أهمها عدم وضوح الرؤية إلى مكامن هذه الموانع سواء الداخلية منها أو الخارجية، فيأتي هذا لكتاب الذي بين يد القارئ ليبين لنا مكامن هذه الموانع في تسع محاضرات، أولها (الموقف من الحضارة الغربية) وآخرها (نقاش حول الموقف من الحضارة العربية، وقد قام بتحليله الموضوعي لكل مواضيع المحاضرات التسع وبمنهج بحثي قويم، وأما أنا فقد آثرت ألا أقوم بدراستها، أو تقديم ملخص لكلٍ منها؛ حرصا على وقوف القارئ بنفسه عند كل محاضرة لأهمية موضوعها متكامل البنية مع مواضيع جميع المحاضرات، لكنني سأستسمح القارئ أن أضع أمامه منهج الكاتب في تناول موضوع محاضراته، فأختار منها مثلا هو المحاضرة الأولى

### الموقف من الحضارة الغربية

يستهل الكاتب تحليله لموضوع المحاضرة بفقرة قصيرة يقول فيها: “يحسن بنا بداية أن نُعرّف مصطلحين ونحدد قضيتين حتى لا نقع في التباس يتسبب فيه عادة اختلاط المفاهيم، واختلاف التعاريف أما المصطلحان، فهما: الحضارة . الغرب

وأما القضيتان فهما: العلاقة بين الحضارات من حيث هي حضارة بصرف النظر  
عن انتسابها الزمني أو الجغرافي

. العلاقة بالغرب بمعنى: هل هي علاقة به أم بحضارته؟

ويعضي القاسم بقلمه الرشيقي عميق الفهم، في تحليله أولاً بتقديم تعريف المصطلحين  
وتحديد القضيتين، ثم يسير في تحليلٍ مستفيضٍ في منطقٍ بحثي دقيق يستغرق له ثماني  
عشرة صفحة ونصف، تتخلله مجموعة من العناوين الجانبية، والاستدراكات  
الضرورية، فأشبع القضية تعريفاً وشرحاً لكل أبعادها.

وما أردت بضرب هذا مثلاً، إلا ليعرف القارئ أنه أمام كتابة منهجية صارمة التزم  
بها الكاتب بما يحتاجه كل موضوع من مواضيع الكتاب التي تدور جميعها حول  
قضية واحدة هي قضية النهضة، ولأهمية هذه القضية يجب علينا التعرف عليها بكل  
أبعادها التي ضمها هذا الكتاب

\* أديب وكاتب وشاعر

فلا تسألني عني سلي عن مصائبي

حزين .. لحزن مواهبي

تجرعتها طفلا صغيرا ويافعا

وكهلا لقد أتعبت حتى متاعبي

بكيت الرفاق الذاهبين فلم أدع

دموعا لعين او وجيبا لنادب

القاسم بن علي الوزير